

إحسان عبد القدوس

علبة من الصفيح

طبعة خاصة بدولة الإمارات العربية المتحدة





رئيس مجلس الإدارة

سعيد عبده مصطفى

كتب ثقافية

تصميم الغلاف:

محمد عطية

عبد القدوس، إحسان محمد، 1919 - 1990.
علبة من الصفيح/ إحسان عبد القدوس. - القاهرة:
دار المعارف، 2016.
312 ص، 19.5 سم

تدمك 3 8365 02 977 978
طبعة خاصة بدولة الإمارات العربية المتحدة
1 - القصص العربية القصيرة.
(أ) العنوان.

تصنيف ديوي: 813.01
رقم الإيداع: 2016/10948
رقم أمر التشغيل: 1/2016/40
رقم الكونجرس: 5 - 840245 - 01 - 2

لا يجوز استنساخ أى جزء من هذا الكتاب بأى طريقة كانت
إلا بعد الحصول على تصريح كتابى من دار المعارف

تم التنفيذ بمركز زايد للنشر الإلكتروني
بدار المعارف - ١١١٩ كورنيش النيل -
القاهرة - جمهورية مصر العربية

الناشر : دار المعارف - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة ج. م. ع.

هاتف: ٢٥٧٧٧٠٧٧ - فاكس: ٢٥٧٤٤٩٩٩ E-mail: maaref@idsc.net.eg



تمت الطباعة بدعم من
مؤسسة الشيخ زايد بن سلطان آل نهيان
للأعمال الخيرية والإنسانية



علبة من الصفيح الصدئ

« خرجت من القرية...»

« ولن أعود...»

ولست حزينا.. ولا آسفا.. بالعكس.. إنى أحس براحة غريبة،
وأعصابى هادئة كما لم تهدأ من قبل، وابتسامة كبيرة تنطلق في
صدرى، وتلقى بظلمها على شفتى.. أحس بإحساس الأب الذى
اكتشف فجأة أن ابنه قد كبر وأصبح رجلا قويا.. والأب هو دائما
آخر من يكتشف أن ابنه قد أصبح رجلا.. رجلا لم يعد فى حاجة
إلى أبيه!!

والواقع أنى لم أتعمد الخروج من القرية، ولم أكن قد اتخذت
قرارا بعدم العودة إليها.. إنما كل هذا حدث فجأة..

كنت جالسا فى المنذرة مع شقيقى الأكبر عبد الرحمن، ومعنا
الشيخ حسنين مدرس المدرسة الإلزامية، ومحمد أبو عوف، وعبد الله
رضوان، وأحمد الرفاعى.. وكان أخى عبد الرحمن يتصدر المجلس
كعادته منذ وفاة أبى، مهيبا رزينا، جالسا على الأريكة العتيقة،
وقد طوى إحدى ساقيه تحته، ورفع ساقه الأخرى وثناها، وألقى
ذراعه على ركبته، وترك مسبحة تتدلى من يده، وقد تباعدت
حباتها فوق الخيط الذى يربطها.. فكلما ألقى حبة منها اصطدمت

بالحبة التي تحتها في صوت مسموع.. وكانت تضى الساعات ولا
يصدر عن أذى صوت، إلا صوت حبات مسبحة وهى تصطم بعضها
ببعض.. فإذا توقف هذا الصوت، كان هذا إيذاناً بأن أذى بهم أن
يتكلم، فيرهف الجالسون أسماعهم، ويمدون نحوه أعناقهم، فى
تلهف واهتمام.. رغم أن أكثر ما يقوله أذى لا يستحق الاهتمام!!
وفجأة قال محمد أبو عوف:

– مش برضه نشوف طريقة نقوم بيها محامى للواد رزق..
واهتزت أصابع أذى، وهى تعبت بمسبحته، وتسارعت دقات
حباتها وهى تصطم بعضها ببعض..

وقال الشيخ حسنين وهو يملأ شذقيه بحروف كلماته:

– رزق معتوه ومجنون، وهو معنى من المسئولية شرعا، سواء
بمحام، أو بغير محام..
وقال أحمد الرفاعى:

– والله أنا لسه مش مصدق.. حد كان يفكر أن الواد رزق يعمل
العمله دى..

وقال عبد الله رضوان وصوته القوى ينضح بالسخط:

– إحنا المحقوقين.. كنا سايبينه طايح فى الكفر كله واحنا
عارفين أنه مجنون..

ورد محمد أبو عوف فى عصبية:

– يعنى حد كان عارف إن جنانه يوصل لحد كده.. ما هو طول
عمره عايش فى الكفر، ما حدش شاف منه حاجه تخوف.

وأحسست أنى لم أعد أستطيع أن أسمع مزيدا فى موضوع رزق.. منذ أسبوع والقرية كلها تتحدث عن رزق.. وما يقال يعاد.. وكل ما يقال كلام سانج.. إن أحدا لن يفهم مشكلة رزق إلا أنا، وبرغم ذلك فإنى لا أستطيع أن أشرح فهمى لها، لأن أحدا من أبناء القرية لن يفهمنى..

وأحسست أيضا أنى لم أعد أطيق سماع دقات حبات مسبحة أخى عبد الرحمن.. خيل إلى أنها دقات خطوات الفناء.. دقات قلب عالم يموت.. وأحسست بها تقع على أعصابى، وتدفعنى إلى التحدى.. تحدى الفناء.. تحدى العالم الذى يموت.. تحدى أخى.. وأنا حريص دائما على ألا أتحدى أخى.. فقامت فجأة من مجلسى، وتمتمت دون أن ألتفت إلى أحد:

- عن إذنكم..

وتوقفت دقات المسبحة، وشعرت بعينى أخى تتبعانى إلى أن وصلت إلى الباب، ثم ارتفع صوته مهيبا رزينا يشقه خيط ساخر:

- على فين يا مأمون؟

وأجبت وأنا ألتفت إليه لفتة سريعة دون أن ألتقى بعينه:

- داخل جوه شوية..

وقال محمد أبو عوف:

- متتأخرش يا سى مأمون.. عايزين نرسى على حل فى حكاية

الواد رزق..

ولم أرد عليه..

خرجت من المنذرة، ولكنى لم أتجه إلى داخل البيت.. خرجت من البيت كله، وسرت فى أزقة القرية، ورأسى منكس فوق صدرى، وعيناي على الأرض، أتتبع بهما أقدام الفلاحين الذين يمشون بى.. الأقدام الحافية الكبيرة، السمراء، المشققة.. وخيل إلى وأنا أتتبع هذه الأقدام وهى تتحرك، كأن الأرض نفسها تتحرك.. تسير.. تزحف.. وأسمع من حولى همهمات.. السلام عليكم.. العواف.. شى.. حا.. هع.. وأهمهم مع المهممين، وأنا أحس إحساسا غريبا بأن هذه المهمة ليست سوى صوت احتكاك التروس التى تحرك قريتنا.. تروس بطيئة.. ولكن الحركة أكيدة.. واللون الأسمر.. لون الطين.. يملأ عيني المنكستين.. الأرض سمراء.. والجدران سمراء.. والأقدام سمراء.. وخيل لى أنى لورفعت عيني فسأرى السماء سمراء.. وسأرى وجه الله أسمر..

وتوقفت عيناي عند قدمين.. قدمين صغيرتين، ولكنهما سمراوان أيضا، ومشقتان أيضا.. ورفعت عيني لألتقى بوجه «سبيلة»، وهو يطل من تحت صفيحة الماء التى تحملها.. إنها دائما تحمل شيئا فوق رأسها..

ووقفت قبالتها أملاً عيني منها.. عيناها المكحلتان.. شفتاها الرقيقتان الغامقتان.. ووجهها الهادئ الصبور، وقد اختلطت صفرتة بسمرتة.. وابتسامتها المهتزة الخجولة التى تحاول أن تخفف بها من نظرة استغاثة كبيرة تطل من عينيها.. إنى دائما



أرى هذه النظرة في عينيها.. نظرة الاستغاثة تستغيث بي.. منذ
كنا أطفالا وهى تستغيث بي.. ولم أستطع أبدا إغاثتها.. وبرغم ذلك
فهى لم تفقد الأمل.. إنها لا تزال تستغيث بي.. ولم تصدق أبدا
أنى أنا الآخر كنت أستغيث بها، وأنى كنت أكرم استغاثتى فى
صدرى.. وكلانا كان أضعف من أن يغيث الآخر..

وطالت وقفتى قبالتها برهة.. حاولت أن أقول شيئا.. ولكنى
لم أقله.. واهتزت شفتاها كأنها هى الأخرى تحاول أن تقول شيئا..
ولم تقله.. وبقينا صامتين.. ابتسامتى اليائسة تلتقى بابتسامتها
المسكينة، ونظرتى المستسلمة تلتقى بنظرتها المستغيثة.. ثم
اهتزت ذراعها التى تسند صفيحة الماء فوق رأسها، فانسكب خيط
من الماء فوق جلبابها الأسود.. وارتشعت رموشها فى ارتباك،
وانطلقت قطرات الخجل فى وجنتيها، وتمتمت بوضع كلمات لم
تصل إلى أذنى، ثم استدارت وسارت فى طريقها..

وانتابنى شعور جارف بأنى لن أرى سبيلة بعد اليوم.. لا أدرى
لماذا، فلم أكن حتى هذه اللحظة قد قررت أن أترك القرية، ولا
أعود.. ووجدت نفسى التفت وراءها وأنظر إلى قوامها المفرد
نظرة طويلة حزينة.. نظرة وداع.. ثم انتبهت، وتلفت حولى كأنى
خشيت أن يكون أحد قد ضبط نظرتى.. ثم عدت أنكس رأسى فوق
صدرى، وأسير..

وتجاوزت في سيرى أزقة القرية، وأخذت أسير على حافة
المصرف.. عيناى منكستان على الأرض أتتبع بهما أقدام الفلاحين
التي تمر بى.. ولم أرفع رأسى إلا عندما مررت بضريح أبى..
إن لأبى ضريحا كبيرا فى القرية.. مزار.. أقيم خارج منطقة
المقابر، على حافة المصرف.. وله قبة خضراء، وفوق القبة
هلال، وبجواره مصلى صغير فرش بالحصر.. وأهل القرية والقرى
المجاورة يعتبرون أبى وليًا من أولياء الله.. كان رجلا صالحا،
طيبا، عنيدا.. ولكنه لم يكن أبدا وليًا من أولياء الله.. وليس هناك
أحد أحبه مثلما أحببته.. وبرغم ذلك فأنا الوحيد فى القرية كلها
الذى لا يؤمن بأن أبى ولى من أولياء الله.. حتى أمى آمنت بأنه كان
أحد أولياء الله، وأخذت تذيب فى القرية حكايات عن كراماته..
وهى ليست حكايات كاذبة، ولكنها أيضا ليست كرامات، إنما
جهل أمى وسيطرة شخصية أبى عليها، صور لها هذه الوقائع التى
كان بطلها أبى، كأنها كرامات.. وأخى استراح إلى اعتبار أبى
من أولياء الله، وعاش فى ظل هذه الخرافة وحاول أن يستغلها،
بل حاول أن يكون خليفته فى الولاية، فقلده فى تفاصيل حياته،
وأصبح يدعى المهابة والرزانة مثله، ويمسك بمسبحته، ويرتدى
عمامته، ويجلس جلسته.. وشارك أمى فى رواية الحكايات عن
كرامات أبيه الشيخ محمد القماش.. ولكن حكايات أخى كانت
كاذبة، مغالى فى كذبها، وكان هو أول من يعلم أنها كاذبة.. ومع
مرور السنين.. وخلال اثنى عشر عاما فقط ضاعت شخصية أبى

الحقيقة.. وضاعت القضية التي وقف حياته عليها والتي أكسبته حب واحترام الفلاحين، وأصبحت شخصيته شخصية وهمية خرافية.. شخصية رجل مشغون مجذوب..

ووقفت أنظر إلى ضريح أبي من بعيد.. ولم أقرأ له الفاتحة كما تعود أن يقرأها كل من يمر به.. ولكني ابتسمت له.. ابتسمت له كأني أواسيه في محنته، وفي شخصيته الحلوة القوية التي ضاعت وسط الخرافات التي بعثرت حوله.. ابتسمت له كأني أشجعه على احتمال مصيره، فقد كنت دائما مقتنعا بأن أبي لا يمكن أن يكون مستريحا تحت هذه القبة الخضراء الكبيرة، ولا إلى صوت النساء وهن يتمسحن به ليتشفع لهن حتى يحملن ويلدن!

ثم تجاوزت ضريح أبي، وسرت على حافة المصرف، إلى أن التقيت ببدوى أبو خليل راكبا حماره، عائدا إلى القرية.. وما كاد بدوى يحييني حتى قلت له كأني أطلق أمنية ظلت حبيسة في صدري أمدا طويلا:

- أول ما توصل الكفر، فوت على اخويا عبد الرحمن، وقوله له إنى نزلت مصر..

وفي هذه اللحظة فقط عرفت أنى قررت أن أترك القرية، وعرفت أيضا أنى لن أعود إليها.. ورفعت رأسي، وسرت في خطى سريعة حازمة نحو محطة القطار.. وقد ارتاح صدري واستقرت نفسى ووضح الطريق أمامي..

ولم أتنبه إلى أنى مرتد جلبابى الجوخ، وفوق رأسى الطاقية الصوف، إلا بعد أن أخذت مقعدى فى القطار.. وابتسمت.. وتخيلت ضحكة مرفت عندما ترانى فى الجلباب.. إن أحدا من أهل القاهرة لم يرنى أبدا مرتديا زى القرية.. بل إن كثيرين من أصدقائى فى القاهرة لا يعلمون أنى فلاح.. الذين يعلمون هم فقط الذين شاركونى فى أكل الفطير المشلتت الذى تعودت أمى أن ترسله إلى..

ولكن صورة مرفت وصورة مجتمع القاهرة كله اختفت سريعا من خيالى، ونسيت أنى ما زلت مرتديا الجلباب وفوق رأسى الطاقية.. وعدت أهيم فى قصتى مع القرية.. أو على الأصح، قصة القرية معى..

وقصة القرية معى تبدأ دائما بوجه سبيلة.. وسبيلة هى حبى الأول، وربما كانت حبى الوحيد، فكل ما صادفنى بعد ذلك من علاقات عاطفية لم يرتفع أبدا إلى مستوى العاطفة التى ربطتنى بسبيلة.. إنه حب تفتحت عليه عيناي وأحاسيسى، منذ تفتح وعيى للحياة.. حياتى لا تبدأ بوجه أمى، ولا بوجه أبى، ولا بوجه القرية كلها.. بل إنى أحس اليوم كلما همت مع ذكرياتى البعيدة، أحس كأنى لم أر وجه أمى ولا وجه أبى إلا بعد أن رأيت وجه سبيلة.. وربما كانت نوازع الاستقلال، ومحاولة بناء الحياة الفردية تبدأ مع الطفل منذ ولادته، وكانت سبيلة هى أول خطوة لى نحو الاستقلال بحياتى، أول إحساس بشخصيتى فى الحياة..

ولذلك فحياتى تبدأ منذ الأيام التى كنت أعب فيها مع سبيلة فوق
أكوام السباخ فى الساحة التى تقع أمام زريبة الدائرة.. دائرة الأمير
ولى الدين سامح.. وكنت أشترك معها فى تحميل السباخ فوق ظهر
الحمار، ونسير معاً ومعنا الحمار إلى الغيط القريب، لنفرغ حمولة
السباخ.. ثم نعود معتلين ظهر الحمار.. هى فى المقدمة وأنا
خلفها.. ولا أنكر فيم كنا نتكلم أيامها، ولا ماذا كان يضحكنا،
وماذا كان يبكيها.. ولكننا لم نكن نفترق أبدا.. وكنت أعود إلى
البيت لأواجه صرخة أمى وهى تنظر فى هلع إلى جلابى المتسخ:
- يا واد أنت مش حاتبطل لعب فوق كوم السباخ..

ولم أكن أستطيع أن أبتعد عن أكوام السباخ، إلا إذا ابتعدت عن
سبيلة، فأبوها يعمل كلاف فى زريبة الدائرة، وهى تعمل معه..
إن أكوام السباخ بالنسبة لنا ليست مرتع لهُو، ولكنها مكان عمل..
برغم أننا أيامها كنا نحس باللهو أكثر مما نحس بالعمل..

ولم تكن حقيقة أن أبا سبيلة هو مجرد كلاف فقير، وأنا ابن
الشيخ القماش الذى يملك أربعين فدانا.. بل إنه المالك الوحيد
فى القرية.. لم تكن هذه الحقيقة تثير بيننا أى مشكلة.. لم تكن
طفولتنا البريئة تستطيع أن تتبين الحبال الغليظة الخشنة التى
تزحف تحت أقدامنا وتلتف حول عمرينا كلما كبرنا، لتشدنا
أحدنا بعيدا عن الآخر..

وانسى أنكر يومًا، عندما كنت فى العاشرة من عمري، أن قلت
لسبيلة ونحن عائدان من الغيط فوق ظهر الحمار:

– بكره تكبرى يا سبيله واتجوزك واضربك كل يوم علقه زى عم
مدبولى ما بيضرب مراته..

وقالت سبيلة وهى تدير رأسها إلى:

– ما أنا كبرت خلاص يا مأمون.. ده أنا أكبر من نفيسة بنت
عمى بسنتين..

وكانت سبيلة أيامها فى السابعة من عمرها.

وبعد أن أصبحت أنا فى السادسة عشرة، وأصبحت سبيلة فى
الثالثة عشرة.. عدنا نتحدث عن الزواج.. وكانت سبيلة يومها
جالسة بجانب الفرن فى دارنا تساعد نساء البيت فى الخبيز،
وكنت أنتظرها فى الحوش المجاور.. ولما خرجت لحقت بها،
ووقفنا نتحدث، وهى ترخى عينيها عنى، ولمسة حمراء تسرى
تحت بشرتها السمراء، وقلت ضاحكا:

– إحنا مش كنا اتفقنا على الجواز يا بت..

وأجابت وهى تحنى رأسها:

– ودى تيجى.. إيش جاب لجاب.. ده أنا خدامتك يا سى
مأمون!

ويومها تنبهت لأول مرة إلى أن سبيلة تخاطبني بلقب «سى»..
سى مأمون.. ولقب «سى» ليس بسيطاً.. ليس هينا.. إنه يمثل جدراننا
عالية سوداء تفصل أهل القرية بعضهم عن بعض.. جدراننا سوداء،

اسمها «سى».. وجدراننا أخرى اسمها «سعادة البية».. وجدراننا
ثالثة «سعادة الباشا».. وجدراننا رابعة اسمها «أفندينا».. والغريب
أنه كلما ارتفعت الألقاب انخفضت الجدران.. فالجدار الذى يفصل
بين «البية» و «الباشا»، أقل ارتفاعا من الجدار الذى يفصل بين
«سى» و«اللاسى».. الجدار الذى يفصل بينى وبين سبيلة، جدار
عال.. عال جداً.. شاهق.. أعلى من الهرم.. أعلى من الجدار الذى
يفصل بينى وبين ابنة ناظر دائرة أفندينا.

ولكن.. من الذى علم سبيلة أن تنادينى بلقب «سى».. لا أحد..
لا أنا طلبت منها أن تنادينى «سى».. ولا أبوها علمها كيف
تنطقها.. ولا أبى.. لا أحد.. ولكن عقلها تفتح فسمعت الناس فى
دنياها ينادوننى «سى».. ووجدت البنات فى سنها ومن طبقتها
يعتبرن أنفسهن خادمات لى.. ولأبى.. ولأمى.. ولكل عائلتنا..
فاستسلمت فى هدوء، وانزوت مع أهلها تحت الجدار، الأسود
العالى، ورددت فى خنوع «أنا خدامتك يا سى مأمون»!

والغريب أنى لم أكتشف هذه الجدران العالية السوداء فى
عينى سبيلة وحدها.. ولكنى اكتشفتها فجأة أمام عينى أنا أيضا..
فى صدرى.. أنا أيضا أقف خلف الجدار الأسود العالى، وأنزوى
تحتة.. أقف فى الناحية الأخرى التى لا تقف فيها سبيلة.. بينى
وبينها هذا الجدار.. ووجدت نفسى لا أحاول أن أتخطاه.. لا أحاول
أن أهدمه.. إنما أستسلم له، كما استسلمت له سبيلة من الناحية
الأخرى.. وأحسست أن كل هذا الحب الذى أحمله لسبيلة لا يكفى

لهدم الجدار الأسود.. بل أحسست أن الحب أيضا كان معترفا بهذا الجدار.. وأنه نشأ وتربى فى ظله.. وإنى دون أن أتعمد، ودون أن أدرى، كنت أسير دائما مع سبييلة على ناحيتى الجدار الأسود.. وإن حديثى عن الزواج بها لم يكن حديثا يعبر فى صدق عن مستقبل أرسمه بل حديث أمنيات خيالية ليس له أثر فى واقعى النفسى.. كما أتحدث عن الجنة.. أو عن اعتلائى عرش مصر.. مجرد أمنية بعيدة تنطلق من عقدة اجتماعية لم أفكر يوما فى حلها..

وبرغم ذلك فقد مر بنا عمر لم نكن نرى فيه هذا الجدار.. عمر كنا خلاله نلعب معا فوق أكوام السباح، ونركب معا الحمار.. ولم تكن سبييلة تنادينى بلقب «سى» ولا كانت تعتبر نفسها خادمتى.. كانت تعتبر نفسها حبيبتى وزوجتى.. عمر كنا فيه أطفالا.. وربما كان الأطفال هم وحدهم الذين يستطيعون اختراق هذه الجدران السوداء العالية.. لا.. إنهم لا يخترقونها.. إنهم يلعبون فوقها.. ونحن لم نعد نلعب.. لم نعد أطفالا..

وتركت يومها سبييلة، وأنا أحس بعاطفتى نحوها ثقيلة ولها طعم جديد.. ثقيلة ثقل اليأس، ولها طعم اليأس.. طعم مر.. وقضيت عمرى بعد ذلك أحاول أن أتعالى على هذه العاطفة.. حتى لا أصدم بهذه الجدران السوداء.. ولكنى كنت كلما أمعنت فى التعالى على عواطفى، أحسست بنفسى أهبط.. أنخفض.. أنزل فى الواطى..

ويومها خرجت أسير بين الحقول على حافة المصرف، أحمل في صدري هذا اليأس الثقيل.. إلى أن سمعت صوت رزق يناديني من تحت شجرة الجميز بصوته الذي تمزقة عاهته:

– على فين يا مأمون..

واتجهت إليه وجلست بجانبه صامتاً..

وتركني رزق كعادته غارقاً في الصمت دون أن يحاول أن ينقذني منه.. ورزق لا يزال يناديني باسمي مجرداً.. لا يضيف إليه لقب «سى».. ربما لأنه عبيط.. عبيط القرية.. عقله لم يكبر حتى يرى هذه الجدران السوداء العالية..

ورزق نشأ فلاحاً فقيراً يتمياً.. أكتع.. يسير وهو يرفع كتفه اليسرى، ويعرج على قدمه اليمنى، وفمه مفتوح في بلاهة، يسيل منه لعابه بشكل منفر.. واعتقد أهل القرية أن في رزق «شيء لله».. وتركوه يتجول في الأزقة يفعل ما يريد.. ويدخل أي بيت ليأكل عندما يريد أن يأكل.. وينام عندما يريد أن ينام.. ولكنه كان يفضل دائماً أن يبقى تحت شجرة الجميز، خارج القرية، لا يقوم من تحتها إلا تحت إصرار معدته الخاوية.. وكان من حق رزق أن يقول أي كلام.. وأهل القرية يضحكون على كل كلام يقوله.. وكان دائماً – منذ كان طفلاً – يحمل تحت إبطه علبة من الصفيح.. علبة متآكلة، صدئة، قدرة، لم يكن أحد من أهل القرية يعلم ما بها.. ولم يكن رزق يسمح لأحد بأن يرى ما في علبته أو حتى يلمسها.. وهي

دائماً تحت إبطه.. يأكل وهي تحت إبطه، وبينام وهي تحت إبطه، ويلعب وهي تحت إبطه.. أصبحت هذه اللعبة قطعة منه.. وأهل القرية يتندرون عليها.. على اللعبة.. ويحكون عنها الحكايات.. ويتوهمون أشياء كثيرة غريبة في داخلها.. دون أن يستطيع أحد أن يرى ما فيها، ولا أن يلسمها.. أنا الوحيد الذى كان لى حق لمس لعبة رزق..

أنا الوحيد الذى كنت أعلم ما بداخلها..

رزق هو الذى أعطانى حق لمس علبته، وهو الذى فتحها لى لأرى ما بداخلها.. فقد كنت صديقه الوحيد.. وقد تعودت عبطه منذ طفولتى حتى لم أعد أعتبره عبيطاً، بل كنت ألعب معه وأتحدث، كما ألعب وأتحدث مع بقية أطفال القرية.. وقد حدث وأنا فى العاشرة من عمرى، ورزق يكبرنى بحوالى عامين.. أن التف بعض الأطفال حوله وهم يصرخون «العبيط أهو.. أهو» وبدءوا يقذفونه بالحجارة.. ثم يقتربون منه ويصفعونه على قفاه.. وهو يجرى منهم بقدمه العرجاء، وكتفه الكتعاء، ويصرخ صرخات كصرخات الأخرس، ويرفع إحدى يديه فى الهواء ليحمى رأسه من الطوب.. ويده الأخرى تحتضن الصندوق الصفيح.. وجئت أنا ساعتها بالصدفة.. فاشتبكت مع الأطفال فى معركة دفاعاً عن رزق.. ضربتهم.. ولكنهم ضربونى أيضاً.. وأسالوا الدم من وجهى.. وبعد أن انصرف المعتدون.. سرت إلى المصرف وانحنيت أغسل وجهى

من دمائي، ورزق بجانبى ينظر إلى نظرات حب. حب لم أراه فى
عينى أى صديق حتى اليوم.. وفمه مفتوح يسيل منه لعابه.. ثم
جذب العلبة الصفيح من تحت إبطه.. ومد يده بها إلى.. ولمستها
كأنى أتبرك بها..

واتسعت الابتسامة البلهاء بين شفيته.. ثم اقترب منى أكثر..
وتلفت حوله فى تردد وخوف، وعندما لم ير أحدا حولنا، فتح غطاء
العلبة أمامى.. كأنه يفتح لى حياته كلها لأشاركه فيها..

وكبرت.. وكبر رزق، وعاهته تكبر معه.. وكلما كبرت عاهته
استأنستها أكثر.. أصبحت أحس بأن رزق ليس عبيطا.. كما يقول
أهل القرية.. وليس متعابطا أيضا.. ولكن فى عبطه خيطا من النظرة
المباشرة إلى الأعماق.. وجرأة عجيبة لا تتوافر فى أحد من أهل
القرية.. جرأة تصل به إلى الصدق مباشرة دون لف أو دوران..
جرأة العبيط.. ربما لم يكن عبيطا إطلاقا ولكنه فيلسوف رفعته
فلسفته فوق مستوى البشر فبدا كالعبيط.. جريئا، أمعن فى جرأته
إلى حد أن الناس لم تعد تصدق جرأته.. لا بد أن هذه الجرأة هى
أحد مظاهر العبط.. ولا بد أنه عبيط.. وكان رزق هو الوحيد من
أهل القرية، بل من أهل المديرية الذى يستطيع أن يسب سعادة
كامل بك مرتضى، ناظر دائرة الأمير ولى الدين سامح.. ويسبه فى
وجهه.. وقد وقف أمامه مرة وهو يهم بركوب «الكرتة»، وصرخ:
- يا راجل بطل أكل العيال.. أحسن تطق تموت.. العيال لحمهم

مسموم!

ورفع شيخ الخفر كفه الغليظة وهوى بها على قفا رزق.. وكنتم
بقية الفلاحين الذين سمعوه ابتساماتهم.. وما كاد سعادة البيه
الناظر يبتعد حتى انطلقوا يضحكون على عبط رزق.. ولكنى واثق
أنهم بلا وعى منهم كانوا يحسون فى أعماق ضحكاتهم بطعم مر..
طعم الصدق الذى نطق به رزق.. فسعادة البيه كان يأكل عيالهم
فعلا.. أرزاق عيالهم.. حتى أبى.. الشيخ محمد القماش، بكل
جلاله ووقاره، كان رزق يتجرأ عليه ويصرخ فى وجهه:
- ارفع رأسك يا شيخ.. اتق الله وواعَ تسود ذقنك البيضاء.. اتق
الله.. اتق الله.. إوعى ذقنك البيضاء تسود..

ولم يكن أبى يضحك لكلمات رزق، بل كان يطأطئ رأسه كأنه
يفكر فيها.. أو كأنه يخاف أن يضع عينيه فى عيني رزق..
وكان رزق يمر برجال القرية وهم متجمعون حول المصاطب فى
المساء، فيقول محييا:

- العواف يانسوان..

وأحيانا أخرى يمر بهم فيقول:

- مساء الخير يارجاله..

ولم يكن أحد منهم يدرى متى يحييهم رزق تحية «النسوان» ولا
متى يحييهم تحية «الرجال» فهم يضحكون دائما كلما مر بهم،
وكلما قرأ عليهم التحية.. ولكنى كنت واثقا بأن كلاً منهم كان
يحس أنه تصرف فى يومه تصرف النسوان، عندما يحييه رزق

بتحية النسوان.. وتصرف تصرف الرجال عندما يحييه رزق تحية الرجال..

وكان رزق فى نظرى - برغم عبطه - هو أكثر الناس فهما لمشكلة قريتنا..

ومشكلة قريتنا كانت فى وجودها ضمن دائرة الأميرة ولى الدين سامح.. وقد كانت حدود دائرة الأمير فى الماضى ، تقف خارج حدود المركز.. ولكنها بدأت تمتد ، وتتسع.. فكان كامل بك مرتضى يشتري الأرض من أصحابها ويضمها إلى أملاك الدائرة.. حتى اشترى كل الأراضى المحيطة بقريتنا.. والناس تبيع إما عن حاجة للبيع ، أو تحت ضغط التهديد والإرهاب ومضايقات الجهات الرسمية.. ثم بدأ كامل بك مرتضى يزحف على زمام قريتنا.. وكان فيها خمس ملاك سقطوا بسرعة الواحد بعد الآخر.. ولم يبق منهم سوى أبى .. الشيخ محمد القماش.. والأربعين فدانا التى يملكها.. ووقف أبى فى عناد يرفض أن يبيع أرضه..

وفشل كامل مرتضى فى إغرائه بالمال.. لقد عرض عليه فى الفدان الواحد، ألف جنيه.. ولكن أبى ظل على عناده.. واشتعلت الحرب بينهما..

كل ما يمكن أن يفعله كامل مرتضى ، فعله.. سرق منا البهائم، وكان كل من فى القرية يعلم أن رجال الدائرة هم الذين سرقوها.. وسلط علينا بنك التسليف.. و.. وفعل الكثير.. ولكن أبى ظل

صامدا فى قسوة.. وكان يستمد قوته من أهل القرية أنفسهم.. فقد كانوا يؤمنون به .. يؤمنون به كعالم وفقهه فى الدين.. ويؤمنون به كزعيم.. ويؤمنون به كولى من أولياء الله الصالحين.. وكانوا يلجأون إليه فى أخص شئونهم.. حتى المرأة التى يمتنع زوجها عن معاشرتها كانت تلجأ إليه .. ولم يكن هذا الإيمان عن خداع، أو عن بله، فقد كان أبى يجب أهل قريته فعلا، ويتعصب لهم، وقد عاش فى القرية طوال عمره، لا يغيب عنها إلا يوما أو يومين كل عام يذهب خلالهما إلى المركز أو إلى القاهرة.. ثم يعود إلى القرية، لينحنى كل أهلها - رجالها ونساؤها وأطفالها - يقبلون يده.. وقد زادهم موقفه من ناظر الدائرة وتحديه له، إيمانا به.. وبيته مفتوح لهم جميعا.. لكل أهل القرية.. وفى كل مساء كانت توضع صوانى العشاء فى القاعة الكبيرة، ويلتف حولها كل من يريد من أهل القرية.. عشرون.. ثلاثون.. أربعون.. وقبل أن، توضع أطباق الطعام فوق الصوانى، كان أبى يدخل إلى القاعة بقامته المهيبة، وزقنه الناصع البياض، وفى يده عود صغير من الحطب ويدور بين الجالسين، ثم يلمس كتف أحدهم بعود الحطب، ويقول فى صوت وقورى هادئ:

- قوم انت روح يا أبو إسماعيل..

ويحنى أبو إسماعيل رأسه ويقوم يجرى خارج القاعة متعثرا فى جلبابه وعيناه ساقطتان بين قديمه..

ثم يلمس أبى كتفا آخر بعود الحطب :

- روح ياواد يا شحاته..

ويخرج أبى من بين الجالسين خمسة أوستة، وأحياناً لا يخرج أحداً ثم يتصدر القاعة، ويأكل مع أهله.. أهل قريته..

وكان كل من فى القرية يخشى لمسة عود الحطب الذى يحمله الشيخ محمد القماش، أكثر مما يخشى لمسة عود الحطب الذى يحمله هذه اللمسة تعنى غضب الله.. فالشيخ القماش ولى من أولياء الله، فإذا طرد أحداً من بيته، فقد طرد من بيت الله.. من جنة الله.. وحق عليه العذاب المقيم.. وكان هذا هو اعتقاد أهل القرية فعلاً.. وكانوا يجلسون حول صوانى العشاء قبل أن يدخل أبى، وهم يرتعشون، كل منهم ينتظر حكم الله ويخشى غضبه ونقمته.. ولكن الواقع ان أبى لم يكن يتصرف هذا التصرف إيماناً منه بأنه ولى من أولياء الله.. ولا افتعالاً لصورة من صور الشعوذة التى قد تجوز على عقول الفلاحين، ولكنه كان يطرد من بيته كل من يعلم أنه باع نفسه للدائرة وأصبح عميلاً لها ينقل إليها الأخبار، ويشترك فى مؤامراتها، ولم يجد عقاباً لمثل هذا الإنسان أخف من أن يحرمه من الكل على مائدته.. ولم يكن أبى يهمله أن يبيع الفلاح عمله للدائرة، فالفلاح يجب أن يعمل مهما بخرس أجره، وما دامت الدائرة هى التى تملك كل الأرض فهو مضطر أن يعمل لها.. ولكن هناك فرقا بين أن يبيع الإنسان عمله، وأن يبيع نفسه.. ولم يكن أبى يعاقب

إلا من يبيع نفسه .. وهو عقاب لم تكن قيمته الحرمان من الطعام، فالطعام الذى كنا نقدمه لم يكن دسما، ولم نكن أغنياء إلى حد أن نقدم طعاما دسما لكل هؤلاء الناس كل ليلة.. ولا كان العقاب يقصد به أبى أن ينزل غضب الله على أحد، ولكنه كان عقابا أدبيا، فكل من كان يطرد من بيت القماش، كان يزدري من أهل القرية جميعا.. وكثيرون منهم كانوا لا يطيقون هذا العقاب طويلا، فيعودون إلى بيتنا بعد أسبوع أو أسبوعين بعد أن يتطهروا ويستردوا نفوسهم.. وكان أبى يحس بمن تطهر منهم فيفسح له مكانا واسعا حول صوان العشاء.. والذين لا يتطهرون كانوا غالبا ما يرحلون من القرية إلى إحدى القرى الأخرى التى تقع فى أملاك الدائرة.. كانت هذه هى قوة أبى..

وقد حدث يوما أن أمر كامل بك مرتضى رجاله بقطع المياه عن أرضنا.. وأمر بتشغيل مكينات الري التى تملكها الدائرة ليل نهار حتى تشفط كل المياه قبل أن تصل إلينا.. وكانت هذه المياه تلقى فى أرض ليست فى حاجة إليها.. بل كانت تفسد الأرض التى تلقى فيها.. إلى هذا الحد بلغ العناد..

وفى المساء خرج رجال القرية صامتين، وكل منهم يحمل طنابورا أو جردل شادوف.. جمعوا كل طنابير، وسرقوا بعضها من مخازن الدائرة.. ثم تسلل بعضهم إلى أرض الدائرة، وغطسوا فى الترعة ونزعوا منها مواسير مكينات الري.. ثم ألقى الرجال

بالتنابير والشواديف فى مياه «الجنابية» التى تدفقت فيها المياه،
وبدءوا يعملون.. أكثر من عشرين طنهورا وعشرين شادوفا.. عملوا
طوال الليل..

وفى الصباح، كانت أرضنا كلها قد ارتوت..
وكان الرجال قد رفعوا التنابير وجرادل الشواديف، وأعادوا
مواسير المكنات إلى مكانها..

و.. وجن كامل مرتضى..

وعاد كامل مرتضى وأصدر أمرا بأن كل من يعمل من الفلاحين فى
أرض الشيخ القماش، لا يعمل فى أراضى الدائرة.. وأصبح يسلط
عليهم رجال المركز.. ولم نياس.. أصبح الرجال يعلمون فى أرضنا
بالليل.. دون أن يدرى أحد..

حوادث كثيرة..

وأخى عبد الرحمن يحمل بندقية ومعه اثنان من رجالنا،
يطوفون طوال الليل حول الأرض، وزريبة البهائم، والمخزن
ليصدوا اعتداءات رجال الدائرة..

وبرغم ذلك..

برغم كل ذلك..

لم يكن أبى ثائرا على الأمير.. الأمير ولى الدين سامح.. كان
ثائرا على كامل بك مرتضى وحده.. وكان يؤمن بأن لو انزاح كامل
بك مرتضى من منصبه، فستنصلح الأمور.. بل كان أبى يكتب كثيرا

من العرائض والاسترحامات إلى الأمير يشكو له ظلم ناظر الدائرة،
ويطالب بعزله.. بل إن أبي حاول أكثر من مرة أن يتفاوض مع كامل
بك مرتضى وذهب إليه في السراى بنفسه أكثر من مرة..
وفي آخر مرة ذهبت معه..

ذهبنا إلى سراى الأمير التى تقع فيها مكاتب الدائرة..
وجلست بحانب أبى على دكة خشبية بجوار باب مكتب كامل
بك مرتضى.. جلسنا طويلا.. من الساعة العاشرة صباحا حتى
الثانية بعد الظهر.. لم يقدم خلالها فنجان قهوة إلى أبى..
ولا اهتم به أحد..

ثم فجأة فتح باب المكتب وخرج كامل مرتضى، منفوشا سميئا،
له كرش ضخم، ووجهه لون طربوشه الطويل المعوج فوق رأسه،
ووقف أمام أبى ينظر إليه فى قرف، وقد هم أبى واقفا أمامه.. وقال
كامل مرتضى فى عجرفة تنطلق من أنفه كالصفير:

– نعم.. أفندم..

وقال أبى فى دعة:

– أنا قلت يمكن سعادتك مش عارف اللى بيحصل إيه، أصل..

وقاطعة كامل مرتضى صارخا:

– أنا عارف كل حاجة.. اسمع ياراجل يا دجال انت، إذا
مكنتش حتبطل نمردة، وتمشى زى الجزمة القديمة، أنا حوديك
فى داهية، حاحط دقنك فى الطين.. فاهم..

وارتعش أبى فى غضب، وقال فى صوت يحاول جهده ألا يكون
صراخا:

- انت ما تقدرش تعمل حاجة.. فيه اللى أكبر منك.. واللى
أكبر من اللى أكبر منك..

وصرخ كامل مرتضى:

- أنت بتترد على ياراجل يادجال..

ثم رفع كفه وهوى بها عنى صدغ أبى ..

ووجدت نفسى أهجم على كامل مرتضى أضربه بيدي فى كرشه،
وأضربه بقدمى فى ساقه ..

وكامل مرتضى يصرخ:

- امشى اطلع بره.. خدوا الراجل ده بره..

وأبى حنى رأسه صامتا..

وجذبنا رجال الدائرة إلى الخارج..

وظل أبى صامتا، وأنا صامت بجانبه أقاوم دموعى بكل
إرادتى، وما كدنا نقرب من القرية، حتى تركته، وجريت إلى
شجرة الجميز وألقيت بنفسى تحتها.. دفنت رأسى فى التراب..
وبكيت.. بكيت كثيرا..

وعندما انتهت كل دموعى، ورفعت رأسى، وجدت رزقا جالسا
بجانبي ينظر إلى بعينين حزينتين، وفمه مفتوح إلى آخره يسيل
منه لعابه.. وقلت وأنا ما زلت أنهنه بالبكاء:

- ضربوا الشيخ القماش يارزق.. الراجل ضرب ابويا.. ضربه
قدامى..

وأحسست بأسيخ حادة من الكراهية تنطلق ساعتها فى صدرى..
الكراهية والحقء.. الحقء على كامل مرتضى.. وعلى الأمير.. وعلى
الملك.. وعلى الدنيا كلها..
ورزق ينظر إلى صامتا..

ثم لمعت عيناه فجأة.. انزاحت منها النظرة الحزينة، وحلت
محلها نظرة مرحة ضاحكة.. ثم أخرج من عب جلبابه الممزق
القدر، حبة جوافة، وقال فى بلاهه:
- خد دى..

ولا أدرى لماذا نظرت إلى رزق ساعتها كأنه منقذى الوحيد..
وأخذت منه حبه الجوافة صامتا، وفى عينى تساؤل، كأنى أسأله
عن الطريق..
وبعد يومين..
يومين فقط..

استيقظت القرية كلها على لهب حريق، يشتعل هناك.. بعيدا..
فى زراعة الدائرة.. وخرج الناس كلهم إلى أطرف القرية يراقبون
ألسنة النار وهى تلتهم فى سرعة وجنون أعواد القمح الصفراء التى
كانت على وشك الحصاد.. والتفتت أبحت بين الناس عن رزق.. ولكن
رزقا لم يكن بين الناس.. ولم يهتم أحد غيرى بالبحث عنه..

واستمر الحريق يوما وليلة.. والتهم أكثر من مائة فدان قمح..
فقد كانت الأعواد جافة والرياح هائجة..

وجن كامل مرتضى..

وجن الأمير فى القاهرة..

وجنت وزارة الداخلية، والمدير، والمأمور، والضابط،

والعمدة، وشيخ الخفر..

ودار تحقيق قاسى سريع..

وكان يمكن أن يقبض على أبى.. ولكن أبى كان قد سافر منذ

يومين إلى القاهرة ليحاول أن يقابل الأمير ليشكو له كامل مرتضى،

وثبت أنه قضى هذين اليومين على باب الأمير..

لم تثبت التهمة على أحد..

حجزوا العشرات فى المركز، ولم تثبت التهمة على أحد.. ولم

يكن أحد يعلم من أشعل الحريق.. أبى كان صادقا وهو يقسم أنه

لا يعلم من الجانى.. وكل الناس لا يعلمون..

أنا وحدى الذى كنت أعلم..

إنه رزق..

وذهبت ليلة الحريق أبحث عن رزق فى كل بيت من بيوت

القرية، فلم أجده.. وذهبت إلى شجرة الجميز وانتظرتة تحتها..

انتظرتة طويلا.. وعند الفجر رأيتة قادما من بعيد يعرج على ساقه

اليمنى، ويرفع كتفه الكتعاء، وصندوقه الصفيح تحت إبطه..

وما كاد يقترب حتى لمحت عينيه متسعيتين اتساعا غريبا، تطلان
من خلال الطين الذى يكسو وجهه وتلمعان لمعه الجنون، وصرخ
بمجرد أن رآنى:

- شفت النار يامأمون.. النار.. النار.. النار أكبر من كرش كامل
مرتضى.. أكبر..

وجلس بجانبى تحت الشجرة..
وقلت له مبتسما كأنى أستدرجه:
- كنت فين يارزق؟

ونظرت إلى بعينه المجنونتين، ثم قال بصوته المحشرج الذى
يتعثر فى عاهته:

- النار يا مأمون.. النار.. النار..

ثم مدد جسده على الأرض، وألقى رأسه على ساقى، ونام..
كالطفل البرئ.. وفمه لا يزال مفتوحا ولعابه يسيل.. وعلبته
الصفيح الصدئة فى يده يضغط عليها بكل أصابعه..
وركزت عينى فوق العلبة الصفيح..
إنى أعلم ما فيها..

أنا الوحيد فى القرية كلها الذى يعلم ما فى العلبة الصفيح
الصدئة..

وقد حفظت سر رزق..

ومع الأيام حفظ التحقيق فى حادث الحريق، وأضيف إلى رصيد
كرامات أبى كرامة جديدة، فقد انتشرت بين الفلاحين قصه تقول

إن الشيخ القماش ذهب وهو فى القاهرة إلى ضريح الحسين، وأشعل
عودا من الثقاب وألقاه فى الهواء، فسقط مشتعلا فى بلدنا وأحرق
قمح الدائرة..

وزوجوا «سبيلة» وهى فى الرابعة عشرة من عمرها.. زوجها
إلى كلاف كأبيها يعمل فى زرائب الدائرة..
واستلمت لزواجها.. حاولت قدر طاقتى أن أقنع نفسى بأن الأمر
لا يهمنى .. تجمدت .. وازددت انطواء تحت الجدار الأسود العالى
الذى يفصل بينى وبينها .. وأصبحت أتعهد أن أتجنبها.. ألا ألتقى
بها .. كأنى كنت أخشى لو واجتها أن ينهار الجدار العالى ..
كأنى فى دخلية نفسى كنت حريصا على الإبقاء على هذا الجدار
العالى أكثر من حرصى على الإبقاء على حبى ..
ولكننا التقينا .. فى صباح يوم زواجها .. التقينا فى حوش
دارنا .. ووقفت أمامى صامتة، تنظر إلى بعينيها المستغيثتين ..
وكانت استغاثتهما فى هذا اليوم أكبر وأعنف .. استغاثة كالصراخ ..
ولم أستطع أن أواجه نظرتها طويلا .. ماذا أستطيع أن أفعل .. كيف
أغيتها وأغيث نفسى .. لا شىء أستطيعه .. هذه الجدر العالية
قائمة، وستظل قائمة .. إنها أقوى منى ومنها .. ومن القرية كلها
.. ومن مصر كلها .. ومن العالم أجمع ..
- حثتجوزى الليلة يابته..

وأكدت على كلمة «بت» كأنى أصلب الجدار العالى الذى يقف
بينى وبينها ..

ولم ترد على .. ظلت تنظر إلى بعينيها المستغيثتين ..
وعدت أتمتم:

– والله كبرتى واتجوزتى ياسبيلة .. مبروك ..

ولم ترد على أيضا .. وسحبت عينيها المستغيثتين وجرت من
أمامى ، قبل أن أرى دموعها ..

وأصبحت لا أطيق حياتى فى القرية ..

بدأت أشعر بطاقة ثورية هائلة تتململ فى صدرى ، وتهدر كأنها
بركان على وشك الانفجار .. لم يعد شىء يرضينى ، ولا شىء يكفينى
.. وهذا الشعب الصغير الذى يحيط به – شعب القرية – أصبح يمثل
حدودا ضيقة تلتف حولى كقضبان السجن .. وعناد أبى وصلابته
لم يعد يكفى لإقناعى .. إنى أتطلع إلى حدود أوسع .. إلى معركة
أكبر .. وفترات طويلة من الزهق ، والملل ، تنهشنى ..

إلى أن نلت الشهادة التوجيهية ، والتحققت بكلية التجارة ،
وانتقلت إلى القاهرة لأقيم فى شقة صغيرة استأجرها لى أبى فى
حى المنيرة ..

وخلال الأسابيع الأولى من إقامتى فى القاهرة التقيت بعبد الحميد
أبو الذهب .. طالب فى كلية الحقوق .. يكبرنى بثلاثة أعوام ..
من عندنا .. من الدقهلية .. وهو جاد فى مظهره .. تبرق عيناه

الضيقتان وسط وجهه الأبيض، وشفته الرفيعتان مزومتان دائما
كأنه يخفى خلفهما قنبلة، وأنفه الكبير مشفوط دائما كأنه يضيق
بالهواء الذى يتنفسه وشعرات قد سقطت عن رأسه كأنها احترقت
بنار فكره .. وبرغم مظهره الجاد فلم يكن عبد الحميد متزمتا
لا ثقيل الظل، بل كان يبدو أحيانا مرحا، وكان يشارك زملاءه
فى لهوهم وفى لعب البوكر والكونكان والكومى .. وكانت له قدرة
عجيبة على اكتساب قلوب الناس .. وهو لم يكتسب قلبى فحسب،
بل كسب اقتناعى .. وعلمنى .. علمنى الثورة .. وربما كان أول ما
تعلمته منه هو أن كل هذه المظاهر السياسية والاجتماعية التى
تحيط بى، ليست ظواهر طبيعة .. ليست حقائق علمية كدوران
الأرض، وشروق الشمس .. ولكنى الذى يصنع الحياة السياسية
والاجتماعية هو الإنسان .. وهى تتشكل حسب قيمة الإنسان فى
بلده .. حسب قدرته .. وحسب حاجته .. حسب ضعفه أو قوته ..
واقنعت .. واقنعت بأن الملك ليس جالسا على عرشه لأن الطبيعة
أرادت له أن يجلس عليه .. وهذه الأحزاب ليست كواكب نثرها الله
فى السماء .. وهذه الشخصيات الزعامية التى كانت تملؤنى رهبة
وأنا أردت اسمها فى القرية، ليست شخصيات أنبياء، ولا رسل،
ولا عابرة، إنها مجرد ناس .. وكل شىء يمكن تغييره .. أسهل
مما تغير فردة الحذاء ..

وبدأت تجتاحنى شهوة عارمة للتغيير .. تغيير كل شىء ..
حتى التقاليد الاجتماعية التى عشت حريصا طول عمري، يجب أن

تتغير.. والسخط يستبد بى .. سخط عنيف يعذبنى .. يحرقنى ..
وينطلق كألسنة النار ليحرق كل من حولى .. وكفرت بكل شىء ..
كفر فيه مقت، وفيه كراهية، وفيه ازدراء .. لم أعد أومن بشىء إلا
بمعان مجردة، ليس لها شكل، وليس لها مقر .. الحرية .. العدالة
.. الشعب .. التقدم .. و .. و .. وأسير دائما خلف عبد الحميد
.. يأخذنى معه إلى اجتماعات الثوار .. وأشتراك معه فى تدبير
المظاهرات ، وطبع المنشورات وتوزيعها، وتدبير عمليات
التخريب .. وكنت عنيفا حاداً، واكتسبت اسما كبيرا بين ثوار
الطلبة، وقبض على أكثر من مرة .. ويفرج عنى لأعود أكثر عنيفا
وحدة، ومجال ثورتى يتسع أمامى .. إنه يتسع ليشمل مصر كلها
.. ولكنى ما زلت أحس فى قرارة نفسى بأن كل هذه الثورة تنطلق
من قرىتى .. وأن أساس كل التغييرات التى أسعى إليها هو تغيير
ما يجرى فى قرىتى .. أن أعزل كامل مرتضى .. وأن أذل الأمير
ولى الدين سامح .. وأن أهدم أملاك الدائرة التى تحاول أن تمتد
لتبتلع الأربعين فدانا التى نملكها..

وجاءت أمى لتزورنى فى القاهرة تحمل أسبته الفطير المشلتت،
والزبد والقشطة، والعسل، وقفص الفراخ والبط، وتجر وراءها
سبيلة..
نعم، سبيلة ..

حبيبتي سبيلة ..

ونظرت إلى سبيلة في هلع .. كنت أعلم لماذا جاءت بها أمي إلى .. فقد جرت التقاليد في طبقتنا - طبقة أعيان الريف - عندنا ترسل أحد أولادها إلى القاهرة ليتعلم، أن ترسل معه امرأة من الفلاحات .. قد تكون مطلقة، أو قد تكون زوجة .. ولا تكون أبدا بكرا .. لتخدمه، ولتشبع شبابيه حماية له من نساء المدينة .. إنها تقاليد يقرها الآباء والأمهات ويقرها الفلاحون .. تقاليد، تقاليد حتى لو كانت في حقيقتها نوعا من الدعارة السرية ..

وحاولت أن أجادل أمي ..

- ليه يا أمه جبتي معاك سبيلة ..

ونظرت إلى أمي وقد شق وجهها الطيب ابتسامة خبيثة:

- أهي يابنسى تخدمك بدل ما تحتاج لحد من بتوع مصر .. دي

بنت زى الجن ..

قلت :

- بس دي مسئولية .. وأنا طول النهار برة البيت .. وأخاف

أسيبها لوحدها ..

وقالت أمي وذكاؤها الطيب المسكين يلمع فى عينيها،

وابتسامتها الخبيثة تتسع :

- ما تخافش .. أنا ضمناها .. يعنى مش عارف سبيله .. وعبثا

حاولت إقناعها ..

وقد عادت أمي إلى القرية بعد أيام، ورفضت بإصرار أن تأخذ

معها سبيلة .. تركتها لى ..

وقضيت الليلة الأولى أتقلب فى فراشى .. عروقى تتمزق..
ضلوعى تنطبق عى صدرى.. أكاد لا أستطيع أن ألتقط أنفاسى..
وسبيلة راقدة فى المطبخ، على البلاط .. هل يمكن أن أدعوها إلى
فراشى .. هلى يمكن أن ينقلب كل هذا الحب الذى عشت فيه عمري
كله، إلى مجرد امرأة فى الفراش ..

وقمت من فراشى وخرجت من الغرفة.. لا أدرى لماذا .. ربما
أقنعت نفسى بأنى فى حاجة إلى كوب ماء.. وما كدت أفتح غرفتى
حتى وجدت سبيلة مكومة على الأرض بجانب الباب .. ورفعت
إلى وجهها الذى يختلط فيه لون الأرض بلون المرض ، وفى عينيها
هذه النظرة المستغيثة..

إنها تعلم لماذا جاءوا بها إلى ..
إنها تعرف دورها، وقد ارتضته، كالقدر..
ووجدت نفسى أصرخ فيها وأنا أرتعش:
- قاعدة هنا ليه بابت..

وقالت وهى تهب واقفة وتقف مرتعشة كرعشتى:
- يمكن تكون عايز حاجه يا سى مأمون..
ودون أن أدري، رفعت يدى وهويت على صدغها .. ثم انهلت
عليها ضربا .. لم أكن أضربها .. كنت أضرب هذه التقاليد .. أضرب
هذا الذل .. أضرب نفسى .. وأضرب حبى .. وأنا أصرخ:
- إوعى تانى مرة تخرجى من المطبخ من غير ما قولك .. انجرى
قدامى ..

وجرت من أمامى مذعورة ..
ومضت ثلاث ليال وأنا أتعذب ..
أتعذب بثورتي ..
وأتعذب بشبابى ..
وأتعذب بحبى ..
وأتعذب بهذه التقاليد ..
ثم لم أعد أطيق .. استيقظت فى الصباح ، وصرخت فيها :
- لى هدومك يا بت ..

ثم أخذتها وهى مستسلمة ودموعها تنبثق من عينيها
المستغيثين ، وعدت بها إلى القرية .. ركبت معها القطار حتى
محطة المركز ، ثم تركتها تسير وحدها إلى الكفر وهى تتعثر
وتنتفض كالعصفور المبلل المكسور الجناح .. ولم أدخل أنا القرية
.. انتظرت فى محطة المركز حتى ركبت القطار الذى عاد إلى
القاهرة ..

ومرت سنوات ..
سنوات عنيفة .. وثورتي تزداد حدة وتهورا .. لم أعد أرى شيئا
إلا بريق الثورة .. ولم أعد أريد شيئا إلا أن تشتد عاصفة الثورة
حتى تقتلع كل الأشجار ، وكل البيوت وكل الجذور .. ودخلت
السجن مرة أخرى .. وفى هذه المرة علم أبى ، فجاء إلى القاهرة

ليتوسط حتى يفرج عنى .. يتوسط لدى من .. لدى الأمير ولى الدين
سامح .. وقد أفرج عنى فعلا ، ولا أدري هل أفرج عنى بفضل وساطة
الأمير ، أو لأن الحكومة رأت الإفراج عنى بلا وساطة .. لا أدري
.. ولكنى أحسست بدمائى كلها تنزف من أعصابى عند ما علمت أن
أبى كان يتوسط لى لدى الأمير .. إنه لا يعلم أن ثورتى ثورة على
الأمير .. إنه لا يعلم أنى سأسير إلى آخر الطريق حتى أحطم هذا
الأمير ، وكل الأمراء .. سواء سجننت أو شنقت .. ومن هذا اليوم
تعودت أن أحتفظ فى البيت بمجموعة من الخطابات كتبتها مقدا
إلى أبى ، حتى إذا سجننت مرة أخرى تولى أحد أصدقائى إرسالها
إليه الواحد بعد الآخر ، فيطمئن إلى أنى خارج السجن ..

وأذكر أيامها أن أبى سألنى بعد أن أفرج عنى ، وهو جالس فى
شقتى بالمنيرة ، ومسبحته بين يديه ، والوفار والهيبة يكسوان
وجهه ، ولحيته البيضاء تشع نورا :

– إوعى يانى تكون شيوعى ..

وسكت .. ترددت .. لم أدربماذا أجيبه .. وعاد صوت أبى الوقور

يردد :

– إوعى يابنى .. دول كفره ملحدين ..

وقلت فى اختصار وأنا أدير عينى عنه :

– لا .. مش شيوعى ..

والواقع أنى لم أكن شيوعيا .. ولم أكن أيضا شيئا آخر ..

لا شيوعى .. ولا إخوانى .. ولا وفدى .. ولا دستورى .. فقط نائر.

ثائر من أجل المعانى المجردة التى تملأ رأسى ، وقلبى ، وأعصابى
.. الحرية.. العدالة .. التقدم .. مصر ..

والثورة تستبد بى ..

إلى أن حدثت ..

تحققت ثورة ٢٣ يوليو ..

وبسرعة .. أسرع من خيالى .. سقط كل شىء كالأوراق الهشة

المحترقة .. سقط الملك .. وسقط الأمراء .. وسقطت الأحزاب ..

وسقط كامل بك مرتضى.. وسقطت دائرة الأمير.. لقد استولت الثورة

على كل الأرض، ووزعتها على الفلاحين .. صغار الفلاحين ..

وذهبت إلى قريتنا لأحضر الاحتفال بتوزيع الأرض ..

ولم يشهد أبى هذا اليوم .. لقد مات فى يوم ٢٦ يوليو .. بعد

الثورة بثلاثة أيام .. ودفنوه تحت هذه القبة الخضراء.

وفى هذا اليوم .. يوم الاحتفال بتوزيع الأرض .. اقترب منى

رزق العبيط، وفمه مفتوح ولعابه يسيل ثم نظر إلى بعينين خيل

إلى أن فيهما لمحة من الخوف، وصاح كأنه رأى فى وجهى شيئاً

أخافه:

– حاسب يا مأمون .. حاسب لتقع ..

ثم ضحك ضحكة كبيرة كريهة وانصرف عنى بسرعة كأنه

يخاف منى ..

ولم أعلق يومها أهمية، لما يقوله رزق .. إنه عبيط ..

وعدت إلى القاهرة وأنا أشعر براحة .. راحه عميقة حلوة شملت
كل كيانى .. ارتخت أعصابى .. وهدأ قلبنى .. وخدمت النار فى
رأسى .. إنى أحس أنى أديت واجبى وانتهيت .. من حقى الآن
أن أستريح ..

ونعمت بهذه الراحة ..

ولعلى نسيت قريتنا ..

تركنت لأخرى عبد الرحمن الأربعين فدانا كلها ليديرها ..

وبقيت أنا فى القاهرة ..

مستريحا ..

وسنوات الراحة تتوالى ..

وكان صديقى عبد الحميد قد عين رئيسا لمجلس إدارة شركة

المعادن، ولم يرشحه لهذا المنصب كفاءته فهو كخريج فى كلية

الحقوق ومحام سابق ، لا يفهم شيئا فى المعادن، وإن كان يدعى

الفهم .. ولكن رشحه لهذا المنصب ماضيه الثورى، وهو ماض لا

يستطيع أحد إنكاره..

وعيننى عبد الحميد، مديرا عاما للشركة .. فى الواقع أنه عين

فى الشركة كل أفراد شلتنا القديمة .. إن العمل يتطلب تفاهما

وتجانسا بين القائمين به خصوصا فى هذه المرحلة التى نجتازها،

ولا يمكن أن يتحقق التفاهم والتجانس أكثر مما يتحقق بين أفراد

الشلة الواحدة التى تزاملت منذ أيام الدارسة..

وانتقلت من شقتى فى المنيرة .. إلى شقة كبيرة أنيقة فى
الزمالك تطل على نادى الجزيرة .. شقة من شقق الحراسة دلتى
عليها صديقى عبد العزيز رفعت عضو مجلس إدارة شركة الحياة
للتأمين، وهو من الثوار القدماء أيضا .. إنها شقة لقطعة .. خمس
غرف، والإيجار اثنا عشر جنيها فى الشهر .. ولم أَدفع خلو
رجل .. ولكنى كنت محتاجا لحوالى ألفى جنيه لأشتري أثاثا
يليق «بالديكور» الذى تركه فيها صاحبها السابق الخواجة الذى
هاجر من مصر .. وكان هذا سهلا أيضا فقد اقترضت المبلغ من
بنك النهضة، بضمان صديقى على المرجوشى، عضو مجلس إدارة
البنك، وهو أيضا صديق قديم من الثوار ..

إن تأثيت شقة ليس أمرا هينا كما كنت أعتقد .. لقد قضيت ستة
أشهر مشغولا بتأثيتها قبل أن أستطيع الانتقال إليها، والإقامة فيها..
وأخذنى صديقى عبد الحميد إلى النادى يوما .. نادى الجزيرة..
ليعرفنى بخطيبته الأنسة نيفين .. إنها ابنة فؤاد باشا خليل ..
باشا سابقا طبعاً .. وكل شىء فيه سابق .. إنه وزير سابق من وزراء
ما قبل الثورة .. وصاحب ألف فدان، سابقا.. وصاحب نفوذ، سابقا..
وعندما قدمنى عبد الحميد إلى نيفين، قدمنى أيضا إلى شقيقتها
مرفت .. وبسرعة أحسست كأنى واحد من العائلة .. عائلة مرفت
.. أحسست بنفسى كأنى كنت أعرفها دائما .. كأنى كنت أبحث
عنها دائما .. أتطلع إليها .. أتمناها .. إننا نتحدث حديثا واحدا..

ونبدو كأنى أنا وهى تربينا فى بيت واحد .. ومرت بخاطرى صورة
السنين الماضية عندما كان يقف بينى وبين مرفت جدار أسود عال
.. جدار يفصل بين شاب يمتلك أبوه أربعين فدانا، وفتاة يمتلك
أبوها ألف فدان .. ووزير .. ولكن الثورة حطمت هذا الجدار .
حطمت الجدار الذى يفصل بينى وبين مرفت .. ولكن .. الثورة لم
تحطم الجدار الأسود الذى يفصل بينى وبين سبيلة .. لم تحطم
الجدار الذى يفصل بين «سى» و «اللاسى» ..و..

وطردت كل هذه الخواطر من رأسى بسرعة .. مالى ومال سبيلة
الآن .. مالى ومال القرية .. إن عملى ومسئوليتى هنا فى القاهرة ..
ولم أكن أذهب إلى القرية خلال هذه السنوات إلا مرة أو مرتين
فى العام .. لأقضى فى كل مرة، يوماً أو يومين .. وكان رزق العبيط
كلما ذهبت يجرى إلى وهو يعرج بقدمه اليمنى، ويرفع كتفه
الكتعاء، العلبة الصفيح الصدئة تحت إبطه ثم يبخلق فى وجهى،
ويصرخ بصوته المشلول:

– والله وقعت يامأمون..

ثم يعود ويجرى من أمامى كأنه يهرب منى، وضحكته المجنونة
تمزق أذنى ..

أف .. لقد بدأت أزهد من رزق .. لما يتركون هذا العبيط مطلق
السراح هكذا فى أزقة القرية .. إنه إنسان خطر ..

وكنت أقضى اليوم أو اليومين فى القرية، وأنا أرقب أخى ساخرا
وهو يحاول أن يقلد أبى .. يجلس جلسته .. ويلبس عمامته ..

ويمسك مسبحته .. ويتحدث بصوته العميق المتزن .. ويمد في كل ليلة صوانى العشاء. ولكن الملتفين حول الصوانى، تغيرت وجوههم .. إنهم ليسوا من أهل القرية وفلاحيتها .. إنهم ضابط المركز، والعمدة، وموظفو الجمعية التعاونية، وأعضاء الاتحاد الاشتراكية، وموظفو الوحدة الاجتماعية .. و ..

والفلاحون تمد لهم صوان أخرى فى حوش الدار ..

إلى أن كانت هذه المرة الأخيرة التى زرت فيها القرية..

ولا أدرى كيف حدث ليلتها كل هذا .. لا أدرى ماذا حدث لى ، ولا أى شيطان ركبنى .. فقد ذهبت إلى غرفتى فى الدار، بعد أن جلست مع أمى ، وحضرت مجلس أختى .. وقبل أن أخلع ثيابى ، رأيت سبيلة تمر فى القاعة الخارجية، فناديتها .. واقتربت فى خطوات مترددة ووقفت عند الباب، وهى تنظر إلى بهاتين العينين المستغيثتين ..

وقلت لها بلهجة أمرة .. لهجة السيد .. إنى سيدها فعلا :

- خشى يابت ..

ووقفت جامدة عند الباب ..

فتقدمت منها وجذبتها من يدها فى عنف، وأنا أصرخ :

- بقولك خشى ..

وأدخلتها غرفتى ..

وأغلقت وراءها الباب ..

وألقيتها على فراشى ..

وشهوة قاسية ، عريضة ، مجنونة ، تستبد بي ..

لم أكن أشعر بجسد سبيلة ..

ولكنى كنت أشعر بلذة قسوتى عليها ..

ثم ..

عندما أطلقتها .. وخرجت من غرفتى تترنح كالفرخة المذبوحة

.. أحسست بنفسى أتضائل .. وأتضائل .. إنى صغير .. إنى حقير

.. وألم كوخز الإبر ينطلق فى صدرى .. ألم فظيع .. وانكفأت على

وجهى أبكى .. الرجل يبكى .. الثائر يبكى .. المدير العام يبكى ..

وخرجت فى الصباح أطوف بالدار ، منكس الرأس .. جلست مع

أمى وأنا لا أستطيع أن أرفع عينى إليها .. وجلست مع أخى وأنا

أنظر بين قدمى .. وقابلت الناس وجلست وجفونى مسدلة .. كأنى

كنت أخشى أن يكتشف أحد انى أنتهكت عرضا .. عرض القرية

كلها .. وجاء رزق العبيط إلى البيت ، ونظر فى وجهى ثم صرخ :

- كده يامامون .. كده تقع يا مامون ..

وهربت منه ..

إنى أخافه ..

وسألنى أخى فى المساء قبل أن يتجه إلى القاعة حيث مدت

صوانى العشاء :

- صحيح الكلام اللى بيقولوه ده ..

قلت وأنا ما زلت منكس الرأس :

- بيقولوا إيه ..

وقال أخى فى حدة :

- بيقولوا إنهم حا يحددوا الملكية بعشرين فداناً ..

ولم يكن سؤاله مجرد سؤال، كان فيه تمرد، وسخط، وتربص .. ورفعت رأسى فى وجهه وفتحت عينى كأنى رأيت الطريق الذى يقودنى إلى أن أرد للقرية عرضها الذى سلبته :

- ياريت يا شيخ ..

وأشاح أخى بذراعه فى وجهى وهو يقول :

- والله انتم حاتودوا البلد فى داهية ..

ثم قام إلى القاعة وأنا أسير خلفه، وأنظر إلى قفاه فى شماتة .. شماتنى فيه يوم تحدد الملكية بعشرين فداناً .. وانتهى العشاء ..

وانفض مجلس أخى ..

وما كدنا ننصرف إلى النوم .. حتى علا صراخ عنيف فى القرية، فنزعنا جميعاً من أسرّتنا .. وجرينا إلى الخارج .. ورأينا الناس متجمعين عند حافة القرية ينظرون إلى حريق بعيد ..

إن الحريق فى أرضنا ..

أرض أخى ..

وهرع أخى إلى أرضه وخلفه خمسة من رجاله المدججين بالسلاح .. وبقيت أنا فى مكانى، وعلى شفتى ابتسامة مسكينة ..

إنه نفس الحريق الذى شب منذ عشر سنوات.. ولكنه شب هذه المرة فى أرضنا.. وأنا أعلم من الجانى.

إنه رزق..

رزق العبيط..

ولن أدل أحدا عليه..

ولكن..

لماذا أحرق رزق أرضنا؟

وبقيت فى القرية لأكتشف ما جناه أخى عليها.

لقد استطاع أخى أن يضع جميع أفراد عائلتنا فى قائمة المعدمين الذين وزعت عليهم الأرض، وأضاف إليهم أسماء جميع من ظن أنهم يدينون له بالولاء.. وبعد أن تسلموا الأرض استولى عليها لنفسه، أصبح هو الذى يزرعها.. هو الذى يعطى الحب، والمياه، والكيماوى.. و.. و.. وفى آخر العام يختص نفسه بمعظم الدخل، ويترك الفلاح بلا شىء.. وكان يؤجر أرضه للفلاحين بعقود سرية، ويطالب بالإيجار مقدما.. و.. و..

وضح أهل البلدة من جشع أخى.. وبدعوا يلتفون حول عوض إسماعيل.. إن عوض إسماعيل كان طفلا لا يتجاوز الثانية عشرة عندما تركت القرية منذ أكثر من عشر سنوات وهو يملك فى زمام القرية عشرة أفدنة، هو وإخوته.. وقد رفض أن يخضع لزعامة أخى وجشعه.. إنه يتحداه فى إصرار وعناد. كما كان أبى يتحدى كامل بك مرتضى..

وقبل أسبوع ذهب عوض إسماعيل إلى أخى، ليحاول إقناعه
بعدالة مطالب أهل البلد، فاحتد عليه أخى، وصفعه..
كما صفع كامل مرتضى أبى..

وحرق رزق أرض أخى كما سبق أن حرق أرض الأمير..
وقررت أن أعمل.. أن أتحرك.. أن أحاول استرداد صداقة
الفلاحين وثقتهم بنا.. ولكن عبثاً.. إنهم يستقبلوننى كما كانوا
يستقبلون كامل مرتضى.. وينافقوننى.. ويكذبون على، كأنى عدو
لهم لا يملكون إلا سلاح الكذب ليصدوا اعتداءه..
بقيت شهراً فى القرية..

ولا أمل..

ورزق ينظر فى وجهى ويصرخ:

– والله وقعت يا مأمون..

ثم يهرب منى..

وفى هذه الأثناء وقعت حادثة رزق..

لقد أراد بعض شباب القرية أن يداعبوه، فتركوه نائماً تحت
شجرة الجميز، وسرقوا علبته الصفيح من تحت ذراعه..
واستيقظ رزق.. وعندما لم يجد علبته، جن.. وجرى وراء
الشبان، ولحق بواحد منهم، فأطبق على عنقه، وألقاه على الأرض،

وظل يضغط على عنقه وهو يصيح «العلبة.. العلبة» إلى أن اختنق الشاب بين يديه ومات..

وقبضوا على رزق وهو لا يزال يصرخ بصوته المشلول:
– العلبة.. العلبة..

وهم يضربونه على قفاه..

وسجنوه فى سجن المركز..

وقد درت أياما أبحث عن علبة رزق.. العلبة الصفيح الصدئة.. إلى أن وجدت ملقاة فوق أكوام السباح.. فحملتها وذهبت إلى المركز، وطلبت مقابلة رزق.. ومددت له يدي بها.. وما كاد يلمح علبته حتى انطلقت الفرحة فى عينيه.. والتقطها منى فى لهفة، وأخذ يمسح عليها بيده، ثم فتحها، وبعد أن اطمأن إلى ما فيها، أعاد إغلاقها.. ثم تردد قليلا ورفع إلى عينيه.. ورأيت فى عينيه هذا الحب الذى لم أراه فى عيني صديق آخر.. ورأيت فى عينيه شيئا آخر.. رأيت فيهما هذه النظرة التى كان أبى يستقبل بها الفلاحين الذين يطردهم من بيته عندما يعودون إليه بعد أن يطهروا نفوسهم.. وأحسست كأن هذه النظرة.. تغسلنى.. تغسل قلبى.. تغسل عقلى.. تطهرنى.

ومد رزق إلى يده بالعلبة، وقال بصوته المحشرج الذى تمزقه عاهته:

– خليها معاك.. أمانة..

قلت :

– دى علبتك يا رزق..

قال وهو بيتسم ابتسامته البلهاء :

– علبتنا احنا الاثنين..

ثم أدار لى ظهره، وتركنى، وسار بقدمه العرجاء، وكتفه
الكتعاء، عائدا إلى سجن المركز..

والقطار يعود بى إلى القاهرة..

– العلبة الصفيح الصدئة فى جيبى..

لا أعلم إلى متى أستطيع أن أحتفظ بها، وهل لى من القوة ما
يعيننى على الاحتفاظ بها..

لا أدرى..

كل ما أدريه أنى لن أتزوج مرفت..

كل هذا الحب

متى رأيتها لأول مرة؟..

لا أدري..

ولا أدري متى اكتشفت أن ما بيني وبينها هو الحب..

لقد فتحت عيني على الحياة وهي فيها.. تسكن في حيننا.. حتى

حدائق القبة.. في نفس الشارع.. في البيت المجاور.. والعائلتان

تتزاوران.. وهي صديقة لأختي..

وكنت أكبرها بعامين..

ووجدت نفسي دائما معها.. منذ كنت تلميذا في روضة الأطفال،

وأنا أعود من المدرسة لأجدها في بيتنا تلعب مع أختي.. وكننت

ألعب معهما.. لا.. لم تكن تلعب.. كانت أختي عادة تنصرف إلى

اللعب، وأجلس أنا وطفلة نتحدث.. ربما كنا نحكي حكايات

الأطفال.. ولكنه كان دائما حديثا هادئا ناعما.. ليس فيه صراخ

الأطفال ولا مشاداتهم.. وكانت طفلة، ونحن مازلنا في ذلك

العمر، تشعرتني دائما بأني أكبر منها.. وأني أفهم كل شيء لا

تفهمه.. وكانت تستمع إلى كل ما أقوله وهي مبهورة مستسلمة،

كأنني أفتح لها أبواب دنيا عجيبة.. وكننت أنا أحس - منذ ذلك

العمر - بإحساس غامض بمسئوليتي عن طفلة.. كننت أذكر نصيبي

من مكسرات رمضان، ومن كعك العيد ومن قطع الشيكولاتة التي توزعها علينا أمى فى المناسبات، لأعطيه لصفية.. وكنا عندما ننزل إلى الشارع.. لألعب أنا الكرة مع الأولاد، وتلعب هى الحجلة، أو «نط الحبل» مع البنات، أجد نفسى لتفت بين الحين والحين باحثا عنها.. عن صفية.. كأنى أطمئن عليها.. فإذا حدث لها شىء.. أى شىء.. كأن وقعت وانجرحت ركبته، أو عاكسها أحد الأولاد، جرت إلى باكية، وهى تصرخ:

- محمد.. محمد..

ثم تشكو إلى..

وكنت دائما قادرا على أن أجفف دموعها، وأرضيها، وأحميها.. وكانت العائلتان معترفتين بهذه الصداقة، أو هذا الحب، أو هذا الأندماج.. لا أدرى ماذا أسميه.. ماذا أسمى ما كان بينى وبين صفية ونحن ما زلنا طفلين.. لا أدرى.. فكانت أمى لا تسأل عنى إلا ويشمل سؤالها صفية:

- محمد وصفية راحوا فين؟..

وكانت أم صفية ترسل وراءنا الخادمة..

- روى شوفى محمد وصفية فين؟

دائما، محمد وصفية..

وربما كانت هذه العاطفة الحلوة المبكرة هى التى جعلت منى هذا الطفل الهادئ، العاقل الذى تفتخر به أمى.. لقد كنت طفلا أكبر

من عمرى.. لم أكن متعاليا على أصحابى الذين فى مثل عمرى.. ولا جافا.. لا.. كنت أعب مع الأطفال، وأتحدث حديثهم، ولكنى كنت أكثر منهم جدية.. أو على الأصح كنت أكثر منهم اكتفاء وشبعا عاطفياً.. لم أكن أرتكب حماقات الأطفال.. لم أفكر يوماً فى أن أعاكس المدرس.. أو أسرق شيئاً من وراء ظهر أمى.. فكنت رجلاً فى عمر الأطفال..

ثم لا أدري متى بدأ يتطور حبى لصفية.. ربما عندما بلغت الثانية عشرة أو الثالثة عشرة.. فقد بدأت أكتشف لون عينيها، وأنفها الصغير.. وشففتيها.. وتسريحة شعرها.. وبدأت أكتشف الثوب الذى ترتديه، والطريقة التى تنقل بها خطواتها فى مشيتها. وبدأ هذا الإحساس الجديد يقلقنى.. يحيرنى.. لم تعد صفية مجرد حقيقة بديهية فى حياتى، بل أصبحت موضوعاً يأخذ تفكيرى.. وبدأت أعانى من اللهفة عليها..

لم أعد أعود إلى البيت وأنا واثق من أنى سأجد فيه صفية.. أصبحت أتساءل هل سأجدها فى البيت.. ويغوص قلبى عندما يداهمنى الاحتمال بأنى قد لا أجدها.. وعندما كنت طفلاً لم أكن واثقاً ولا حائراً.. ولم أكن أعود إلى البيت لا ملهوفاً، ولا غير ملهوف.. إن كل هذه العواطف والانفعالات.. الثقة والشك.. والتأكد والحيرة.. و.. و.. كل ذلك لا يخطر فى حياة الإنسان إلا عندما يبدأ الإنسان فى صنع حياته بنفسه.. والأطفال لا يصنعون الحياة، ولكن تصنع لهم الحياة..

وكننت دائماً - إلا نادراً - أجدّها في البيت..

وكننت ألمح في عينيها نفس الحيرة التي أعانيها.. الحيرة في عواطف وأحاسيس بدأت تملأ صدرها كالبخار، دون أن تفهمها أو تعرف من أين انطلقت ولا إلى أين تستقر.. وكان يبدو أنها لم تعد تأتي إلى بيتنا تلقائياً، ولكنها كانت تأتي عن عمد، وقد بدأت تعرف أنها تأتي لتراني، لا لتزور أختي.

وتطور حديثنا.. كبر.. لم يعد حديث أطفال.. ولا حديث ناضجين.. ولكنه حديث هذا العمر الحلو الذي يختلط فيه الخيال بالواقع، وتبدو فيه البدهيات كأنها اكتشافات، ويبدو فيه كل شيء كأنه شيء جديد يثير الدهشة.. ولكن صفة خلال أحاديثنا لم تتغير، إنها لا تزال دائماً تشعرني بأني الأكبر منها.. وأني أفهم كل شيء لا تفهمه.. وأني المسئول عنها.. تكاد تشعرني بأني رجلها.
وأنا أكبر..

وكلما كبرت عذبنى شيء غامض لم أكن أدري سره.. ولكنني أشعر به كلما استوعبت عيناي تفاصيل أكثر من الخطوط التي ترسم صفة.. خطوط وجهها.. وخطوط قوامها.. وهذه الخصلة من شعرها الناعم التي تقع أحياناً فوق جبينها، فتزيحها بيدها كأنها تنهرها.. وهذه النظرة المتسائلة المترقبة التي تطل من عينيها كأنها تبحث عن شيء جديد.. وهذه الابتسامة الهادئة الناعسة التي ترقد في استسلام بين شفتيها، كأنها مستسلمة لي..

وقد عرفت الآن أنى أحب صفية.

ولكنه ليس الحب الذى يعذبنى.. إنه شىء آخر.

شىء ربما كان داخل الحب، وربما كان خارجه..

وكان هذا الشىء يتطلب كل إرادتى.. إرادتى الفجة الصغيرة،

لأقاومه.. وكلما شعرت بحاجتى لبذل مجهود أكبر فى المقاومة،

انتابنى شعور غريب بالخوف.. نعم، الخوف.. لا أدرى من ماذا..

ولكن بدأت تمر على فترات كثيرة أشعر فيها بهذا الخوف..

الخوف على حبنى..

وفى هذه السن.. وكنت فى الخامسة عشرة، وصفية فى الثالثة

عشرة.. لاحظت لأول مرة أنها قد بدأت تسوّى حاجبيها بالملقاط

وثررت على غير عادتى، وصرخت فيها:

- إيه اللى عاملاه فى حواجبك ده؟

ونظرت إلى بعينين مرتعشتين وقالت فى ذهول:

- مش عاجبينك؟

قلت وأنا مازالت أصرخ:

- لأ.. مش عاجبنى..

ونظرت إلى صفية برهة ثم انبثقت الدموع من عينيها، وجرت

من أمامى وهى تبكى..

ولم أشعر يومها بدموع صفية، ولا جريت وراءها لأصالحها،

فقد وقعت ساعتها فى نوبة عارمة من هذا الخوف.. الخوف الذى

بدأ ينتابني منذ شهور.. ولكنه فى هذا اليوم كان خوفاً أكبر..
أحسست أنى بدأت أكتشف سر هذا الخوف.. إن صفة تكبر أسرع
مما أكبر.. إنها ليست أصغر منى.. إنها أكبر.. وستكبر أكثر..
وأكثر ولن أستطيع أن ألحق بها أبداً.. ستضيع منى..

ولم تعد صفة إلى تسوية حاجبيها بالملقاط..

وكنت ألحظ الشعيرات الخضراء تنبت حول حاجبيها دون أن
تنزعها، فلا أبتسم لها، ولا أعلق بشيء.. ولا حتى أشعر بالامتنان
لها لأنها أطاعت كلامى.. فقد كنت أشعر بالغيظ.. الغيظ منها لأنها
تكبر فى عمرها أسرع مما أكبر فى عمرى.. وامتناعها عن تسوية
حاجبيها لن يوقف سرعة عمرها.. لن يعيدها إلى عمرى..

وجاءت يوماً.. ودخلت هى وأختى إلى حجرتى.. وكنت جالساً
إلى كتفى أستذكر دروسى.. والتفت إليهما وبدأنا نتحدث.. وقد
كنت ألحظ فى نفسى أنى بدأت أتحدث كلما كانت صفة معى
بلهجة فيها كثير من التعالى والغرور، كأنى أحاول دائماً أن أفنعها
بأنى أكبر منها، وما زلت أفهم ما لا تفهمه.. مازلت رجلها..

وتركتنا أختى وخرجت من الحجرة لبعض شأنها، كما تعودت
أن تفعل فى كثير من الأحيان.. لا تعمدنا منها، ولكن لأن صفة لم
تكن أبداً ضيفة فى بيتنا.. إنها واحدة منا..

وانحنى صفة على مكتبى تقلب فى الكتاب الذى أقرأ فيه..
كما تعودت أن تفعل منذ كانت طفلة.. ووجدت نفسى فجأة أعانى

هذا العذاب الذى عانيت منه طويلا.. أعانيه وصفية قريبة جداً
منى.. كتفها تلامس كتفى.. وعطر أنفاسها يملأ أنفى.. وشعرها
الناعم المسترسل يهف على وجهى.. وهى تتكلم.. ولكنى لا
أسمعها.. إن كل حواسى مركزة فى استجماع إرادتى لأقاوم بها هذا
العذاب الذى يمزق عروقى.. وبدأ كلام صفية يتقطع.. ثم صمتت..
وأنا صامت.. ومضت برهة طويلة.. طويلة.. ونحن صامتان.. ثم
رفعت إلى عينيها.. والتقت نظراتنا لقاء طويلا.. صامتا.. وأنفاسنا
مبهورة.. وشيء كصهد النار يلف وجهينا.. ثم اقتربنا، وجهى من
وجهها.. ثم استقر خدها على خدى.. برهة.. لحظة.. ثم رفعت
وجهها فى انتفاضة كأنها خافت أن تحرقها النار، وجرت متعثرة
خارج الغرفة.. خارج البيت..

وكانت هذه قبلتنا الأولى..

أول قبلة فى حياتها..

وأول قبلة فى حياتى..

ولم تكن قبلة..

كانت مجرد لمسة..

وانحنيت فوق مكتبى أرتعش..

ولم أستطع النوم ليلتها..

إنى ما زلت أرتعش.. وفى طيات رعشتى أشياء كثيرة.. فيها

عذاب، وفيها خوف، وفيها فرحة.. فرحة كبيرة..

وفى اليوم التالى جاءت خادمة صفية الصغيرة إلى بيتنا تبحث عنى.. وأعطتني كتابا قالت إن صفية ترسله لى كما وعدتني.. كتاب من كتب المدرسة لا قيمة له.. وقبل أن أتعجب اكتشفت أن بين صفحات الكتاب خطابا كتبه لى صفية..

أول خطاب تكتبه لى..

وبدأنا عصر الخطابات..

والعجيب أن هذه الخطابات أبعدت بيننا أكثر مما قربتنا.. فلم تعد صفية تأتي إلى بيتنا كل يوم كما تعودت.. ربما لأن حبنا منذ أن تلامسنا بدأ يرتبط بالواقع الإنسانى.. وهو واقع نخافه نحن الاثنين منذ أن اكتشفناه.. نخافه ونتعذب به..

وعندما جاءت صفية بعد أربعة أو خمسة أيام، تبادلنا خلالها فى كل يوم خطابا.. جاءت - لا كواحدة منا - ولكنها جاءت كأنها ضيفة.. اختارت ثوبا أنيقا لا تلبسه إلا وهى ضيفة.. وصفت شعرها بعناية كأنها ناهبة إلى حفلة.. وعندما نظرت إلى حاجبيها لا حظت أنها عادت وسوتهما من أجلى.. حتى عندما شعرت أنها تجملت بحيث تبدو كبيرة.. لم أغضب، فقد شعرت أيضا أنها كبرت من أجلى..

ولم نستطع يومها ولا بعدها، أن نتبادل النظرات بنفس البساطة التى كنا نتبادلها بها.. ولم يستطع حديثنا أن يتصل بيننا بنفس السهولة التى كان يجرى بها.. كان كل منا يعلم أنه أصبح فى حاجة إلى أكثر من النظرات وأكثر من الأحاديث.. وكل منها

يتربقب اللحظة التي ستركنا فيها أختي وحدنا.. وربما خيل إلينا يومها أن أختي تتباطأ في الخروج عن عمد.. لتغيظنا..
وبرغم ذلك فعندما خرجت أختي تسمرنا في مكاننا.. احترنا ماذا نضع.. كيف أقوم من مكاني إليها، وكيف تقوم من مكانها إلى.. بل ربما احترنا فيما نريد.. ماذا يريد أحدنا من الآخر.. ولفتنا عاصفة عصبية من الارتباك، والخفر، واللهفة.. ولم أعد أستطيع أن أنظر في عينيها.. ولم تعد تستطيع أن تنظر في عيني.. ثم فجأة.. وكأننا خفنا أن يسرقنا الزمن ونشيخ ونحن متباعدان.. اندفعنا أحدنا إلى الآخر.. ورقد خدها على خدي.. وقلبي يخفق بخفقات قلبها.. ثم طافت شفقتي تمسحان على خدها.. من الذي علمنا أن الشفاه تحمل كل هذه الحساسية.. كل هذه المعاني.. كل هذه الدنيا.. لست أدري.. ورثتاي تتنفسان من أنفاسها.. وأعصابي تنبض بنبضات أعصابها.. ثم فجأة أيضا ابتعدنا أحدنا عن الآخر.. كيف تنتهي القبله.. ولماذا تنتهي.. بل لماذا تتوقف، لست أدري.. وهى تنظر إلى بعينين مبهورتين، ما لبثتا أن ارتختا ونامتا تحت جفنيها كأنهما طفلتان شبعتا.. وخرجت أنا من الحجرة فى خطوات بطيئة كانى أسير على قطع من السحاب.. وذهبت إلى حجرتي.. ورقدت فى فراشى.. مستسلما فى هدوء إلى رعشتى.. رعشة قلبى..

وكان هذا هو كل ما بيننا..
هذه القبلات..
وهذه الخطابات..

وكننت فى الثامنة عشرة، وصفية فى السادسة عشرة، عندما
خطبت. خطبت صفية إلى رجل يكبرنى باثنى عشر عاماً، ويكبرها
بأربعة عشر عاماً..

وتلقيت الخبر فى استسلام عجيب كأنه حدث كنت أنتظره منذ
زمن طويل.. ربما منذ ولدت.. كان إحساسى بانتظاره مختبئاً فى
منطقة اللاشعور.. أشياء كثيرة ننتظرها دون أن نحس بانتظارها..
الموت.. إننا ننتظر الموت دون أن نتعمد انتظاره.. ومهما بكينا
وصرخنا فإننا لا نستطيع أن نصد الموت.. ولا نحاول أن نعيد
الحياة. إننا فى قرارة أنفسنا مستسلمون له، وكنا دائماً فى انتظاره..
وكذلك.. زواج صفية من رجل آخر.. وكانت التقاليد الاجتماعية
ممكنة منها ومنى إلى حد الإيمان.. كالإيمان بالموت.. فلم نحاول
أن نثور، كما لا يثور الناس على الموت.. ولم نحاول أن نهرب،
كما لا يهرب الناس من الموت..

وحدد يوم الزفاف على عجل.. بعد أسبوعين.. فالرجل مسافر
فى بعثة إلى إنجلترا وسيصحب صفية معه..

ولم أر صفة خلال هذين الأسبوعين.. وكنت خلالهما أعيش صامتا واجما كالمصعوق، وأتحرك في خطوات بطيئة متثددة كأنى أحكم الحكماء، أو كأن فى صدرى قنبلة أخشى أن تنفجر لأقل حركة..

وفى صباح يوم زفافها جاءت..
جاءت إلى بيتنا..

شعرها مهوش فوق رأسها.. ووجهها ممتقع.. وبصمات الأرق تحت عينيها.. وشفاتها ترتعشان وقد بهت لونهما..
واتجهت إلى غرفتي مباشرة، كأن ليس فى البيت أحد غيرى..
وألقت نفسها بين ذراعى.. ورأسها على كتفى.. ثم أجهشت بالبكاء.. وهى تتمتم:
- محمد.. محمد..

ثم أخذت وجهى بين كفيها.. وأصابعها ترتعش.. وألقت بشفتيها بين شفتى.. قبلة كبيرة عصبية عنيفة.. ليس لها طعم، عنفها يغلب طعمها.. كأنها كانت تحاول أن تأخذ منى فى قبلة واحدة ما يكفيها عمرها كله بعيدا عنى.
وأختى كانت واقفة على الباب، تنظر إلينا، وتبكى..
إن أختى خطبت فى نفس العام.. قبل صفة.. ومن يدري ربما كان لها هى الأخرى حب ودعته..

وأنا جامد.. لا يستطيع إحساسى أن يلتقط شيئا.. ولا حتى قبلة صفة.. لم أبك معها.. ولا لفتتها بذراعى.. ولا بادلتها قبلتها..

ولا كلمة.. إني جامد.. كل شىء فىّ قد توقف.. وكل ما حولى
توقف.. إني ميت..

وجرت صفة خارجة من البيت تتعثر فى دموعها.
وأنا جامد..

ميت..
وفى المساء كان مفروضا أن أذهب إلى حفل الزفاف.. وأمى
تتعجلنى.

– يا لى يا محمد.. ميصحش نروح متأخرين.. ده احنا أهل.
وخرجت وراء أبى وأمى وأختى.. وأنا ما زلت جامدا.. تائها..
أسير فى خطوات ساهمة وثيدة، وفى صدرى هذه القنبلة التى أخشى
فى كل خطوة أن تنفجر.. وما كدت أقرب من بيت صفة حتى
دهمتنى أضواء الزينة.. حرقت عيني.. وأصابتنى برعشة كرعشة
الحمى.. وخفت.. هلعت.. أحسست بالمصاييح الملونة كأنها عيون
شياطين تنطلق فى وجهى.. كأنها فوهات مدافع تطلق على النار.
وتراجعت فى خوف..

تركت أبى وأمى وأختى يدخلون.. واستدرت أنا وجريت..
جريت بكل قواى.. جريت إلى أن اجتزت حى حدائق القبة.. ثم
هدأت خطاى وأنا أتجه إلى حى العباسية.. وسرت.. سرت طويلا..
وأسيخ من الألم تشق كل قطعة منى.. سرت إلى أن وصلت إلى
صحراء العباسية.. وأقدامى قد ثقلت وهى تتعثر فوق الرمال..
والليل يتكاثف حولى حتى لم أعد أرى شيئا.. والألم.. ألم قاس..

ثم شعرت بشيء يسقط على الرمال.. إنه أنا.. وإذا بى أبكى..
أبكى فى عنف.. كل قطعة منى ترتعش وتبكى معى..
وكانت المرة الأولى التى أبكى فيها كل هذا البكاء..
والمرة الأخيرة..

ورطب البكاء أعصابى.. هدأت.. وسكت عنى الألم.. ورفعت
رأسى الذى وقع منى فوق الرمال، وإذا بى ألمح نورا.. نورا ينطلق
من داخلى.. من صدرى.. إنه نور الحب.. إن الحب لا يزال معى..
لم يأخذ أحد الحب منى، الحب لم يتزوج رجلا آخر..
والحب هو صفية..

وشعرت بابتسامة تمسح الأسى من شفتى.. ورموشى تهتز
وتنفض عنها الدموع، كما تهتز أجنحة العصفير لتنفض عنها
الغدى..

وعدت..

هادئا.. مستقرا.. تملأ السكينة نفسى.. ووقدت فى فراشى لأقرأ
كتابا.. والحب يحملنى فى حنان ودعة إلى النوم..

كم مضى؟

عشر سنوات..

وقد حدثت أثناء هذه السنوات أشياء كثيرة.. نلت بكالوريوس
الهندسة.. واشتغلت مهندسا فى إحدى الشركات.. وتزوجت

أختى وأصبح لها بيت وأولاد.. وأحيل أبى إلى المعاش، وفضل أن يأخذ أُمى ويقيما فى بلدتنا.. واستأجرت أنا شقة صغيرة فى شارع القصر العينى، جمعت فيها كل حياتى.. كتبى.. واسطواناتى.. ومائدة الرسم.. وهذه الأشياء الصغيرة الكثيرة التى تخلق من كل فرد شخصية متميزة مستقلة بذاتها..

شئ واحد لم يتغير خلال هذه السنوات..

حبى..

صفية..

إنى أعيش فى انتظارها كل يوم.. ليس انتظارا قلقا.. ولكنه انتظار يسرى فى هدوء خلال أعصابى، كما تتردد أنفاسى.. انتظار كانتظار المتصوف للقاء ربه.. انتظار حلو هادئ، مستسلم.. وكلما دق جرس الباب مر بى خاطر سريع.. إنها قد تكون صفية.. وكلما ذهبت إلى زيارة أختى خيل إلى أنى سأجد صفية معها.. وكلما ذهبت إلى حدائق القبة ومررت ببيتنا القديم خيل إلى أن سأجد صفية تطل على من الشرفة.. وأخرج خطاباتها وأقرؤها.. ولم أكن أقرؤها بعينى.. ولكنى أقرأها بأذنى.. إنى أسمعها.. ليس مجرد خيال.. ولكنى أسمعها.. كان صوتها حقيقة يملأ كيانى كله.. ثم أعود وأنتظر.

كان هذا الانتظار هو نبضى..

ولم تدخل حياتى خلال هذه السنوات العشر أية امرأة..

ولا حتى امرأة عابرة..

هل هذا شنوذ.. أبدا.. إن الذى يرسم تصرفاتنا هو ما نريده..
وأنا لا أريد أية امرأة.. إنى أنتظر صفية..

وأمى تلح على فى كل يوم أن أتزوج.. وأضحك.. إن أمى تعتقد أن
فى الدنيا فتاة أخرى غير صفية.. لا.. لا.. بالنسبة لى لا.
وفى يوم..

بعد عشر سنوات..

دق جرس التليفون فى مكتبى بالشركة..
وما كدت أسمع كلمة: ألو.. حتى صرخت:
- صفية..

لقد عرفت صوتها قبل أن تتكلم وبعد عشر سنوات من الصمت..
وقلنا فى التليفون كلاما كثيرا مرتبكا، كأننا كنا نحاول فى هذه
اللحظات أن نسترد كل ما فاتنا من كلام خلال عشر سنوات.. ومن
ضحكات.. ومن عتاب.. و..

واتفقنا ببساطة على اللقاء فى مقهى هادئ منزو فى شارع الهرم.
هى التى اختارت هذا المقهى للقائنا.. وقالت لى إنها كانت تمر
بهذا المقهى منذ خمس سنوات.. وكلما مرت به تمننت أن تجلس
فيه معى.. رفضت أن تدخله إلا معى..
والتقيننا..

ووقفنا ينظر كل منا للآخر وبين شفاهنا ابتسامتان حائرتان
مترددتان لا تدريان أى معنى تحمله..

ولكنى وجدت نفسى أعود عبر الزمن إلى عمر الثامنة عشرة..
وصفية تعود معى إلى عمر السادسة عشرة.. ربما كانت صفية قد
سمنت قليلا، وربما كان فى حديثها معان لم أسمعها منها من
قبل.. ولكنها لا تزال فى عمر السادسة عشرة.. لم تمر بنا عشر
سنوات.. لم نفترق أبدا.. إنها كانت معى بالأمس..

ويدى فى يدها..

ونتكلم..

ولم نكف عن الكلام..

وأصبحت تتصل بى كل صباح بالتليفون..

وعشت فى كل تفاصيل حياتها.

وعاشت فى كل تفاصيل حياتى.

ثم كان لقاءنا الثانى بعد أسبوعين..

فى شقتى..

وأحاسيسنا أكثر نضجا..

وقبلاتنا أكثر وعيا..

وكانت صفية أول امرأة فى حياتى.. كما كانت أول فتاة فى

حياتى.. الفتاة الوحيدة، والمرأة الوحيدة..

وصفية؟!!

لا.. لا تقلها.. لم يكن فى حياة صفية رجل آخر.. إنك لا تفهم

ما تقول.. إنك تعلم أن كل إنسان له حياة عامة يعطيها للمجتمع،

وحياة خاصة يحتفظ بها لنفسه.. إنه دين عليك نحو المجتمع

الإنسانى أن تخصص جزءاً من حياتك له.. الجزء العام.. أو الحياة العامة.. وإلا كنت إنساناً تافهاً.. ودين المجتمع الإنسانى نحوك أن يترك لك حياتك الخاصة تتصرف فيها كما تريد ما دمت لا تعتدى بتصرفاتك على أحد.. وحياتى العامة التى أعطيها للمجتمع، هو عملى كمهندس.. والحياة العامة التى تعطيها صفة للمجتمع.. هو عملها كزوجة وأم.. ليس معنى هذا «رجل آخر».. إنه مجرد عمل.. كعملى فى الشركة.. وأنا أحترم زوج صفة احترامى لرئيس الشركة.. ما دام يقوم بواجبه نحو الشركة.. صحيح أنه فى حالات كثيرة تستطيع المرأة أن تجمع فى بيتها بين حياتها الخاصة وحياتها العامة.. كأن تتزوج رجلاً تحبه.. ولكنها إذا لم تستطع ذلك فإن هذا لا يحرمها من حياتها الخاصة، ولا يعفيها من واجبها نحو تقديم حياتها العامة للمجتمع.. أن تقدم للمجتمع شيئاً.. ولو كانت صفة قد استكملت دراستها وقدمت للمجتمع عملاً، كأن تكون طبيبة لأعفاها هذا من الزواج من شخص لا تحبه.. ولكنها لم تكن تستطيع أن تقدم للمجتمع إلا عملها كزوجة وأم.. فاضطرت..

هل تفهمنى؟

إنى أرفض أى تفسير آخر.. وأرفض كلمة «رجل آخر».. إنه عمل.. مجرد عمل.. مهما تسامت فيه العواطف، فهو عمل.. وانتظمت الحياة.. هادئة، حلوة، رقاقة، بينى وبين صفة.. كانت تحدثنى صباح كل يوم فى التليفون.. لا تحدثنى فى

المساء، ولا فى أيام الجمع.. ونتلاقى فى فترات متباعدة.. أحيانا كل أسبوعين.. وأحيانا كل شهر.. وكانت أحيانا تسافر مع زوجها عندما ينتدب للعمل فى الخارج.. وتغيب شهورا.. وفى مرة غابت سنتين.. وأنا أنتظر.. هذا الانتظار الذى يسرى فى هدوء خلال أعصابى، كما تسرى أنفاسى.. ولم نعتد على أحد بحبنا.. بالعكس..

إنى عندما استكملت سعادتى بحبى، استطعت أن أقدم إنتاجا أكثر فى عملى.. وعندما سعدت صافية استطاعت أن تضى على بيتها وأولادها سعادة أكبر.. إن الإنسان الناقص لا يمكن أن يقدم شيئا كاملا.. وأنا لم أكتمل إلا بصفية.. ولم تكتمل صافية إلا بى.. وعندما اكتملنا استطعنا أن نقدم للناس عملا كاملا، يسعدهم كسعادتنا..

* * *

كم مضى؟
عشرون عاما..
أصبحت فى الثامنة والخمسين من عمري، وصفية فى السادسة والخمسين..
واتصلت بى بالتليفون وصوتها يرتعش..
لقد مات الزوج..
وكنت أول من تبلغه النبأ كعادتها منذ كانت طفلة.. تلجأ إلى
كلما ألمّ بها حدث..

وحزنت صفة على زوجها حزنا عميقا صادقا..

وحزنت معها.. حزنا حقيقياً، لا رياء فيه..

ومضى أكثر من عام قبل أن يتبدد حزنا إلى ذكرى عاطرة..

وأنا وصفية كما نحن.. تتصل بي صباح كل يوم فى التليفون.. لم

تكن تتصل بي فى المساء، ولا فى أيام الجمع.. حتى بعد أن مات

الزوج.. ثم كنا نلتقى فى فترات متباعدة.. أحيانا كل أسبوعين

وأحيانا كل شهر..

ثم قلت لها:

- أظن من حقنا نتجاوز بأه يا صفة..

ورفعت إلى عينيها الناعستين الهادئتين، وصمتت..

ولم يكن هناك ما يمنع من زواجنا.. فأولادها قد كبروا واستقل

كل منهم فى بيته.. وهى مصممة على ألا تعيش مع أحد منهم..

إنها تعيش فى بيتها وحيدة مع مربية أولادها..

ولكنها ظلت صامته..

وعدت أقول:

- إيه رأيك؟!

وتلونت وجنتها بلون الخفر، وقالت وهى ترخى رموشها فوق

عينيها:

- مش عارفه يا محمد.. أنا عمرى ما فكرت إننا نتجاوز.. متهياً

لى إن حبنا أكبر من الجواز..

قلت :

- حبنا من حقه يستريح ولو اليومين اللي فاضلين..

قالت :

- أنا خايفه يا محمد.. خايفه على حبنا من الجواز.. مش عارفة ليه.. بعد ده كله، نبتدى حاجه جديده..

وفى الواقع أننى كنت أشاركها نفس الخوف.. ونفس التردد.. لقد عاش حبنا طويلا، واكتسب عادات معينة، وطريقة معينة للتعبير عن نفسه.. وارتقى بنا إلى أعلى قمم السمو.. قمم أعلى من كل القمم التى وضعها المجتمع للحياة الفاضلة.. وربما لو نزلنا بحبنا إلى تقاليد المجتمع، لفقد روعته.. وفقد صلابته وعناده.. فقد أفضل ما فيه..

ولم نتزوج..

أصرت صفية على ألا نتزوج..

ومضت ست سنوات ولم يرد، علينا شىء، إلا أنى بدأت أقوم لها ببعض مطالب حياتها التى لا يستطيع أن يقوم بها إلا رجل.. ولم تقدمنى صفية إلى أولادها بعد أن مات زوجها، ولكنها كانت تحدثهم عنى قليلا كصديق من أصدقاء عائلتها منذ أيام حدائق القبة.. ثم مرضت صفية..

وعندما مضى أكثر من شهر وهى لا تستطيع أن تغادر الفراش.. صممت على أن أزورها.. وكانت المرة الأولى التى أزورها فيها فى

بيتها.. دخلت البيت كأنى أدخل قدس الأقداس، خاشعا لرهبته..
وقالت فى ضعف:

– مكننتش عايزاك تشوفنى وأنا عيانة يا محمد..
إنها لا تدرى..

لا تدرى أنى ما زلت أراها إلى اليوم كما كانت وهى فى السادسة
عشرة.. أراها بعينى، لا بخيالى، ولا بأوهام حبى، أرى عينيها
الناعستين الهادئتين، ووجنتيها العاليتين، وشفتيها المكتنزتين
المملوءتين بالحب، وبشرتها الناعمة السمراء، وشعرها الأسود
المسترسل.. إنها لم تكبر أبدا.. أبدا.. إنها الفتاة التى أحبها..
وذات ليلة..

صحوت منزعجا من نومى.. وارتديت ثيابى بسرعة، وجريت
إلى الجاراج، وقدت سيارتى إليها.. إلى صفيحة.. والساعة حوالى
الثالثة صباحا.. وضغطت على جرس الباب..
وعدت أضغط بإصرار..

يجب أن أراها الآن.. الآن.
وفتحت لى بعد فترة طويلة، المربية العجوز.. وهرعت إلى
غرفتها وكانت راقدة فى فراشها.. بيضاء فى لون الفل، وشفتها
ترتعشان.. وفتحت عينيها عندما اقتربت منها.. وبرقت ابتسامة
خاطفة بين شفتيها.. وسمعتها تهمس..

- محمد.

ثم ارتخت يدها فى يدى..

إنى الآن فى السادسة والستين من عمرى..
وقد مضت أربع سنوات وأنا فى انتظار صفيحة.. هذا الانتظار
الهادئ المتصوف الذى يسرى فى أعصابى كما تسرى أنفاسى.. وأنا
واتق أنها ستأتى يوماً وتدعونى إلى لقائها فى مقهى صغير منزو
ترفض أن تجلس فيه إلا معى..
مقهى فى الجنة..

الله.. الله.. يا ست

بدأ أفراد الشلة يتوافدون على منزل السيد المهندس محمد برعى أحد مديري العموم بوزارة الأشغال.. وقد تعودوا أن يجتمعوا فى مثل هذا اليوم من كل شهر، فى منزل أحدهم، لسماع حفل السيدة أم كلثوم المذاعة من الراديو..

وكان أول الوافدين السيد إسماعيل سكر مدير مكتب وزير الأوقاف والسيدة حرمه.. واستقبله محمد برعى فاتحا ذراعيه، واحتضنه إلى صدره صائحا:

- إزيك يا أبو السباع.. وحشتنا..

وتبادلت حرم إسماعيل سكر وحرم محمد برعى طرقة القبلات. وقالت حرم محمد برعى:

- إزيك يا إنصاف.. إزى عروستنا الحلوة..

وقالت إنصاف وشفقتها مشدودتان إلى آخرهما ترسم ابتسامة مفتعلة:

- إزيك إنتى يا دودى، واژى الولاد..

وشدتها دودى من يدها وجلستا فى الركن البعيد من غرفة الصالون.. وأخذ محمد برعى صديقه إسماعيل سكر وجلسا فى الركن الآخر بجانب الراديو.. وهو يقول:

– إقعد يا إسماعيل.. إزى الحال.. خصموا منك كام الشهر ده..
وتنهد إسماعيل قائلاً:

– ميتين خمسة وأربعين قرش. زيادة ضريبة الدفاع،
والادخار.. وقال محمد برعى وهو يقهقه:
– يعنى كمان حفلتين لام كلثوم والماهية ميفضلش منها
حاجة..

وقال إسماعيل:

– والله ما فى حاجة بتخفف المصايب إلا ام كلثوم.. الواحد
يقبض من هنا، ويتغم.. ويفضل مغموم لغاية ما يسمع الست..
ودق جرس الباب، ثم دخل الأستاذ عبد العزيز على المحامى،
والسيدة حرمه.. وتكررت الأحضان وطرقة القبلات.. ثم وصل
السيد شكرى ناجى، الموظف بالاستعلامات والسيدة حرمه..
والدكتور رفعت عبد الله طبيب مستشفى الرمد والسيدة حرمه..
وتجمعت السيدات فى الركن البعيد، والتف الرجال فى الركن
الآخر حول الراديو..

وعاد محمد برعى يقول:

– اللى عايز اعرفه الخصومات اللى نازله على الماهيات دى
آخرتها إيه..

وقال السيد شكرى:

– أنا مش مجننى إلا الادخار ده.. طيب واحد مش عايز يدخر حد شريكه..

وقال الأستاذ عبد العزيز:

– يا جماعة، لا تنظروا إلى الموضوع من وجهة المصلحة الفردية.. البلد عليها التزامات كتير ولازم كلنا نتحملها..
وقال الدكتور رفعت:

– التزامات إيه بأه يا سى عبد العزيز.. آه.. قول لنا إيه هى الالتزامات دى..

وأطلقت دودى ضحكة مجلجلة لوت أعناق الرجال.. ثم خفضت صوتها وقالت:

– ده الراجل يا حبة عينى مخدش منهم يومين.. ويا أختى متعرفيش إزاي لفوه.. وراح متجوز الست الكركوبة..

وقالت قدرية حرم السيد شكرى ناجى:

– يعنى بالميت مي جيش عندها أربعين سنة..
وقالت إنصاف:

– واكثر..

وقالت خديجة حرم الأستاذ عبد العزيز؟

– إنما صحيح حتعمل فرح وزفة..

وقالت سوسن حرم الدكتور رفعت:

– دى كانت تبقى فضيحة.. دى تالت جوازه.. فرح إيه وهباب إيه..
وارتفع صوت إسماعيل سكر:

- الساعة كام يا جماعه.. إوعى تكون الست ابتدت..
ونظر شكرى ناجى فى ساعته وقال:

- ياه.. الساعة عشره ونص.. دى زمانها ابتدت من زمان.. وقام
محمد برعى وأدار مفتاح الراديو، ثم التفت قائلاً:
- طيب لو كانت البلد عليها التزامات، وكلنا لازم نتحملها..
يبقى لازمة الأرباح اللي بيوزعوها دى إيه.. طيب ما بلاش أرباح،
ويسيبوا ما

هيتنا فى حالها..

وقال الأستاذ عبد العزيز:

- الأرباح دى لها هدف تانى.. هدفها إشعار العمال بأنهم ملاك..
وقال شكرى ناجى:

- واشمعنى يا أخى العمال وموظفى الشركات يبقوا ملاك..
واحنا يا بتوع الحكومة.. احنا ياللى شايلين الهم على دماغنا،
اشمعنى احنا كمان ما نبقاش ملاك.. ليه ما يوزعوش علينا نسبة
من أرباح الحكومة..

وقال الدكتور رفعت:

- مش مفروض الحكومة تريح..

وقال محمد برعى:

- وبلاش نقول ربح.. نسميه دخل.. نسميه إيراد.. الحكومة
إيرادها بيزيد كل سنه، ليه ميوزعوش علينا نسبة من زيادة
الإيراد، باعتباره أرباح..

وقال الأستاذ عبد العزيز:

— يا جماعة متنسوش إن الموظفين كانوا دائماً متمتعين
بضمانات كافية.. عندهم معاشات، وأجازات وحمايه من الزفت..
إنما العمال مكانش عندهم حاجه أبدا.. ومن حقهم إنهم ياخدوا
حقهم..

وقال شكرى ناجى:

— طيب بلاش الموظفين.. الفلاحين.. فلاحين الإصلاح الزراعى..
مش الإصلاح الزراعى بيحقق أرباح.. طيب الفلاحين اللي بيشتغلوا
فيه واللى ما أخذوش خمس فدادين ما بياخدوش أرباح ليه..

وقال الدكتور رفعت:

— والله الكلام ده لازم يتكتب فى الجرايد..

وقال الأستاذ رفعت:

— سيبك من الجرايد.. كل اللي بيتكتب فى الجرايد نوع من
اللى نسميه مقالات تبريريه.. يعنى الحاجة تتعمل الأول وبعدين
الصحافة تبررها، تقول اتعملت ليه.. معندناش مقالات توجيهيه..
ولا كاتب توجيهي..

وقال شكرى ناجى موظف الاستعلامات:

— لأ.. ملكش حق يارفعت.. الجرايد مش ساكتة.. ده إحنا
عندنا كل يوم ميت شكوى من الجرايد ببيعتها الوزراء ورؤساء
مجالس الإدارات.. هو بس..

وقطعت حديثه دودى وقد قامت تطوف بعلبة الشيكولاتة..

وقال الدكتور رفعت وهو يلوك قطعة من الحلوى فى فمه:

- ما تخرجش عن الموضوع.. تعرفوا العامل النهاردة بتوصل ماهيته كام.. أربعين وخمسين جنيه.. وامبارح عبد الله خليل المهندس فى مطبعة النهضة قاللى إن الأسطى عندهم ماهيته وصلت لية جنيه..

وقال إسماعيل:

- والله أنا بافكر ما ادخلش ابنى الجامعة ووديه يتعلم صنعه..

وقال عبد العزيز:

- صح.. ده اللى لازم يحصل.. جامعة إيه وبتاع إيه.. وقال

محمد برعى:

- برضه يا عبد العزيز.. يعنى لو جالك عامل يخطب بنتك

ترضى..

وقال عبد العزيز:

- مَرَضاش ليه.. ما دام بيكسب ويقدر يعيشها كويس..

وقالت دودى وهى تسحب صندوق الشيكولاتة من تحت يده:

- إزاي بأه يا عبد العزيز بيه.. بأه ده كلام.. الأصل برضه عليه

عمل.

وقال عبد العزيز:

- أصل إيه يا دودى هانم.. ده كلام بتاع زمان..

وقال محمد رفعت :

– والثقافة..

وقال عبد العزيز :

– الثقافة فى القرايه، مش فى الشهاده.. يعنى أنا كنت اتثقت

فى كلية الحقوق.. أبداً والله، لولا الكام كتاب اللى قريتهم كان
زمانى حمار..

وابتعدت دودى بعلبة الشيكولاتة واتجهت إلى ركن السيدات..

واستقبلتها إنصاف قائلة:

– إلا قوليلى يا دودى.. إنتى لقيتى رز الشهر ده..

وقالت دودى:

– أبداً والله يا أختى.. بعثّ الواد النهاردة الصبح رجح من غير

رز.. إنما أنا دايماً عامله حسابى.. مخزنه شهرين لقدام..

وقالت قدرية:

– أنا مريحه نفسى.. عملت ماهيه ثابتته للموظف بتاع الجمعيه..

جنيه فى الشهر.. ومافيش جنس حاجه أطلبها ملقيهاش.. وأول

الحاجة ماتنزل الجمعيه، أبص ألاقىها عندى فى البيت..

وقالت خديجة:

– أنا الشهر اللى فات كنت حاجيب لهم البوليس..

وقالت إنصاف:

– إوعى.. ده اللى بيحجيب البوليس.. بيفضل بعد كده جعان

طول عمره.. الموظفين بتوع الجمعيه بيطلعوا دينه.. اوعى تروحي

للبوليس..

وقالت سوسن :

- أنا يا أختى عارفه الحاجات دى كلها بتروح فين.. دى
الحاجه يدوبك تنزل الجمعيه أول الشهر، تبصى ما تلقياهاش بعد
ساعتين..

وقالت دودى ضاحكة :

- يمكن بيودوها غزة بدل البارفانات وعلب البلوبيف اللى
بتيجى من هناك..

وقالت إنصاف :

- يا اختى الناس هى اللى فجعانه.. والفلوس بقت كتير فى
إيديين اللى يسوى واللى ما يسواش.. وكل واحد همه على بطنه..

ومد محمد برعى عنقه من ركن الرجال، صائحًا :

- مش نتعشى بأه يا دودى!

وقالت دودى :

- هى الوصله خلصت..

والتفت محمد برعى إلى الراديو، ثم عاد إليها قائلاً :

- آه.. خلصت من زمان..

وقالت دودى :

- طيب اتفضلوا..

وقام الجميع يتدافعون إلى حجرة الطعام.. وقال الدكتور رفعت

للأستاذ عبد العزيز :

- تفكر الست حاتغنى إيه الوصلة الجايه؟

وقال عبد العزيز:

- أمل حياتى طبعاً..

وقال شكرى:

- يا سلام.. عظيمه الست دى.

المدرسة الحديثة

أنا رجل حرفتى الكلام..
لست محامياً..

لا.. إن المحامى يتحرك لسانه فى أفق ضيق محدود، ومهما
كان عبقرياً فإن عبقريته سجينه وراء قضبان من نصوص القوانين..
أما أنا فلسانى مطلق، وعبقريتى مطلقة.. إنى أضع العالم كنه على
طرف لسانى، وعبقريتى تجوب السماء والأرض بلا حدود.. وبلا
قوانين.. بلا أى شىء.
ولست خطيباً..

لا.. إن الخطيب يخاطب عواطف الجماهير. أما أنا فحرفتى
مخاطبة عقول الناس.. ليس كل الناس. إنى أكره مخاطبة كل الناس..
ولكنى أخاطب مجموعة الأفراد الذين يملكون مصاير الناس..
الأفراد العباقرة الممتازين، الذين تتطلب مخاطبتهم عبقرية خاصة،
عبقرية إنسان موهوب.. ويساوى إقناع الواحد منهم، إقناع شعب
بأكمله.. والانتصار على واحد منهم - الانتصار بالمنطق - يساوى
الانتصار على أمة.. يساوى فتح بلد واحتلاله.. أما الخطيب فهو
ليس أكثر من راعى ماشية.. كل قدرته - مهما تفوق - هو أن يتجه
بالماشية إلى حيث يريد.. ثم إن الخطيب يحتاج إلى صوت عال..

وأنا أكره الصوت العالى.. حديثى كله همس.. وصدقونى أن الكلمة الخفيضة الصوت أقوى ألف مرة من الكلمة العالية.. أقوى من كل صراخ العالم، لو قالها لسان موهوب مثل لسانى..
أنا - ببساطة - دبلوماسى..

لست وزيراً ولا سفيراً.. لا يمكن أنا أضحى بمواهبى لأحمل هذه الأعباء الإدارية، وأعباء التحركات والإجراءات الرسمية التى يحملها الوزير أو السفير.. وبرغم ذلك فإن لى مركزاً فى حكومتى لا يقل خطورة عن مركز الوزير أو السفير.. مركز خاص ممتاز، برغم أنى لا أتردد كثيراً على الحفلات الرسمية.. ولا يشاهدنى أحد فى الاجتماعات العامة، ولا تتحدث عنى الصحف إلا نادراً.. ولكنى دائماً فى مقابلات.. مقابلات تنتهى دائماً بحدث كبير.. حدث سياسى أو اقتصادى أو اجتماعى.. ولا يهم بعد ذلك أن صورتى لا تبدو فى هذا الحدث.. وأن الفضل فيه لا ينسب إلى.. لا يهم.

وفى كل حكومات العالم رجال مثلى.. رجال لهم أهميتهم القصوى.. ولكنهم لا يظهرون على المسرح، إنهم دائماً بين الكواليس البعيدة، الهادئة.. الخافتة الضوء.. فى لقاءات مع رجال الدول الأخرى.. ويتكلمون..

والكلام ليس مجرد حرفة..

إنه فن..

فن اختيار الكلمة..

وفن النطق بالكلمة..

إن اختيار الكلمة، بمثابة اختيار اللون عندما يهيم الرسام برسم لوحة.. الكلمة هي اللون الذي يرسم آراءك، ويرسم أهدافك.. والنطق بها بمثابة وضع اللون على اللوحة.. هل تضعه في خط عريض.. أو تضعه في خط رفيع.. وهل تضعه فاقعاً أو تضعه خافتاً.. وهل تضعه في جرة فرشاة واحدة متصلة، أو تضعه في نقط مبعثرة.. و.. وأنت تختار الكلمة بعقلك.. أما لسانك فهو الفرشاة التي ترسم بها كلامك..

إنه فن..

فن كبير..

وهو فن يتطلب إعداداً خاصاً لا يستطيعه أى واحد من هواة الكلام.. إنه يتطلب كثيراً من المعلومات.. ليس فقط معلومات عن الموضوع الذى تتكلم فيه.. بل معلومات عن كل موضوع، حتى نكون دائماً على استعداد لنتكلم فى أى موضوع.. وأنا - بكل تواضع - أحمل فى رأسى معلومات تكفى لتوزيع على ألف رجل كل منهم متخصص فى موضوع، ويحمل فيه شهادة دكتوراه.. إن رأسى أنسكلوبديا قائمة بذاتها.. لا تقل اتساعاً عن دائرة المعارف البريطانية.

والكلام فن يتطلب أيضاً إجابة أكبر عدد من اللغات، فإنك عندما تتحدث بنفس لغة محدثك تستطيع أن تكسبه بسهولة أكثر.. ثم

إن استعانتك بمترجم تفقدك ثلاثة أرباع تأثيرك.. إن المترجم صديق تشك دائماً فى خيانتة لك مع زوجتك.. وأنا أكره المترجمين، ولا أثق فيهم ولست فى حاجة إليهم.. إنى أجيد سبع لغات.. أجيدها قراءة وكتابة وكلاماً.. فما حاجتى إلى مترجم.

وفن الكلام يحتاج أيضاً إلى قدرة على التمثيل.. لا يكفى أن تتكلم بلسانك.. بل بعينيك.. وبديك.. وأنفك.. وليس معنى هذا أن تقوم بحركات تمثيلية بحيث تبدو كممثل.. لا.. ولكن يجب أن يبدو الصدق فى عينيك عندما تريد أن تبدو صادقاً حتى لو كان كل كلامك كذباً.. ويجب أن يبدو التساهل على وجهك حتى لو لم تكن متساهلاً.. و.. لا تنسَ أبداً أن الذى تتحدث إليه ينظر إليك بعينيه، وأن كلامك يجب أن تكون له صورة على وجهك.

وأخيراً فإن فن الكلام يحتاج إلى مرونة.. مرونة فى كل شىء حتى فى مبادئك.. فليس المهم هو المبادئ.. ولكن المهم هو أن تصل إلى ما تريد.. وبعد هذا فإن الخطيئة يمكن أن تلبسها ثوب الفضيلة. والنفاق يمكن أن تلبسه ثوب الصداقة.. و.. إن ألعن أنواع المتحدثين هم هؤلاء الذين يتحدثون باسم المبادئ، إنهم غالباً لا يصلون إلى شىء..

إنه فن شاق..

وثقوا أنى ألهمت عقب كل لقاء أتكلم فيه.. إن ما يتطلبه الكلام من القدرة على تركيز الذهن.. والسيطرة التامة على كل خلية من

خلايا عقلك وعضلاتك، عملية منهكة.. عنيفة.. إنى أحتاج إلى
راحة ست ساعات على الأقل عقب كل ساعة كلام.. وبرغم ذلك
فإن تعبى لا يهم ما دمت أستطيع أن أرسم بلسانى هذه اللوحات
الرائعة.. اللوحات التى أقنعت وآمن بها كل من تحدثت إليهم،
وانتهت بعقد كثير من المعاهدات بين حكومتى والحكومات
الأجنبية، وكثير من الاتفاقات التجارية والمالية، بل حلت كثيراً
من الأزمات السياسية..

ولا تعتقدوا أنى كبير فى السن.. لا.. فبرغم موهبتى ونجاحى،
فأنا اليوم لا أتجاوز الأربعين من عمرى، وكنت فى الثامنة والثلاثين
من عمرى عندما التقيت بكوثر لأول مرة..

التقيت بها فى حفل صغير ضم بعض الرجال الدبلوماسيين -
أمثالى - وزوجاتهم.. ووقعت عليها عينى وهى ترقص «التويست»..
آسف لعلها كانت ترقص «الباسانوف».. ووجدت نفسى أتتبعها
باهتمام كبير حتى إنى - ربما لأول مرة - نسيت أن وزير خارجية
بولونيا يجلس بجانبى وأنها فرصة مناسبة لأرسم له بلسانى لوحة
من لوحاتى.

إن كوثر رائعة.. إن جسدها ينساب وهى ترقص كأنه قطعة
موسيقية قائمة بذاتها.. وكل قطعة من جسدها ترقص فى رقة
وبساطة وحلاوة حتى أصابع يديها ترقص.. ليس فيها قطعة واحدة
ليست متأثرة باللحن ومنساقه إليه.. واستنتجت أن كوثر لا بد أن

تكون كريمة أحد الزملاء المدعويين.. فعمرها لا يمكن أن يزيد على الثانية والعشرين.. والأسلوب الذى ترقص به لا يمكن أن يكون أسلوب سيدة متزوجة.. ونظرات عينيها فيها هذه اللمعة وهذا النشاط الذى لا تجده فى الزوجات، وشعرها الفاتح الساقط على عينيها لا يمكن أن يكون شعر زوجة.. إني خبير، وأستطيع أن أفرق بين «الزوجة» و «الكريمة» فى لمحة واحدة..

وأخذت أسائل نفسى: ترى كريمة من من الزملاء؟

وقبل أن تدلنى فراستى على أبيها انتهت الرقصة.. وجاءت كوثر وجلست بجانبى ولا أدرى هل جاءت بجانبى بمجرد الصدفة، أو لأن المقعد الذى اختارته كان أقرب مقعد إليها، أو أنها تعمدت أن تختارنى لتجلس بجانبى.. لا يهم.. لقد التفت إليها وعلى فمى هذه الابتسامة التى تعودت أن أفتح بها قلب محدثى وأجذب بها اهتمامه.. إني أثق كثيراً فى هذه الابتسامة.. إنها فى قوة الافتتاحية الموسيقية التى تعزف قبل رفع الستار عن الأوبرا.. ولكن يبدو أن كوثر كانت مشغولة عن ابتسامتى.. فقد جلست بجانبى وهى تدق على الأرض بقدمها الصغيرة الأنيقة على نغمات الموسيقى الراقصة.. وجسدها يتمايل فى هزات رشيقة.. وتطرقع بأصابعها بين الحين والحين.. وهى تغنى فى صوت خفيض هامس:

- تويست.. تويست..

لا يهم.. إني واثق أنى أستطيع أن أرسم لها بلسانى لوحة شائقة تبهرها وتجذب انتباهها.. وقد كنت دائماً قادراً على أن أبهر

النساء.. بل إنى كنت أتعمد أن أجتذب اهتمام السيدات كوسيلة من وسائل إقناع أزواجهن، وكان مبدئى: «إذا كسبت الزوجة فقد كسبت الزوج»، وقد كسبت جميع زوجات الرجال الكبار الذين كلفنى حكومتى بالتحدث إليهم..

وقلت لكوثر بادئاً الحديث معها، وقد وضعت فى عينى نظرة فيها بعض البريق، وبعض الحنان، وبعض الجدية، وجعلت صوتى مليئاً ولكن لا يخلو من المرح:

– إنتى بترقصى مدهش يا آنسه.. تعرفى إن الرقصات الحديثة دى زى التويست والباسانوف، دى فى الواقع مش حديثه.. دى مأخوذه من الفولكلور الإنسانى.. أقدم فولكلور فى العالم.. يعنى أيام ما كان الإنسان لسه عايش فى الغابه.. كان يرقص كده.. وعلشان كده أول ما ظهرت الرقصات دى كانت قريبه من قلب الإنسان و.. وقاطعتنى كوثر قائلة بسرعة:

– واحد قلبه وقف نزل يزقه.. ها.. ها..

وانطلقت تضحك، ضحكات رقيقة ناعمة لها صوت كصوت الأجراس المعلقة فى رقاب البقر وهى ترعى فى جبال سويسرا.. وارتبكت أنا..

الواقع كانت مفاجأة لى.. ولكنى تماكنت نفسى بسرعة، وضحكت معها..

ثم كفت كوثر عن الضحك، وعادت تتمايل وتدق بقدميها على أنغام الموسيقى الراقصة.. وعدت أنا إلى رسم لوحتي بلساني، وقلت: الواقع مش بس الرقص هو اللي أصبح يستمد خطواته من الفولكلور القديم.. الحلى مثلا.. يعنى الأساور اللي بنشوفها النهاردة فى إيدين الستات و..

وعادت كوثر تقاطعنى قائلة:

– مره واحد حلق والتانى غويشه.. ها.. ها..

وسخسخت على نفسها من الضحك.

وارتبكت مرة ثانية؟، ولكنى بسرعة ضحكت معها.. سخسخت

أنا الآخر.. ثم عدت أقول بعد أن أفقنا من السخسخة:

– أنا مره كنت فى انجلترا وزرت قصر اللورد..

وقاطعتنى كوثر:

– واحد نوبه راح قصر الدوباره اتكعبل.. ها.. ها..

واستطردت بسرعة:

– واحد نوبه ربي فراخ فى قفص صدره، ها.. ها.. ها..

و..

– واحد راح سينما رياتو نزلت.. ها.. ها..

و..

– واحد قالوا له الصالون الأخضر فاتح، راح لقاه غامق.. ها..

ها.. ها..

ولم تسكت إلا عندما تقدم لها أحد الضيوف وطلبها للرقص..
وتركتنى مذهولاً..

لا يمكن أن تكون كوتر سخيفة وتافهة إلى هذا الحد..
لا.. ليست سخيفة ولا تافهة.. افهمونى، كل ما هنالك أن كوتر
تؤمن بمدرسة فنية غير المدرسة التى أؤمن بها.. إنها من أنصار
المدرسة التجريدية.. والتجريد فى الرسم معناه أن تجرد اللوحة
من الموضوع، وتقتصر فيها على الألوان والخطوط. وتأثير الألوان
والخطوط يغنى عن الموضوع.. أى أن تضع اللون الأسود، بجانب
الأبيض، بجانب الأخضر، بجانب الأسود.. وهذا يكفى.. يكفى
لتكوين لوحة رائعة.. لوحة تجريدية.. وكذلك فى فن الكلام، إنك
تستطيع أن تجرد كلامك من الموضوع، ثم تنتقى مجموعة من الألفاظ
تضعها بجانب بعضها البعض بحيث تترك تأثيراً على السامع..
أى تأثير.. تأثير بلا موضوع.. وهذه هى المدرسة الحديثة..
والمدرسة الحديثة فى الرسم لها أنصار كثيرون، وبعض اللوحات
التجريدية تباع بالآلاف الجنيهات، وكذلك المدرسة الحديثة فى
الكلام، لها أنصار كثيرون، ولها تأثير كبير..

وبدأت أراجع كلام كوتر:

– واحد حلق والثانى غويشه.. ها.. ها.. ها..

ضحكت فعلاً.. ضحكات من كل قلبى..

– واحد قلبه وقف نزل يزقه. ها.. ها.. ها..

إنى أضحك.. أضحك كما لم أضحك قط فى عمرى.. إن المدرسة
التجريدية لها تأثير كبير.. تأثير مباشر.
وكوثر ليست تافهة ولا سخيفة، إنها من أكبر أنصار المدرسة
التجريدية..
ولا أطيل عليكم..
لقد تزوجت كوثر..

ومضى عام ونحن نكاد نظير من السعادة.. إننا فى جنة صنعناها
من حبنا ومن توافق أمزجتنا وشخصياتنا.. وإيمانى بالمدرسة
التجريدية يشتد، وقد جمعت خلال هذا العام من لوحات الكلام
التجريدى، عشرات.. مئات.. ربما أكثر مما جمعت كوثر طول
حياتها..

ثم لا أدرى ماذا حدث..
ماذا حدث حتى تطردنى حكومتى من عملى هذه الطردة الشنيعة،
دون ذنب جنيته، وبعد أن خدمت عشر سنوات ساهمت خلالها فى
عقد كثير من المعاهدات والاتفاقات وحل كثير من الأزمات..
كل ما أذكره أن الوزير استدعانى مرة إلى مكتبه، وبدأ يحدثنى
عن الأوضاع السياسية فى الكونغو وقال فى ضمن كلامه:
إن مبادئ المرحوم لومومبا لا تزال..
وقاطعته قائلاً:

- واحد لومومبا والثانى مالوش.. ها.. ها.. ها.
إنها لوحة تجريدية رائعة..

ولكن الوزير لم يضحك.. لقد نظر إلى نظرة هائلة، وزم شفثيه
فى قرف.. لا يهم.. إن سيادته ليس من أنصار المدرسة التجريدية
فى الكلام.. وأنا برغم إيمانى بالمدرسة التجريدية، لست متعصباً
لها، إنى أقبل جميع المدارس الأخرى وأحترمها..

ولكن السيد الوزير ظل ينظر إلى هذه النظرة الهائلة، وشفثاه
مزمومتان فى قرف.. ثم أنهى المقابلة فجأة، وصرفى من مكتبه.
وفى اليوم التالى تلقيت خطاب الاستغناء عن خدماتى..
لماذا؟
لست أدرى..

غابة من السيقان

لم أكن أبدًا هذا الإنسان..
كنت دائمًا إنسانًا مثاليًا.. ربما منذ ولدت وأنا مثالي.. ولم أكن
أدرى أنني مثالي.. لم أرَ صورة من صور الحياة حتى أقارن بينها
وبين صورة حياتي، ثم أكتشف من المقارنة أنني مثالي.. أبدًا..
كنت أعتقد أن الحياة كلها هي هذه الحياة التي أعيشها، الحياة
الهادئة، الجادة.. طريقها نور، وسماؤها عفة، وأرضها علم وثقافة
وعمل..

وبيتنا الكبير هادئ دائمًا، نظيف دائمًا، لم ترتفع فيه يومًا
كلمة نابية، ولا دوى فيه صراخ، ولا مر بين جدرانها حدث يمكن
أن يضع معاني الفضيلة والعفة موضع مناقشة.. وأبى يملأ البيت
بهيبته، وطيبة قلبه، وإحساسه الكبير بالمسئولية.. وأمي تملؤه
بجمالها، وحنانها، وبأرقى صورة من صور الأمومة الطاهرة.. وأنا
أذهب إلى المدرسة وأعود لأستذكر دروسى ثم أشغل نفسى بهوايتى
للرسم، أو أذهب إلى النادى القريب لألعب التنس.. وهى هواية
ثانية من هواياتى.. أو أنزل إلى ورشة النجارة الصغيرة التى
أقامها لى أبى فى البدروم، لأصنع أشياء من الخشب.. فقد كانت
النجارة هوايتى الثالثة.. أو أقرأ، فالقراءة أيضًا إحدى هواياتى..

وإخوتي لكل منهم هوايته التي يشجعهم عليها أبى.. وكلنا نعيش فى هذا العالم المثالى النظيف.. عالم كله حب، وكله طهر، وعفة، وفضيلة، ومتع راقية وعميقة.. متعة العقل.. متعة الروح.. متعة الرضا عن النفس.. متعة المثالية..

إلى أن تخرجت فى كلية الحقوق..

وعملت محامياً فى مكتب أبى.

ومكتبنا - أقصد مكتب أبى - كبيتنا.. مكتب نظيف، عف،

مثالى.. لم يدخله أبداً مجرم، ولا تولى الدفاع أبداً عن جان.. وليس بين دوسيهاته قضية مخدرات أو زنا، أو أى قضية أخرى من هذه القضايا التى تمس الفضيلة والشرف.. كانت كل قضايانا قضايا أنيقة مهذبة، تقوم على خلاف فى تفسير القانون، أو على أخطاء فى الإجراءات، أكثر مما تقوم على نية الإجرام والتعدى.. قضايا الشركات والضرائب، والاستشارات القانونية للهيئات المحلية والأجنبية.. و.. و.. وكان أبى - رحمه الله - يقول لى دائماً إن المحامى يجب أن يكون أولاً قاضياً، يحكم فى القضية التى تعرض أمامه، قبل أن يعرضها على المحكمة.. ليس من مهمة المحامى أبداً أن يستغل علمه بالقانون ليتحايل على العدالة، ولا أن يبرىء مجرماً.. إن مهمته هى نفس مهمة القاضى وكما يعد القاضى حيثيات حكمه.. فكذلك يعد المحامى دفاعه عن حكمه..

ولذلك سميت المحاماة: «القضاء الواقف»، لأن القضاء الآخر «قضاء جالس».. وعلى هذا الأساس كان أبى يرفض كثيراً من القضايا التى يأتى بها أصحابها إلى مكتبنا.. يرفضها مهما بلغ إغراء الأتعاب التى تعرض عليه..

وسلكت سلوك أبى فى المحاماة، السلوك العف النزيه الجاد.. وتفوقت.. تفوقت لأنى أحببت عملى.. بل إن المحاماة لم تعد مجرد عمل.. بل أصبحت هواية أضمتها إلى مجموعة هواياتى الكثيرة.. وعندما توفى والدى إلى رحمة الله، لم أخسر موكلاً واحداً من موكلية.. كلهم وثقوا بى ثقتهم بأبى..

وفى نفس العام الذى تخرجت فيه من كلية الحقوق، تزوجت نيفين..

تزوجت وأنا فى الثالثة والعشرين من عمري..

وكانت نيفين أجمل فتاة التقت بها عيناي فى حياتى.. وبرغم ذلك لم يكن جمالها هو كل شىء.. كان فيها هذا العبير الهادئ العميق الذى يفوح من بنات الناس الأصلاء.. عبير الحنان.. الطهر.. التعفف.. الرقة.. الطيبة.. الفهم.. عبير المثالية.. كانت نيفين مثالية مثلى.. ولم تكن فى حاجة إلى أكثر من نظرة واحدة لنشعر باراتباطنا إلى الأبد.. رباط الحب الأكيد، الحلو، الرائق كقطرات الندى..

وأصبحت زوجاً مثالياً..

أذهب إلى المحاكم فى الصباح، وأعود فى الساعة الواحدة لأتناول طعام الغداء، وأستريح قليلاً ثم أذهب إلى النادى لألعب التنس.. وفى المساء أذهب إلى المكتب لأبقى فيه حتى التاسعة وأعود إلى بيتى لأجلس مع أولادى، أو أمارس إحدى هواياتى، إن لم تكن - نيفين وأنا - مدعويين على العشاء عند أحد من أصدقائنا الكثيرين..

خمسة عشر عاماً مرت وأنا هذا الزوج المثالى.. عشتها بين عينى نيفين الهادئتين، وابتسامتها الحلوة، وحنانها الفياض، وروحها النقية. وأولادنا حولنا ملائكة، إى والله.. ملائكة..

إلى أن دخلت حياتى سميحة..

سميحة هانم.. حرم المهندس المعروف مصطفى الشريف..

جاءت إلى مكتبى تستشيرنى فى مشكلة خاصة بضريبة التركات المستحقة عليها بعد وفاة والدها.. ولم أكن أعرفها.. ولكنى كنت اسمع عن زوجها المهندس الكبير مصطفى الشريف.. وكنت أحد المعجبين بفنه العمارى الرائع.. ومن أجل زوجها، واسمه الكبير، استقبلتها باهتمام واحترام شديد.

ولأدرى كيف وجدت نفسى بعد دقائق من دخولها إلى مكتبى، أستمتع إليها وهى تحدثنى فى مواضيع بعيدة كل البعد عن ضريبة التركات.. كانت تحدثنى عن حياتها العائلية، وعن الناس الذين تعرفهم وعن الأفلام، وعن الكتب.. وكان حديثها من هذا النوع

الذكى الذى يشدك إليه .. ولا تملئه .. الحديث الذى يوقظ انتباهك
كلما فتر.. ويثير فيك كل ما تملكه من عواطف.. إثارة عابرة.. لقد
جعلتنى أضحك.. وجعلتنى أحزن.. وارتفعت بى وانخفضت بى..
إنى لم أقابل أبداً مثل هذه السيدة.. واكتشفنا أنه مرت بنا ساعة..
ربما أكثر.. ونحن لم ننته بعد من بحث موضوع ضريبة التركات..
وانصرفت على أن تعود..

وليلتها قلت لزوجتى نيفين:

- جاءت إلى المكتب الليلة سميحة هانم حرم المهندس مصطفى
الشريف.. أتعرفينها؟

قالت فى صوتها الهادئ ولسانها العف:

- سمعت عنها..

قلت:

- إنها سيدة مليئة بالحيوية..

وقالت نيفين:

- كلها نشاط.. إنها فى كل مكان..

والواقع أن سميحة لم تترك فى أثرًا بعد لقائنا الأول إلا انبهارى

بشخصيتها النشيطة المتدفقة.. انبهار كاد يتلاشى مع الصباح..

ثم عادت سميحة..

وعادت مرة أخرى..

إنها قطعاً ليست أجمل من نيفين.. ولكن فيها شيئاً ليس فى نيفين. هذا التدفق.. هذه القدرة الطاغية على جذب كل خيوط انتباهك.. وتحريك مشاعرك.. إنه شيء ليس فى نيفين.. وكانت هذه هى المرة الأولى التى أقارن فيها بين نيفين وأى امرأة أخرى.. بل كانت المرة الأولى التى أعتقد فيها أن هناك أى امرأة يمكن أن تقارن بنيفين.. أكثر.. كانت المرة الأولى التى أرى فيها بعينين يقظتين متعمدتين امرأة أخرى غير نيفين.. وجاءت سميحة ذات مساء..

وجلست تستولى على كل اهتمامى.. كأنها تنيمنى تنوياً مغناطيسياً.. ثم قالت:

- ليس معى سيارتى.. هل توصلنى بسيارتك..

ونظرت فى ساعتى.. التاسعة، موعد انتهاء العمل..

- لا مانع..

وركبت بجانبى، وحديثها لا يكف عنى.. تجعلنى أضحك وتجعلنى أفكر معها.. أفكر فى أشياء تافهة لم يكن يخطر ببالى أنى سأفكر فيها يوماً.. الأزياء، نجوم السينما، أى شيء.. ووقفت بها أمام بيتها.. وقالت فى بساطة:

- هل لك فى كأس؟

وترددت.. فعدت تقول:

- قد نستطيع فى جلسة عائلية أن نحصر تفكيرنا فى موضوعنا..

أقصد قضية الضرائب..

وعدت أنظر فى ساعتى..

التاسعة والنصف..

أستطيع أن أتأخر قليلا عن البيت..

ودخلت معها.. وكنت أعتقد أنى سأقابل زوجها المهندس

مصطفى الشريف.. ولكنه لم يكن فى البيت.. إنه فى الإسكندرية..

وعدنا إلى حديثنا..

وشىء أكثر صراحة ينطلق من عينيها، وينطلق فى كلماتها..

ولم أكن سانجًا إلى هذا الحد.. إنى أعرف بالضبط ماذا تريد..

ويجب أن أقاوم.. يجب.. إنى رجل مثالى.. وزوج مثالى.. وهى

زوجة.. وزوجها معروف.. إنى أحترم زوجها.. ولكنى كنت قد

نسيت الزوج.. نسيتة ربما من أول لقاء.. إن شخصيتها الطاغية لا

تترك مجالاً لذكر زوجها.. ومقاومتى تضعف.. وتضعف.. إلى أن

وجدت عمرى كله ينفجر.. ثمانية وثلاثين عاماً من المثالية تتساقط

هشة كالأوراق المحترقة.

وعدت إلى بيتى..

ولأول مرة لا أستطيع أن أواجه نيفين بعينى.. ولا أولادى..

عيناى منكستان.. رأسى منكس.. قلبى منكس.. ضميرى منكس..

فى ضميرى حسرة صارخة كأنى خسرت كل رأس مالى على مائدة

القمار فى لحظة واحدة.. ولم يكن لى رأس مال أعز على من مثالىتى..

ولم أنم..

ونسيت فى الصباح أن أقبل أولادى.. وأقبل نيفين.. وجرت
نيفين ورائى، ولحقت بى عند الباب وهى تنظر إلى فى دهشة
بريئة.. ومدت إلى خدها، فقبلتها قبلة سريعة كأنى كنت أخشى
على خدها الطاهر أن تلوثة شفتاى..

وكان يجب أن أقاوم..

أقاوم سميحة..

وقد استطعت أن أقاومها فى التليفون، ولكنى لم أستطع أن
أستمر فى مقاومتها عندما جاءت إلى مكتبى بنفسها لتأخذنى
إيها.. إن سحرًا طاغيًا يرقد فى عينيها السوداوين الكبيرتين..
سحر الخطيئة.. وانهرت.. أنا الذى كنت أفر دائماً بقوة إرادتى..
انهرت.. ربما لأن كل قوى فوقه من هو أقوى منه.. وهاتان العينان
السوداوان الكبيرتان أقوى منى..

والانهيار يأكل أعصابى..

إنى أتغير.. إنى لم أعد هذا الإنسان الهادئ الطاهر المثالى..
إنى إنسان عصبى.. تافه.. ضائع.. أهملت جميع هواياتى بما فيها
هواية الحمامة.. أسرح كثيراً.. وكلما وخزنى ضميرى صرخت فى
وجه نيفين.. كأنى أحاول أن أسكت صوت الضمير تحت صوت
الصراخ.. أو كأن نيفين هى ضميرى الذى أحاول أن أسكته. وهى
تنظر إلى فى رهبة تشوبها الشفقة، وفى عينيها تساؤل حائر.. ماذا
بى.. لعلى مريض..

وسميحة تتحدث كثيراً عن نيفين..

إنها تريد أن تتعرف إليها..

- لماذا؟..

- لأزداد قرباً منك.. يا حبيبي.

ولم أرد..

إنى لا أريد أن أجر خطيئتي إلى بيتي..

ثم فوجئت يوماً بنيفين تقول لى فى صوتها الهادئ، ولسانها

العف:

- أتدرى.. تعرفت اليوم إلى سميحة هانم حرم المهندس

مصطفى الشريف.. إنها سيدة رائعة.. دعوتها غداً إلى الشاي مع

بعض الصديقات.. دعوة للسيدات فقط.

وذعرت..

لقد وصلت الخطيئة إلى بيتي..

ولكن..

هل الخطيئة هى سميحة؟

وأنا.. ألسنت النصف الآخر من الخطيئة.. وأنا أقيم فى هذا

البيت.. فلماذا لا تأتى إليه سميحة أيضاً.

وسكت..

وجاءت سميحة..

وزوجتى مبهورة بها.. إنها تتحدث عنها كأنها تسير فى

مظاهرة تهتف باسمها.. تحيا سميحة.. تعيش سميحة.. إلى الأمام

يا سميحة.. وشعرت بنوع من الزهو الخبيث المریض، وزوجتی تتحدث عن إعجابها بسمیحة.. شعرت كأن زوجتی تهنئنی علی ذوقی فی اختیار النساء.. كأنها تهنئنی علی هذا الانتصار یوم نلت سميحة..

وسميحة تتحدث كل یوم فی التلیفون مع زوجتی.. فی البیت.
وتتحدث معی كل یوم فی التلیفون.. فی المكتب..
ثم مفاجأة أخرى..

إن سميحة تدعونا - زوجتی وأنا - إلى العشاء عندها..
وقد وجهت سميحة الدعوة عن طریق زوجتی دون أن تخبرنی بها.. كأنها بذكائها النسائی كانت تعلم أن زوجتی أقدر علی إقناعی بقبول الدعوة.

لا.. لن أقبلها.. إنی مشغول.. مشغول.

وزوجتی تلح..

ثم فوجئت بالمهندس مصطفى الشریف یتحدث إلی فی التلیفون..
وارتعشت یدی التي تحمل السماعة عندما نطق اسمه.. وسقط
قلبی.. ولكنه یشكرنی.. یشكرنی علی اهتمامی بقضية زوجته
ویكرر دعوة سميحة التي وجهتها إلی زوجتی..

كل الأصول روعیت..

هی دعت زوجتی..

وزوجها دعانی..

فلا أستطيع الرفض..

وذهبنا.. وكل شيء منى ليس فى مكانه.. ابتسامتى ليست فى مكانها المعتاد فوق شفتى.. ونظرتى ليست فى مكانها المعتاد من عيني، وقلبي ليس فى مكانه المعتاد بين ضلوعى.. وأشياء فى داخلى ترتعش.. كأنى آلة انفكت صواميلها.. وخفت.. خفت أن يلحق الناس على وجهى بصمات خطيئتى.. خفت أن يكون فى صدرى ميكرفون يذيع على الناس كل ما فيه من أسرار.. ولكن لا شيء حدث..

سميحة تبدو طبيعية.. مرحة، رائعة..
ولا بد أنى أنا الآخر أبدو طبيعياً.

إن الخطيئة تتحرك ببساطة فى بيوت الناس دون أن يلحقها أحد.. الخطيئة ليس لها وجه.. ليس لها رائحة.. ليس لها صوت.. وراعتنى هذه البساطة التى يمكن أن تعشش بها الخطيئة فى المجتمعات، ووجدت نفسى أتساءل.. إذا كانت هذه هى حال الخطيئة فى المجتمع.. فلماذا لا يكون فى هذا الحفل خطايا أخرى غير خطيئتى أنا وسميحة.. لماذا أفترض أنى بين كل هؤلاء المدعوين الزوج الخائن الوحيد.. ولماذا أفترض أن سميحة هى الزوجة الخائنة الوحيدة؟

وبدأت دون أن أشعر أبحث عن خطايا الناس فى تصرفاتهم، وفى كلماتهم، وفى نظراتهم.. إن فلاناً ينظر إلى فلانة طويلاً..

وفلانة تركت يدها مدة أطول من المعتاد فى يد فلان وهى تصافحه..
..و

وأصبحت هذه هى هوايتى الجديدة.

هوايتى الوحيدة..

وقد أصبحنا - نيفين وأنا - نخرج كل مساء مع سميحة وزوجها.. وكنت أضحك فى صدرى ونحن نتحرك معاً.. إن عددنا ليس أربعة.. عددنا ستة.. زوج وزوجته، وزوج آخر وزوجته، ثم عشيق وعشيقتة.. والمجموع ستة لا أربعة.. ها.. ها.. فلسفة، عبقرية.. وفى كل مكان كنا نذهب إليه، سواء ذهبنا إلى حفلة أو إلى سينما أو إلى ملهى.. أبدأ فى ممارسة هوايتى.. واكتشاف خطايا الناس، واستنتاجها من تصرفاتهم وهمساتهم.. وكنت أجد لذة فى ممارسة هذه الهواية.. لذة فائقة.. أسابيع طويلة مرت وأنا أمارسها.. ولذتى بها تكبر.

ثم..

وكنا مدعويين نحن الأربعة.. آسف نحن الستة.. إلى حفل ساهر.. وسقطت عيناي على وجه نيفين.. زوجتى نيفين.. وإذا بى أتساءل: لما أعفيت نيفين من هوايتى.. لماذا لم أبحث فيها هى الأخرى عن الخطيئة.. لماذا.. لأنها مثالية؟ ولكنى كنت أنا الآخر مثاليًا، ولم أعف من الخطيئة.. ربما هى الأخرى وقعت كما وقعت؟



وبدأت أنظر إلى نيفين بعينين جديدتين..
وخيل إلى أنى أرى فى عينيها نفس اللمعة التى أراها فى عيني
سميحة.. وأرى على شفيتها نفس الابتسامة الواثقة المتحدية..
وألح فى حديثها نفس الذكاء ونفس الشخصية الجذابة.. و.. و..
وبدأت أختل.

إنى لا أرفع عيني عن نيفين.. وقد كنت أمارس هوايتى على
الناس فى الحفلات والمجتمعات فقط.. فأصبحت أمارس هوايتى
على نيفين طول النهار والليل.. فى البيت وخارج البيت.. إنى
أتنصت عليها وهى تتحدث فى التليفون.. وأفتح دواليبها فى
غيبتها.. وأتظاهر بالنوم حتى تمام، ثم أفتح عيني وأبقى يقظاً طول
الليل لعلها تقول شيئاً فى أحلامها يدلنى على ما فى ضميرها..
ونيفين صابرة..

وأنا أختل.. وفى كل يوم أختل أكثر..
إلى أن كان هذا اليوم.

وكننا مدعويين نحن الأربعة.. آسف.. نحن الستة.. إلى حفل
عشاء يضم أكثر من عشرين مدعواً ومدعوة، التقفوا جميعاً حول
مائدة واحدة كبيرة.. كل زوجة بجانبها رجل ليس زوجها..
وكل رجل بجانبه سيدة ليست زوجته.. هذى التقاليد.. التقاليد
الاجتماعية المعترف بها.. ليس من حقك أن تطالب بأن تجلس
زوجتك بجانبك.. عيب أن تجلس الزوجة بجانب زوجها..

فضيحة كبرى.. إن زوجتك بجانب رجل آخر.. وكأن زوجاتنا كلهن من بنات الجيشا، مفروض أن ترفه كل منهن عن الرجل الذي يوضع بجانبها تقول له كلامًا حلواً.. وتبتسم له ابتسامة حلوة.. وتنظر إليه نظرة حلوة.. تقاليد.. تقاليد الجيشا.

ووضعوني بجانب سميحة.. أو وضعوا سميحة بجانبى.. إنهم دائماً يضعون أحداً بجانب الآخر وكأن هناك اعترافاً ضمناً بالمجتمع بخطيئتنا..

ومدت سميحة ساقها ولفتها حول ساقى من تحت المائدة.

ولم تكن هذه هي المرة الأولى..

إنها دائماً تلف ساقها على ساقى من تحت المائدة، وتخبط ركبتيها بركبتي، كلما جلست بجانبى..

واستسلمت ساقى لساقها..

نامت عليها..

ثم فجأة تذكرت نيفين..

من أدارنى؟!!

واعتدلت فى جلستى..

إنها تجلس فى الناحية المقابلة من المائدة..

ولا يبدو على وجهها شىء..

ولكن سميحة أيضاً لا يبدو على وجهها شىء.. ولو نظر المهندس

مصطفى الشريف فى وجه زوجته فلن يرى ساقها ملتفة حول ساقى.

إن الخطيئة لا تبدو فوق المائدة، ولكنها تعيش تحت المائدة..
وتعمدت أن أسقط السكين الذى آكل به على الأرض، وانحنيت
لألتقطه، ونظرت تحت المائدة.. ولكنها نظرة سريعة غير مركزة
لم ألمح من خلالها شيئاً.

وبعد فترة عدت وأسقطت الشوكة.. وحاولت أن أنظر تحت
المائدة.. كانت نظرة أطول وأكثر جرأة من النظرة الأولى.. ولكنى لم
أتمكن أيضاً من التأكد من حقيقة ما يدور تحت المائدة..

وحاولت أن أهدأ وأن أنسى الموضوع.. ولكن رغبة جامحة عنيفة
تتملكنى لأرى ما يدور تحت المائدة.. ولعل سميحة لحظت اضطرابى
فبدأت تتحدث إلى وتحاول أن تثير اهتمامى، وحاولت أنا الآخر
أن أستمع إلى حديثها وأهتم به، ولكن الرغبة الجامحة العنيفة
تلح على.. وتستبد بى.. تستبد بعقلى.. بأعصابى.. بدمائى.. إن
بى رغبتى جامحة فى أن أرى ما يدور تحت المائدة..
ولم أعد أستطيع أن أقوم..

أسقطت نفسى من فوق مقعدى، وزحفت على يدى وركبتى
ودخلت تحت المائدة.. ووجدت نفسى فى عالم غريب.. عالم خافت
الضوء.. مثير.. ومن حولى سيقان كثيرة.. سيقان فى بنطلونات..
وسيقان حريمى.. سيقان رفيعة، وسيقان مليئة.. إنها غابة.. غابة
من السيقان، ولو هبت الريح لاصطدمت السيقان بعضها ببعض كما
تتصادم أفرع أشجار الغابة.. تتصادم هكذا.. هكذا.. وبدأت أمسك

بالسيقان من حولي وألصقتها بعضها ببعض.. وأنا أصرخ: الريح هبت.. الغابة.. الغابة.. الغابة.

لقد كنت يومها أدري تمامًا ما أفعله.. كنت في وعيي.. كنت أعي أنى أسقطت نفسي من فوق المقعد، وزحفت إلى تحت المائدة، وأمسكت بالسيقان أصدم كل ساق رجل بساق امرأة.. وكنت أسمع صوتي وأنا أصرخ.. الغابة.. الغابة.. لم أكن مجنوناً. كل ما هنالك أنى لم أستطع أن أقاوم هذه الرغبة الجامحة العنيفة التي استبدت بي..

ولكنهم اعتبروني مجنوناً..

وجذبوني من تحت المائدة..

ونقلوني إلى مستشفى بهمان..

وكان آخر ما رأيته هو دموع زوجتي نيفين، قبل أن يسرى المخدر الذي حقنوني به في عروقي وأنام.

وقد قضيت في مستشفى بهمان ستة شهور.

وبرغم ذلك..

صدقوني..

أنا لست مجنوناً..

وأنا أبحث عن عمل..

عبد الله، وفاطمة

يا حضرات القضاة..

أنا لا أطلب الرحمة.. أنا أطلب العدل.. وإذا كان هناك من يقول «الرحمة فوق العدل»، فإنني أقول «العدل فوق الرحمة».. إنني أتمسك بالعدل، وأرفض الرحمة.. ولا أريد أن أخاطب قلوبكم لأبحث فيها عن الرحمة، بل أكتفى بمخاطبة عقولكم باحثاً فيها عن العدل.. ومهما بدا في حالتي التي أعرضها عليكم من غرابة تصل إلى حد الشذوذ، فإنني واثق من أن عقولكم التي تمرست طويلاً على اكتشاف خيط العدالة، قادرة على أن تنصقني.. قادرة على أن تعطيني حقي، وتأخذ للمجتمع حقه على..

كل ما هنالك يا حضرات القضاة أني لا أريدكم أن تحكموا عليّ بالظروف التي أحاطت بي عند ما ارتكبت جريمتي.. بل أريدكم أن تبحثوا عما فعلته هذه الظروف في نفسي.. في داخلي.. إن نفس الإنسان عالم قائم بذاته.. في داخل كل إنسان مدينة كبيرة. أكبر من مدينة القاهرة.. مدينة فيها شوارع وحواري وأزقة.. وفيها أتوبيسات وترموايات وسيارات تاكسي.. وفيها عمارات تنهدم، وعمارات تبني.. وفيها زحام من الناس.. ناس كثيرون، يضحكون ويبكون، ويتناقشون، ويصرخون.. ناس أشرار، وناس أختيار..

ناس ضعفاء وناس أقوياء.. والجريمة التي ارتكبتها وقعت داخل هذه المدينة.. جريمتي لم تقع في شارع «السد» بحى السيدة زينب، كما تقول أوراق التحقيق.. ولكنها وقعت في شارع آخر له اسم آخر، وفي حى آخر، وفي مدينة أخرى.. إنها وقعت في هذه المدينة التي تسمى مدينة النفس الإنسانية.. المدينة التي تعيش داخلى.. وأنتم لن تجدوا الحقيقة إلا فى هذه المدينة. الحقيقة التي ستهديكم إلى العدالة.

يا حضرات القضاة..

إنى أرفض فى إصرار هذا التحليل الذى تقدم به الأستاذ المحامى الذى انتدب للدفاع عنى.. إنه يحاول أن يبرر جريمتي بالجنون.. وبرغم أنى أقدر حسن نواياه، وأقدر أن محاولة إثبات جنون المتهم هى أسهل الطرق للدفاع عنه.. إلا أنى أرفض هذه المحاولة.. أرفض أن أكذب عليكم.. أنا لست مجنوناً يا حضرات القضاة.. أنا فى كامل قواى العقلية.. ولو أحلتمونى على الطبيب الشرعى، فسيكتشف بعد دقائق أنى عاقل.. عاقل جداً.. ولكن الأجدى لعدالتكم أن تنتدبوا خبيراً من خبراء علم النفس لينير أمامكم هذه الشوارع والحوارى والأزقة التي تتكون منها هذه المدينة الواسعة التي ترقد بكل ضجيجها داخل صدرى.. وعندما يضاء النور ستكتشفون أنى عندما ارتكبت جريمتي كنت فى حالة يسمونها فى علم النفس، حالة ازدواج الشخصية.. لم أكن ساعتها

شخصاً واحداً.. بل كنت شخصين.. كنت عبد الله محمد على جابر
وكنت فى الوقت نفسه فاطمة السيد شفيق..

نعم يا حضرات القضاة.. كنت شخصين.. اثنين.. ولكن الجريمة
كما ثبت فى التحقيق ارتكبتها شخص واحد.. فمن الذى ارتكبتها؟
هل ارتكبتها أنا عبد الله محمد على جابر.

أم ارتكبتها أنا فاطمة السيد شفيق؟

وتحديد الشخص الذى ارتكب الجريمة، أو على الأصح تحديد
الشخص الذى كنته عندما ارتكبت الجريمة، يتوقف عليه
حكمكم.. فإن ظروف كل من الشخصين مختلفة، والدافع لكل منهما
على ارتكاب الجريمة يختلف.. والظروف والدوافع هى التى تحدد
الحكم.. قد تحكمون بالإعدام، وقد تحكمون بالحبس البسيط لمدة
ثلاثة أشهر، وقد تحكمون بالبراءة.. ولكن يجب أولاً أن تحددوا
الشخص الذى ارتكب الجريمة.. أقصد الشخص الذى كنته عندما
ارتكبت الجريمة..

يا حضرات القضاة..

أرجوكم.. طولوا بالكم على.. ولا تنظروا إلى هكذا كانى
مجنون.. إن حديثى قائم على أسس علمية صحيحة.. وقد درست
علم النفس.. قرأت فيه أكثر مما قرأ الدكاترة المتخصصون.. وقد
دفعنى إلى دراسة علم النفس هوايتى للأدب.. أنا أديب يا حضرات
القضاة.. قصاص.. صحيح أنى مغمور، لم تنشر لى الصحف شيئاً،

ولا صدر لى كتاب.. ولكن ليس معنى هذا أنى لست أرقى فى إنجاجى الأدبى، وأعمق، وأكثر تمكناً، من كثير من الأدباء والقصاصين المعروفين الذين تنتشر أسماؤهم فوق بقع سوداء كالبراطيش.. متى بدأت هوايتى للأدب.. ربما منذ ولدت، فأنا لا أعى نفسى إلا وفى يدى قلم.. إن الموهبة تورث يا حضرات القضاة.. وقد كان جدى الشيخ على جابر أديباً موهوباً، وربما ورثت عنه الأدب، كما ورث إسكندر ديماس الابن موهبته عن إسكندر ديماس الأب.. وكنت أطمع دائماً أن يكون عندنا بين الأدباء العرب «جابر الجد» و«جابر الحفيد» أى أنا. و..

حاضر يا سيادة الرئيس.. سأختصر.. ولكنى يجب أن أحدثكم عن هوايتى للأدب ولكتابة القصة حتى تصلوا إلى الحقيقة.. الحقيقة التى دفعتنى إلى الوقوف أمامكم فى قفص الاتهام.. إن هوايتى هى التى تحدد شخصيتى.. أو هى – كما يقول الأستاذ العقاد فى كتب العبقريات – مفتاح شخصيتى.. وقد حالت ظروفى دون أن أتم تعليمى.. انقطعت عن المدرسة قبل أن أحصل على الشهادة الثانوية، وحصلت على وظيفة ساع فى شركة المقاولات.. وقد أتاح لى انقطاعى عن المدرسة فرصة أكبر للتفرغ لهوايتى.. قرأت.. قرأت كثيراً.. عشرات الكتب فى الأدب، فى علم النفس، وفى التصوف، وفى العلوم، وكتبت.. كتبت كثيراً.. عشرات القصص..

وعشرات البحوث الأدبية القيمة.. إن ما كتبتة يكفى لإنشاء مكتبة
قائمة بذاتها.. مكتبة جابر..

وكانت لى دائماً قارئة وحيدة..
فاطمة..

جارتى فاطمة..

وكنت أختص فاطمة بقراءة قصصى.. لا أكاد أنتهى من قصة
حتى أشير لها من الشباك، فتأتى إلى بيتنا، وتجلس بجوار أمى
وأقرأ عليها القصة وأنا أرقب عينيها وهما تسرحان وراء أبطالى
وبطلاتى.. وأرى صدرها يتهدج كلما قرأت عليها مشهد غرام،
وأرى وجهها يتقلص فى مواقف العذاب، والضحكة تكاد تنطلق من
شفتيها فى مواقف المرح.. لقد كانت فاطمة معجبة بكل ما أكتبه،
متأثرة به.. كانت مؤمنة بى، وبأدىى.. بعبقريتى..

إلى أن أحببت فاطمة..

لم تحببى أنا..

ولكنها أحببت المجنى عليه، إبراهيم الدسوقى مرعى..

كان إبراهيم موظفًا فى مصنع النسيج الذى يعمل به فاطمة..
وقد أعجبت به فاطمة قبل أن يعجب بها.. وجاءت إلى وصارحتنى
بإعجابها وعواطفها، وآمالها.. ثم طلبت منى أن أكتب لها خطابًا
ترسله إلى إبراهيم.. ولم أتردد.. كتبت لها الخطاب ووقعته
باسمها.. فاطمة.. وكان الخطاب يا حضرات القضاة قطعة أدبية

رائعة، بلغ من قوة تأثيره أن رد عليه إبراهيم فى اليوم التالى.. إن إبراهيم أيضاً صاحب أسلوب.. إنه يستطيع أن يكتب هو الآخر.. ولكنه طبعاً لا يستطيع أن يرتقى إلى مستواى.. وقد فرحت فاطمة بخطاب إبراهيم، وطلبت منى أن أكتب له خطاباً ثانياً.. وثالثاً.. ورابعاً.. خطابات أكتبها بلسان فاطمة، وبشخصيتها، وبعواطفها، وبعينيها، وأوقفها باسمها..

يا حضرات القضاة..

هل تعلمون حال الأديب عندما يكتب بلسان فتاة، أو يعبر عن شخصية فتاة.. إنه يتقمص هذه الشخصية.. إنه يصبح وهو يكتب هذه الفتاة.. ينقلب فى داخله إلى فتاة.. ويفكر كما تفكر.. ويحس كما تحس.. ويضحك كما تضحك.. ويبكى كما تبكى.. وكلما استطاع أن يندمج فى شخصية الفتاة أكثر، تمكن من التعبير عنها أكثر.. إن الكتاب كالممثلين.. يمثلون.. يمثلون الشخصيات التى يرسمونها بأقلامهم والتى يعبرون عنها.. الممثل يمثل على المسرح.. ومسرح الأديب هو داخله.. إنه يقوم بالتمثيل داخل نفسه.

ومر عامان وأنا مندمج فى شخصية فاطمة.. أكتب كل يومين أو ثلاثة خطاباً لإبراهيم.. أبثه عواطفى، وآلامى، وأحلامى.. أقصد عواطف فاطمة وآلامها وأحلامها.. وكانت فاطمة خلال هذين العامين قد بدأت تلقى إبراهيم، وكانت تعود لتروى لى كل ما حدث بينهما.. كل التفاصيل.. وكانت فى بادئ الأمر تتردد فى أن

تروى لى كل شىء.. ولكنى أقنعتها بأنى لكى أكتب لها خطابات صادقة يجب أن أكون فى نفس حالتها.. فلم تعد تتحرج.. كل شىء ترويه.. أدق التفاصيل.. وأنا أعيش فى هذه التفاصيل.. أحس بلمسات أصابع إبراهيم.. وأحس بقبلاته.. وأسمع كلماته.. أحس بكل ذلك كما تحس به فاطمة.. لقد أصبحت أنا فاطمة يا حضرات القضاة.. أصبحت فاطمة كاملة.. لم أكن أفيق من شخصية فاطمة إلا عندما أذهب إلى عملى فى الصباح.. ثم لا أكاد أعود إلى البيت حتى أصبح فاطمة.. أعيش فى قصة حبى لإبراهيم.. اقرأ خطاباتى.. وأكتب له خطابات.. وقد أصبحت أكتب لإبراهيم دون أن تطلب منى فاطمة أن أكتب له.. بل أصبحت أرسل له الخطابات دون أن تقرأها فاطمة..

إلى أن استسلمت فاطمة لإغراء إبراهيم..
أصبحت امرأة..

وجاءت تروى لى كل التفاصيل..

وأحسست بكل ضعف فاطمة، وكل خلجات عواطفها التى دفعتها إلى الاستسلام.. وعشت كما تعيش فى الأمل الكبير.. الأمل فى أن يتزوجنى إبراهيم.. أقصد يتزوج فاطمة.. وأصبحت خطاباتى له تنبض بهذا الأمل.. خطابات فيها ضعف.. ضعف لحظة الاستسلام.. وفيها رجاء.. وفيها توسل.. وفيها استكانة وذل لجبروت إبراهيم بعد أن بدأ يتمرد..

وخطابات إبراهيم تبرد وتتباعد.

وتزداد بروداً وتباعداً..

إلى أن تحرك الجنين فى أحشاء فاطمة.. وفى أحشائي أنا أيضاً..
وأحسست بكل آلام فاطمة.. آلام مريعة.. وكل ضياعها.. ضياع فى
دوامة هائلة مخيفة..

ولم يعد إبراهيم يكتب إلى..

عشرات الخطابات كتبتها إليه، ولم يرد على.. خطابات فيها
توسل.. استغاثة.. وفيها تهديد.. توعد..
ولكن التوسل لم يحنن قلبه..

والتهديد لم يخفه..

وبدأ يهرب من لقائى.. أقصد لقاء فاطمة..

إلى أن جاءت إلى فاطمة يوماً وهى كالمجنونة.. لقد خطب
إبراهيم فتاة أخرى..
وانهارت فاطمة..
وانهرت معها.

لم تعد المشكلة بالنسبة لى مشكلة شخص آخر..

لم تعد فاطمة فى هذه اللحظة شخصية أخرى..

أنا فاطمة..

وأنا الذى خدعت.. وأنا الذى يتحرك الجنين فى أحشائي.. وأنا
الذى هجرنى إبراهيم للضياع، والعذاب، والتشرد.. وجلست أكتب

له خطابى الأخير.. لم يكن عبد الله هو الذى يكتب، ولكنها كانت فاطمة بكل آلامها وتمزقها لنفسى.. وكان خطاباً رائعاً.. قطعة من الأدب العاطفى تستحق أن أنال عليها جائزة الدولة.. ولم يرد إبراهيم..

والغیظ یفرینى.. والحدق یمزقنى.. والرغبة فى الثأر تستبد.. و.. ولم أكن فى حاجة إلى أن أسأل فاطمة عن أحاسيسها حتى أحس بما تحس، لقد أصبحت أنا فاطمة.. ودون أن أناقش فاطمة الحقيقية، بدأت أعد للجريمة.. إن فاطمة الحقيقية یا حضرات القضاة لا تعلم شيئاً عن هذه الجريمة، ولم تشترك فى تدبيرها.. ولكن التى دبرتها هى فاطمة الأخرى.. فاطمة التى تعيش فى داخلى..

وقد اشتریت زجاجة ماء النار الكاوية.. وأرجو أن تضعوا فى حسابكم أن التفكير فى تشويه وجه المجنى علیه لا یمکن أن یمکن أن یمکن أن یقرر تشويه وجه غريمه، ولكنه تفكير امرأة.. فلم يكن عبد الله هو الذى يفكر، ولكنها كانت فاطمة..

وحملت الزجاجة فى جيبى، وذهبت إلى إبراهيم فى بيته.. وحادثته فى موضوع فاطمة، وحاول أولاً أن ينكر علاقته بها.. ولكنه فوجئ بالتفاصيل الكثيرة التى ذكرتها له.. كأنى كنت معهما فى كل لقاء، وفى كل لحظة، وفى كل خطاب.. لقد كنت معهما فعلاً.. بل كنت أنا فاطمة.. وحاولت كثيراً أن أقنع إبراهيم

بأن يصون وعده لى.. أن يتزوجنى.. حرام عليك يا إبراهيم.. ما
تسببنيش كده يا إبراهيم.. خاف من ربنا يا إبراهيم.. ارحم ابنك
اللى فى بطنى يا إبراهيم.. وكنت أتنبه أحياناً بأنى أحدث إبراهيم
بلسان فاطمة.. كانى امرأة.. فأحاول أن أتخلص من شخصية فاطمة،
وأحدثه كعبد الله.. رجل لرجل.. ولكنى لا ألبث أن أعود وأتحدث
كفاطمة.. حرام عليك يا إبراهيم.. ما تسببنيش كده يا إبراهيم..
خاف من ربنا يا إبراهيم..

وربما ظننى إبراهيم مجنوناً، فبدأ يدفعنى خارج الغرفة.. بدأ
يدفعنى فى عنف.. ولم أحتمل عنفه.. فرفعت الشمعدان النحاسى،
الذى كان قريباً من يدى وضربته به على رأسه.. وسقطت تحت قدمى..
فانهلت عليه ضرباً، إلى أن سكت عن الحركة.. ثم أخرجت ماء
النار وسكبته على وجهه، ووقفت أرقبه..

أتدرون ماذا كان إحساسى فى هذه اللحظة يا حضرات القضاة..
أحسست بالدهشة..

نعم دهشت.. فقد أفقت فى هذه اللحظة من الشخصية الأخرى،
وعدت إلى شخصيتى الحقيقية.. أصبحت عبد الله.. وعبد الله لا يريد
أن يقتل إبراهيم، ولم يفكر فى تدبير الجريمة.. ولكنها فاطمة..
فاطمة هى التى دبرت، وهى التى قتلت..
يا حضرات القضاة..

إن وكيل النيابة يقول إنى قتلت إبراهيم بدافع الغيرة، لأنى كنت أحب فاطمة..

لا.. لم أكن أحب فاطمة.. كيف أحبها وأنا الذى كنت أكتب خطاباتنا لإبراهيم.. لا.. لم أحب فاطمة..
كنت أنا فاطمة..

فاطمة التى تعيش فى داخلى هى التى قتلت إبراهيم.. وفاطمة لديها أسباب مخففة.. القانون لا يمكن أن يحكم بإعدام فاطمة، ولا العدالة..

وعدالتكم تأبى أيضاً أن تحكموا بإعدام عبد الله، لأن عبد الله لم يرتكب الجريمة.. عبد الله لم يقتل، وليس لديه دافع لقتل إبراهيم مرعى الدسوقى.. والدافع شرط أساسى لتوفر أركان الجريمة..
وأنا واثق من عدالتكم..
وعذراً إن كنت قد أطلت عليكم.

كل هذا الجمال

أنا هذه السيدة التي يعرف كل الناس أنها ليست جميلة..
وأقول: «ليست جميلة» لأنى لا أستطيع أن أقول «قبيحة» أو
«دميمة» أو أى وصف آخر من هذه الأوصاف المباشرة القاسية التي
يمكن أن يصفنى بها الناس..

الناس تتساءل دائماً: كيف استطعت أن أحتفظ بزوجى كل هذه
السنين برغم أنى لست جميلة؟

وزوجى رجل وسيم، أنيق، ناجح، رائع، إنه حلم.. تحلم به
أجمل الجميلات.. فكيف استطعت أن أحتفظ به.. أنا.. أنا التي
ليست جميلة..

بعض الناس يعتقد أنى احتفظت به بذكائى.. وعندما يصفوننى
بالذكاء، لا يقصدون الذكاء الطيب الحلو، بل يقصدون الذكاء الشرير
الخبيث.. الذكاء الذى استطاع أن يسجن هذا الرجل الرائع داخل
سجن له عظام بارزة مدببة كالشوك وله جلد أزرق مكرمش، وله
وجه تعيس ليس فيه خط واحد من خطوط الجمال..

وبعض الناس يعتقد أنى أحتفظ بزوجى عن طريق إثارة إحساسه
بالمسئولية نحو أولادنا الخمسة.. كأنى كنت أقصد أن أحمل وأن
ألد لا لشيء إلا لأزيد عدد الحبال التي تربطه بى، وتقيده إلى..

وبعض الناس يعتقد أن زوجى رجل طيب، وأنه احتفظ بى بداعى الشفقة.. الغلبانة.. المسكينة.. الوحشة.. إنه لا يستطيع أن يلقبها فى الشارع.. لن تجد رجلا آخر يأويها.. فاحتفظ بها.. شفقة عليها، وتقرباً لله..

و.. كلام كثير يقوله الناس، ولكن لا أحد منهم استطاع أن يتصور قسوة العذاب الذى احتمله حتى أحتفظ بزوجى.. عذاب كل يوم.. عذاب كل ساعة.. عذاب كل دقيقة.. فأنا أعلم - قبل أن يعلم الناس - أنى لست جميلة.. وأرى نفسى أكثر مما يرانى الناس.. وأكره نفسى.. أكره هذا الجسد النحيل الذى يلتصق جلده فوق عظامه.. وأكره لونى الغامق الذى يميل أحياناً إلى اللون الأزرق وأحياناً إلى اللون الأخضر.. وأكره أنفى.. وأكره شفتى.. حتى رموش عيني أكرهها.. وأنا أعلم أن المرأة لا يمكن أن تكون مجرد رفيقة حياة.. ولا مجرد صديق.. ولكنها يجب أن تكون شيئاً جميلاً فى حياة الرجل.. يتزين بها.. ويتباهى بها أمام أصدقائه.. وأنا لست جميلة.. لا يستطيع زوجى أن يتزين بى، ولا أن يتباهى بى.. ولذلك حاولت ألا أتزوجه.. حاولت.. حاولت كثيراً.. حاولت لأنى كنت أحبه، ولم أكن أريد له زوجة ليست جميلة مثلى.. إنه ابن خالتى.. وعلى عادة العائلات القديمة تقرر زواجنا منذ ولدنا.. وربما ولدت وأنا أعد نفسى له.. ومنذ بدأت أرى نفسى فى المرأة وأنا أعرف أنى لست جميلة.. ولكنى كنت دائماً أتعلق بأمل

كبير أن شيئاً ما سيحدث لى أصبح بعده جميلة.. وكل صباح أطل
فى المرأة لعل هذا الشىء يحدث.. ولكنه لم يحدث أبداً..
وأطل فى عيني حسن فأحترار فيهما.. هلى يرانى كابنة خالته،
أو يرانى كحبيبته وخطيبته وزوجة مستقبليه.. إنه مرح دائماً..
رقيق.. حتى هذه الأوامر الصغيرة التى يلقيها على بين الحين
والحين.. ما تخرجيش.. ما تلبسيش الفستان ده.. و.. و.. قد تكون
أوامر رجل يحب ويغار على حبيبته، وقد تكون أيضاً أوامر أخ،
أو ابن خاله..

وحيرتى تكبر مع عمرى.. إنى لا أستطيع أبداً أن أعرف إذا
كنت حبيبته أم ابنة خالته.. ولم يكن بيننا هذه المواقف العاطفية
التى قد تساعدنى على الخروج من حيرتى.. لا كلمات حب.. ولا
قبلات.. ولا خلوات.. إنه دائماً فى بيتنا، وأنا دائماً بين أفراد
عائلتنا.. ودائماً قد أكون بالنسبة له ابنة خالته، وقد أكون حبيبته.
وحبى يكبر مع حيرتى.. إنى أحبه.. إنه بالنسبة لى ليس ابن
خالتى، إنه حبيبى.. إنه خفقات قلبى.. إنه دنياى.. لست حائرة
فى حبى له، ولكنى حائرة فى حبه لى..

والتردد والشك يمزقنى.. هل يمكن أن يحبنى.. هل يمكن أن
يحب هذه الفتاة الدميمة.. هل يمكن أن يتزوجها.. وإذا تزوجها،
فهل تزوجها لأنه يريد لها أو لأنه مسئول عنها.. ولأنه يشفق
عليها.. ولأنه تورط فى زواجها..

وبدأ الشك يغلبني..

وبدأت أفكر فى الهروب من هذا الزواج، لا لأنى لا أريده، ولكن لأنى لا أريد له أن يتزوج فتاة مثلى.. ليست جميلة.. إلى أن بلغت الثامنة عشرة من عمري، وبدأت العائلة تتفاوض لتحديد يوم الزواج.. وفجأة وجدت نفسى أصرخ:
- مش عايزه أتجوز.

وبهت كل من فى العائلة.. كان زواجنا حقيقة بدهية بين أفراد العائلة، منذ ولدنا، إلى حد أن تركت صرختى أثرًا كانفجار القنبلة الذرية..

وحاولوا معى كل الوسائل..

وحاولوا إقناعى بالرفق.. وحاولوا إجبارى بالتهديد.. ولكنى استعنت بكل عنادى، وأصررت على موقفى، وكانت حجتى أنى أريد أن أتم تعليمى الجامعى، ثم أبحث عن عمل.. إلى أن دخل حسن إلى غرفتى ذات يوم، وأنا ما زلت بقميص النوم.. ووقف أمامى وفى عينيه نظرة حازمة غاضبة، وصرخ فى وجهى:

- اسمعى.. أنا مش عايز دلع.. حانتجوز يعنى حانتجوز..
وحانتجوز الخميس الجاى.. مش عايز اسمع كلام بعد كده..
وهم أن يتركنى ويخرج من الغرفة، ولحقت به، ورفعت إليه عينين خائفتين متوسلتين، وقلت:

- حسن.. إنت صحيح عايز تتجوزنى؟

ونظر إلى كاتنى مجنونة وقال:

- أمال يعنى عايز إيه؟

وعدت أقول وعينى فيهما هذا الخوف والتوسل:

- إنت متأكد يا حسن.. متأكد انك عايز تتجوزنى..

ونظر إلى حسن نظرة ملؤها الحنان.. ثم جذبني إليه وضمني

إلى صدره فى رفق، وقال وهو يربت على كتفى:

- متأكد يا سعاد.. ما تبقيش عبيطة..

وكانت هذه أول لحظة حنان يمنحها لى حسن.

وعندما تركنى يومها قررت أن أتزوجه..

وقررت أيضاً أن أحتفظ به كزوج.. مهما كلفنى الاحتفاظ به..

كيف؟

كيف أحتفظ به والدنيا تزدهم بالجميلات، وأنا لست جميلة..

وخيل إلى أن الوسيلة الوحيدة للاحتفاظ به هى أن أجمع كل

حياته فى يدي.. كل حياته.. أدق التفاصيل، وأكبر التفاصيل..

واستطعت בזكائى أن أحقق كل ذلك.. أصبحت حياة حسن بين

يدي، أنا التى أديرها، وأنا التى أشرف عليها.. أنا التى أشتري

له ثيابه وأعداه له.. وأنا التى تختار له أصدقاءه وتجمعهم به أو

تفضهم من حوله.. أنا ذاكرته فى عمله.. وأنا البنك الذى يحتفظ

فيه برصيده.. وأنا.. وأنا.. لقد أصبح حسن طفلاً لا يستطيع أن

يتحرك بعيداً عن أمه.. وأنا أمه.. التي تصنع له دنياه.. وقد صنعت له دنيا ضيقة ليس فيها ولا امرأة جميلة..

ولكن الجميلات لسن في المجتمع فقط.. إنهن في المجلات، وفي السينما، وفي التلفزيون.. وأطل في مرآتي فأرى وجهي ليس جميلاً. وأرى جسدي وقد التصق جلده فوق عظامه.. وألتفت فأجد «حسن» يبخلق في صورة امرأة جميلة منشورة في مجلة، أو يبخلق في وجه امرأة تطل من شاشة التلفزيون، فتنتابني موجة قاسية من الخوف.. أخاف.. أخاف على حسن.. إن كل دقيقة من عمري دقيقة خوف.

وأنجبنا بنتنا فايذة..

ثم ابننا زياداً..

وعندما حملت في خالد قررت أن أتخلص من الحمل.. لقد بدأت أحس بأنى قد لا أكون صادقة مع نفسي وأنا ألد هؤلاء الأولاد.. خطر لي مثلما خطر للناس الذين يتحدثون عني، من أنى ألد لا حباً في الأطفال، ولكن لأقيد بهم حسن إلى.. وحاولت فعلاً أن أتخلص من حمل خالد.. وثأر حسن.. إنه يريد.. ويريد أن يملأ البيت بكثير من أولاده وبناته.

ولكن هذه الفكرة التي سيطرت على جعلتني شبه مجنونة.. فعدت أحاول أن أتخلص من حملي دون علم حسن.. ولكنى لم أفلح.. وجاء خالد..

والخوف يستبد بي..

ليس الخوف وحده، إنما بدأ الإحساس بأنى أحرم «حسن» من حقه فى الجمال.. حقه فى أن تكون له امرأة جميلة، يتمتع بها، ويتزين بها، ويتباهى بها..

والخوف يكبر..

والإحساس بأنى جنيت على حسن يكبر..

إنى امرأة معقدة..

عقدتى تمزقنى..

ويمزقنى أكثر محاولة أن أخفى عقدتى عن حسن، أن أبذو أمامه دائماً كامرأة طبيعية..

ثم لم أعد أحتمل كل هذا العذاب.

يئست من محاولتى الاستمرار فى كل هذه المعاناة..

وفى يوم قررت أن أغير كل هذه الحياة..

قررت أن أفرج عن حسن.. أن أطلق سراحه من هذه الدنيا

الضيقة.. من هذا السجن الدميم..

وبسرعة فتحت كل الأبواب على الدنيا الواسعة.. بدأت أتعرف

على المجتمعات التى تضم أجمل نساء مصر.. كل ليلة فى حفلة..

وعيناي لا تطرفان عن حسن.

إنه يبدو مبهوراً بالدنيا الجديدة التى فتحتها له.. يبدو كالطفل

وهو يتفرج على الصواريخ الملونة.. وقد نجحت شخصيته بين

النساء.. وسامته، أناقته، نجاحه، رفته.. ويلتفنن حوله، يأكلنه بأعينهن، ثم يلتفتن إلى ويتهامسن.. وأنا أرقب حسن.. أرقب كل نظرة فى عينيه، وكل التواءة بين شفتيه، وكل كلمة يقولها، مهما بعدت عنه لا يفوتنى منه شىء.. وأكاد أسمع همسات الجميلات عندما ينظرن إلى.. أسمعها بخيالى.. إنهن يتهامسن بأنى وحشة، قبيحة، ويتساءلن كيف استطعت أن أتزوج هذا الرجل الرائع، وكيف استطعت أن أحتفظ به.

ونعود إلى البيت كل ليلة.. وحسن سعيد.. فى منتهى السعادة.. وأنا أكتم عنه عذابى ويأسى.
إلى أن تعرفنا بناهد.

إن ناهد مطلقة شابة، شقراء، جميلة، رائعة الجمال.. أنا نفسى بهرنى جمالها عندما التقيت بها لأول مرة.
وبهرت «حسن»..

ومنذ اللحظة الأولى عرفت أن «ناهد» قد أخذت من اهتمام حسن أكثر مما أخذت منه أى امرأة أخرى.. ولاحظت أنهما بسرعة.. فى ساعة واحدة.. أصبحا أصدقاء، إنهما يتحادثان فى بساطة وجرأة، ويتضحكان كأنهما عاشا العمر كله معاً.

وفى هذه الليلة.. الليلة الأولى التى التقينا فيها بناهد.. قررت أن أترك لها «حسن» ليتزوجها.

لم أتركه لها مرة واحدة.. ولكنى تعمدت أولاً أن أصادقها..

أصبحت أقرب الصديقات إلى.. نتحدث كل صباح فى التليفون،
ونخرج معًا لنطوف بالمحال.. ودائمًا معًا على العشاء أو الغداء..
فى بيتى، أو فى بيتها، أو مدعوين عند بعض الأصدقاء.. وحسن
دائمًا معنا، ثم بدأت خطوة أخرى.. بدأت أدعوها إلى الشاي أو
العشاء، وقبل أن تصل أخرج من البيت وأنا أقول لحسن:
- ناهد جاية دلوقتى.. اقعد معاها لغاية ما أرجع...
مش حاغيب.

ويأخذ حسن الأمر ببساطة..

وكنت بذلك أتعمد أن أدفعه إليها أكثر.. كنت أريده أن يصل
إلى القرار الذى اتخذته أنا، أى أن يتزوجها.. وكنت أتركهما
وحدهما فى البيت، وأخرج أجوب على قدمى ساعة أو ساعتين،
وأنا أحس بأنى شهيدة.. شهيدة تضحى بنفسها من أجل إسعاد
الرجل الذى تحبه.. إن هذا الإحساس.. الإحساس بأنى شهيدة..
يريحنى من عقدى بأنى دميمة.. يربط أعصابى.. يملؤنى اعتزازًا
بنفسى وبقوتى.. ثم كنت أعود إلى البيت لأجدهما.. «حسن»
و«ناهد» جالسين أمام التليفزيون.. أو يسمعان شرائط أم كلثوم..
وأبدو أمامهما مرحة وفى داخلى هذا الإحساس الطاغى الحلو
بأنى شهيدة.

إلى أن كان يوم..

وخرجت من البيت وتركت «حسن» وحده.. وعدت بعد ساعتين
أسأله:

– محدّش ضرب تليفون؟

وقال حسن فى بساطة:

– ناهد اتكلمت، وقعدت ترغى معايا ساعتين.

وجلست قبالتة وأنا أبتسم له ابتسامة حزينة.. ابتسامة

الشهيد.. وقلت فى صوت هادئ أسيطر عليه بكل إرادتى:

– حسن.. إنت لازم تاخذ قرار فى الموضوع ده..

ونظر إلى فى دهشة، وقال:

– موضوع إيه؟

قلت وأنا مسيطرة على كل عصب من أعصابى:

– موضوعنا أنا وانت وناهد.. اسمع.. أنا مستعدة لكل حاجة،

إذا حبيت تخلىنى أربى العيال وتاخذ أنت وناهد بيت تانى.. ما

عنديش مانع.. إذا حبيت تطلق أنا..

وصرخ حسن فى وجهى:

– إيه الكلام اللي بتقوليه ده.. إنتى اتجننتى يا ست انتى..

قلت فى هدوء دون أن أهتز:

– أنا عارفة إن ناهد حلوه..

وصرخ حسن:

– وانا مالى إذا كانت حلوه.. هى بتاعتى..

قلت:

- حَتَّبَقِي بِتَاعَتِكَ .. اَتَجُوزُهَا .

وَصَرَخَ حَسَنٌ بِأَعْلَى صَوْتِهِ :

- إِنْتِي بِتَخْرَفِي بِتَقُولِي إِيَّاهُ .. إِيَّاهُ الَّتِي حَصَلَ فِي مَخْكَ ..

قَلَّتْ وَأَنَا مَا زَلْتُ هَادئةً :

- إِنْتِ لَازِمٌ تَتَجُوزُ وَاحِدَهُ حَلْوَهُ .. حَرَامٌ ..

وَعَادَ حَسَنٌ يَصْرُخُ كَأَنَّهُ جَنَّ :

- وَاتَجُوزُ وَاحِدَهُ حَلْوَهُ لِيَهُ .. مَا فِيهِ أَلْفٌ وَاحِدَهُ حَلْوَهُ ،

مَا اَتَجُوزُهُمْ كُلَّهُمْ .. إِشْمَعْنِي نَاهِدٌ .. مَا خَدِيغَهُ حَلْوَهُ ..

وَفِيْفِي حَلْوَهُ .. وَخَيْرِيَهُ حَلْوَهُ .. وَ .

وَقَلَّتْ وَقَدْ بَدَأَ هَدُوئِي يَهْتَزُّ :

- حَرَامٌ أَنْتِ تَقْعُدُ طَوْلَ عَمْرِكَ مَتَجُوزُ وَاحِدَهُ وَحِشَهُ زَيْبِي ..

وَسَكَتَ حَسَنٌ فَجأةً .. وَنَظَرَ إِلَى طَوِيلًا .. ثُمَّ قَالَ فِي صَوْتٍ هَادئٍ

عَمِيقٍ :

- أَنَا مَعْرِفَشِ إِنْكَ وَحِشَهُ يَا سَعَادٌ .. أَنَا أَعْرِفُ إِنْبِي بِحَبْكَ

وَبِكَيْتٍ ..

صَدَقُونِي أَنِّي لَا أَبْذُلُ مَجْهُودًا لِلاَحْتِفَافِ بِزَوْجِي .. أَعْنِي أَنِّي لَا

أَتَعْمَدُ أَنْ أَبْذُلَ مَجْهُودًا خَاصًّا أَكْثَرَ مِمَّا تَبْذُلُهُ أَيُّ زَوْجَةٍ فَاضِلَةٌ .

وَإِنِّي أُوْمِنُ الْآنَ بِأَنْ لَيْسَ هُنَاكَ زَوْجَةٌ جَمِيلَةٌ ، وَزَوْجَةٌ لَيْسَتْ

جَمِيلَةٌ .. وَلَا زَوْجَةٌ نَكِيَّةٌ .. وَزَوْجَةٌ غَيْبِيَّةٌ .. وَلَكِنْ هُنَاكَ زَوْجَةٌ

يحبها زوجها، وزوجة لا يحبها زوجها.. وعندما يوجد الحب
يوجد معه الجمال والذكاء.. يوجد ما يكفي للاحتفاظ بالزوج مدى
الحياة..

وزوجى يحبني..

وحولنا كثيرات من النساء الجميلات.. وأنا بينهن قوية.. لم
أعد معقدة.. إنى قوية.. أقوى منهن جميعاً.. واثقة من نفسى..
لأنى واثقة من حب حسن.

اكتشاف الألومنيوم

عاد جمعة عبد الصمد إلى القرية وهو يرفل فى جلاب حريرى، وفى قدميه حذاء أصفر لامع، وعلى رأسه طاقة شبيكة تميل فوق حاجبه.. ويوسع فى خطاه فيخشخش طرف جلابه بين ساقيه، وكأنه يهمس «اسكت ما اسكتش».. وفى ذراعه سبت كبير من الخوص محمل بالهدايا.. معظمها هدايا لخطيبته بهية، ولأمه، وحماته فى المستقبل، وهدايا صغيرة لأبيه وإخوته وأولاد عمومته.. وفى عينيه نظرة فرحة لا تخلو من التعالى الساذج والغرور الطيب.. ويتلفت حوالبه فى كل شىء كما تركه منذ عشر سنوات.. أو أن خياله أبى أن يعترف أن شيئاً يمكن أن يتغير فى القرية وهو بعيد عنها.. فلم يلمح مبنى الوحدة المجمع الذى أقيم خارج القرية.. ولم يلمح ظلمة المياه.. لم يلمح أى جديد.. عيناه ممتلئتان بصورة القرية كما تركها منذ عشر سنوات.. الساقية العتيقة فى مكانها، ولا تزال تدور، وخيل إليه أن الثور الذى يدور بها هو نفس الثور.. وزرعة القطن هى التى تركها فى الغيط.. وقبة الشيخ العتر.. والطرق المعفرة التى تكسوها طبقة من التراب الأبيض الناعم.. والمصرف.. وشجرة الجميز..

ومنذ عشر سنوات ترك جمعة القرية، وانتقل ليعيش مع عمه فى البندر.. وكان عمه طباحًا فى سراى المحافظ.. وقد تغير المحافظون ولكن عمه لم يتغير.. ظل طباحًا فى السراى، منذ كان المحافظ «باشا» قبل الثورة، إلى أن شهد محافظين، يأكلون الملوخية بأصابعهم كالفلحين.. واشتغل جمعة مع عمه.. فى المطبخ.. وعاش يسمع ترحم عمه على أيام زمان، عندما كان يطبخ كل يوم خروفًا وعشرة أصناف من الطعام.. ولم يتأثر جمعة بأيام زمان ولا انصرف إليها خياله، فقد كان كل همه أن يتعلم من عمه فنون الطهو.. وصاح فيه عمه وهو يرقب تلهفه على تلقى أسرار المهنة:

- يا ابنى هو فيه حد بيطبخ الأيام دى.. دول كلهم صنفين تعملهم أمك وهى مغضمة..

وبرغم ذلك تعلم جمعة طهو أصناف من الطعام لا تعرفها أمه، ولا تذوقها فى بيته.. تعلم كيفية عمل اللحمة الرستو، والحمام الكولباست والسمك الميونيز.. و.. و.. وعندما مرض عمه تولى مكانه.. ولم يشكُ البيه المحافظ.. بل أشاد بمهارة جمعة.. ثم.. مات العم.. وأصبح جمعة هو طباح السراى..

وفكر جمعة فى الزواج.. وكان تفكيره محصورًا فى الزواج من إحدى بنات البندر، فهو قد تغير، لم يعد من أبناء القرية.. إنه أحد أبناء البندر.. يلبس الجلابيب الصوف والحريير، وأحيانًا يلبس القميص والبنطلون، ويجلس فى قهوة المحطة، مع أصدقاء كلهم

أفندية. ويقرأ الأهرام كل مساء.. يقرؤه بصعوبة.. ولكنه يقرؤه..
لقد تغير كثيراً، ولم تعد تصلح له إلا إحدى بنات البندر. وبرغم
ذلك تردد.. تردد طويلاً.. لا يدري لماذا.. إن تفكيره فى الزواج
ينقصه الاندفاع.. كان يفكر فى الزواج وهو جالس فى المقهى.. أو
وهو جالس فى غرفته يتحدث مع جيرانه.. ولكنه لا يكاد يتحرك
من مجلسه حتى ينسى موضوع الزواج..

إلى أن جاء إلى البندر مدبولى عبد الرحمن ليجرى عملية
جراحية فى المستشفى الأميرى.. وعم مدبولى يملك ثلاثة أفدنة
فى القرية.. وكان بينه وبين والد جمعة - حميدة عبد الصمد - الذى
يملك فدانين فى نفس الحوض، حزازات قديمة، ومشاحنات كانت
تتسع حتى تخرج العائلتان لتواجه إحداهما الأخرى فى معارك
عنيفة، ولكنها كانت كلها معارك بيضاء قد يسقط فيها جرحى،
ولكن لم يحدث أن سقط فيها قتيل.. وقد هدأت هذه الحزازات مع
الزمن، وبعد أن استقر العرف الذى يحكم مياه الري بين أرض عم
مدبولى، وأرض عم عبد الصمد.. وأصبحت العائلتان على علاقة
طيبة وإن ظلت كل منهما محتفظة بشخصيتها وبكيان زعامتها..

وقد أرسل عم عبد الصمد إلى ولده جمعة يخبره بوصول عم
مدبولى إلى البندر لإجراء عملية فى المستشفى.. وأوصاه بأن يزوره
ويرعى شئونهم.. وكان عم عبد الصمد يبدو فى خطابه سعيداً معتزلاً
بابنه الذى يقيم فى البندر والذى طلب منه مدبولى أن يوصيه

عليه.. وفرح جمعة أيضًا وازداد اعتزازًا بنفسه وهو يشعر أنه سفير القرية في البندر والمسئول عن شئون رعاياها.. وذهب لتوه لزيارة عم مدبولي.. وهناك التقى بابنته بهية.. ولم يصدق أن هذه هي بهية.. والله البت كبرت.. ونظر في عينيها، تطلان عليه من فوق الشال الذي تلفه حول طرف أنفها في حياء وخفر، وأحس أنه وجد بيته في هاتين العينين.. قرر منذ اللحظة الأولى أن يتزوجها. وفاض جمعة بكرمه على عم مدبولي وبهية، واستعمل نفوذ المحافظ، ونقل عم مدبولي إلى سرير في الدرجة الثانية، وخصص بجانبه سرير آخر لابنته التي تقوم على خدمته.. وهو دائمًا معهما.. عم مدبولي راقد في سريره، وهو مع بهية يحدثها عن حياته في البندر، ويبهرها بحكاياته، ولم يكن يحدثها عن فنون الطهو.. إن الطهو هو عمله، وليس من شيمة الرجل أن يحدث المرأة في شئون عمله.. وبهية تنظر إليه وفي عينيها أمل كبير.. أمل لم يكن تعتقد أنه قد يتحقق.. إن جمعة يبدو أمامها إنسانًا كبيرًا من عالم بعيد، لا يمكن أن تصل إليه، ولا أن يصل إليها.. وبرغم ذلك فالأمل لا يريد أن يخبو، وعيناها تزدادان قربًا من عينيه.. وكما رأى في عينيها صورة بيته، رأت في عينيه بيتها..

وما كاد عم مدبولي يعود إلى القرية بعد شفائه ومعه ابنته، حتى أرسل جمعة خطابًا مستعجلًا إلى أبيه يطلب منه أن يخطب له بهية، وأن يتفق نيابة عنه على كل التفاصيل..

وعاد جمعة إلى القرية بعد عشر سنوات ليعقد قرانه على
بهية..

ورحبت به القرية.. وذبح أبوه خروفين أمام ضريح الشيخ العتر
احتفالا بعودة ابنه..

وجلس جمعة مع بهية يحدثها وقال فى سخط:
- ومنكتبش الخميس الجاى ليه.. ايه لُزْمة اللكاعة دى..
وقالت بهية وهى تنظر إليه بعينين متوسلتين حتى لا يغضب.
- أصل لسه النحاس..

ونظر إليها جمعة بعينيه الساخطين وقال:
- نحاس إيه..

قالت:

- النحاس.. الحلل، والطشت.. أبويا بيقول إن الحلة اللى أد
الكوز بقت بأربعة (جنيه)..
وقال جمعة:

- ومين قال له إن احنا عايزين نحاس..

ونظرت إليه بهية فى دهشة وقالت:

- نتجوز من غير نحاس يا جمعة..

وصرخ جمعة:

- نحاس إيه يا بت.. النحاس ده بطل من زمان..

وقالت بهية ودهشتها تشتد:

– أمال الناس بتطبخ وتغسل فى إيه بأه..
وقال جمعة وهو يبتسم فى وجهها ابتسامة ساخرة.

– فى الألومنيوم..

قالت بهية..

– فى إيه؟

وقال جمعة وهو ويضغط على مخارج ألفاظه.

– الألومنيوم..

وقالت بهية وهى تمصمص شفيتها تعجباً

– وإيه بأه الألومنيوم ده..

قال جمعة:

– ده أحسن من النحاس.. أخف، وأرخص، وعمره ما يجنزر..

مش عايز تببيض ووجع قلب زى النحاس..

ونظرت إليه بهية كأنها تنظر إلى مجنون، وعادت تقول:

– نتجوز من غير نحاس يا جمعه.. نحاس أحمر.. البلد تقول

علينا إيه؟..

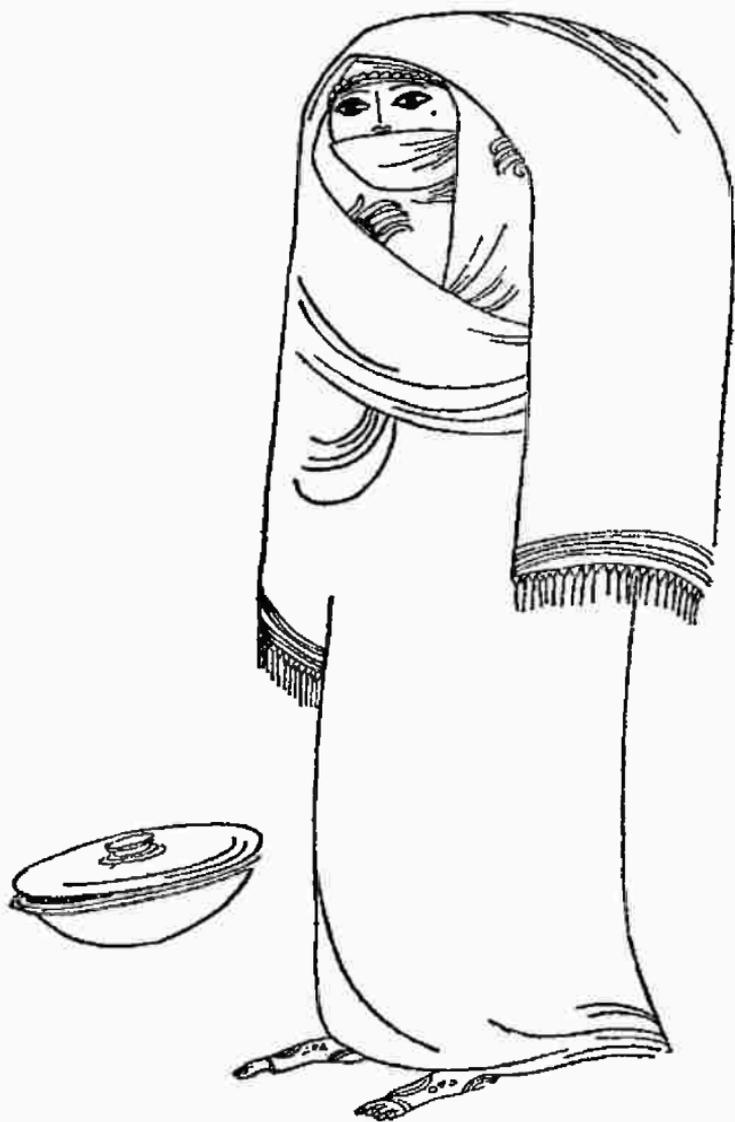
وصرخ جمعة:

– يا بت اتنورى بأه.. ما حدس دلوقتي بيحيب نحاس.. دى

سراية البيه المحافظ كلها مفيهاش حته نحاس واحده.. كله

ألومنيوم.

وقالت بهية كأنها لم تسمعه:



- نحاس احمر أفرح بيه..

وعاد جمعة يصرخ:

- ومتفرحيش بألومنيوم أبيض ليه.. اسمعى يا بهيه.. كلمه واحده.. أنا مش عايز نحاس فى بيتى.. ولو أبوكى جاب نحاس حابيه واشترى ألومنيوم..

وردت بهية والدموع تنبثق من عينيها:

- أتجوز من غير نحاس يا جمعه.. أنا اتجوز من غير نحاس.. ويخلصك برضه يا جمعه..

ثم فزعت من جانبه وجرت إلى أمها تسبقها دموعها..

فى صباح اليوم التالى دخلت أم بهية على أم جمعة، وجلست بجانبها وقالت:

- إيه يا ست أم جمعه الحكايه.. يعنى إيه سى جمعه مش عايز نحاس.. إحنا كنا اشتكيننا ولا قصرنا.. النحاس حيبجى لو دفعنا بدل الجنيه ألف..

وقالت أم جمعة..

- يا اختى ما حدش قال كده.. بس أصل ابنى جمعه متنور وعایش طول عمره فى البندر.. وبرضه يفهم أحسن منا يا فلاحين..
وقالت أم بهية:

– ودى عايظه فهم.. هو فيه جوازه من غير نحاس..
وقالت أم جمعة:

– أصل سى جمعه بيقول النحاس بطل.. والناس بتطبخ وبتغسل
فى حاجه مش عارفه اسمها إيه كده.
وقالت أم بهية:

– بأه فى نمتك يوم متجوزى بنتك فردوس، ترضى تجوزيها
من غير نحاس..
وقالت أم جمعة:

– والنبى لو بنتى لقت راجل زى ابنى جمعه لامشى كلامه
عليها وعلينا وعلى البلد كلها.. الرك ياختى عالراجل..
وقالت أم بهية:

– والراجل يبهدلنا فى وسط البلد.. وده كلام تقوليه برضه..
والله بنتى ما تتجوز من غير نحاس أبداً.. نحاس أحمر ومللع..
واللى مش عايظ نحاس ميتجوزش بنتى..
وقالت أم جمعة وهى تصرخ:

– لا يا ام بهية.. ما تغلطي.. اللى مش عايظنا مش عايظينه
ده ابنى كانت بتجورى وراه كل بنات البندر.. غيرش انه ابن أصل
وحب يأخذ من بلده.

وقالت أم بهية وهى تصرخ هى الأخرى:

– والله يا اختى ضفر بنتى بكل بنات البندر.. هو حد كان شده
من قفاه وقاله تعالى اتجوز من عندنا.. وعلى إيه.. ما بلاش..
بلاش خالص.. بلاش نحاس وبلاش جواز..
وقامت من جانبها تدب الأرض بقدمها الثقيلة..

وفى المساء اجتمع عم مدبولى ، وعم عبد الصمد ، والشيخ يحيى
إمام الجامع ، وإخوة جمعة ، وأولاد مدبولى ، ودار الحديث حول
النحاس والألومنيوم.. وقال جمعة وهو يحاول أن يسيطر على
أعصابه ويبدو هادئاً :

– اسمع يا عم مدبولى.. دى شغلتى.. أنا طباخ وأعرف اللى ينفع
واللى ما ينفعش.. والنحاس الأحمر مبقاش ينفع.. الناس الأكابر
بتستعمل دلوقتى الألومنيوم.. حلل ألومنيوم.. وطشت ألومنيوم..
وأطباق ألومنيوم.. ليه.. إشمعنى الألومنيوم ومش النحاس.. لأن
الألومنيوم مبيجنزرش.. مفيش خوف أنه يسم حد زى النحاس
المجنز ما يسم الناس.. ومش محتاج نجيب مبيض نحاس بيبيضه
كل يوم والتانى.. ووزنه أخف.. يعنى بدل البت من دول ما تشيل
حله واللا طشت نحاس يقسم وسطها ، تشيل حلة ألومنيوم خفيفه..
زى الريشه.. ثم إن الألومنيوم أرخص.. و..

وقاطعه عم مدبولى قائلاً وهو يستغفر الله :

– شوف يا ابنى.. الصراحه أحسن.. إنت دفعت مهر ستين

جنيه، وأنا لغاية دلوقتي دفعت فوقهم أربعين.. جبنا السرير،
والمراتب، والحصر، والدولاب، وفاضل النحاس.. والنحاس
متأخرش علشان الفلوس.. والله شهيد على ما أقول.. أنا مستعد
أدفع فوق الأربعين أربعين كمان.. وإذا كنت فاكِر إنك بتوفر لى..
لا والله.. أنا بنتى لازم تتجوز كاملة من كله.. والنحاس جاى يعنى
جاى..

وصاح جمعة..

– يا عم مدبولى مش مسألة فلوس.. أنا عايز اعيش زى الناس
المتمدنة.. حد شريكى يا عالم.. أنا عايز ألومنيوم.. مبقاش حر
فى بيتى يعنى.. وبكره حتعرفوا إن الألومنيوم أحسن من النحاس.
وقال عم عبد الصمد وهو غير مقتنع تمامًا بكلام ابنه:
– متسببيه يا مدبولى.. خده على عقله.. مدام مش عايز نحاس..
خلاص.. يوفّر..

وقال الشيخ يحيى:

– الواقع أننا نحكم على مجهول، فليس منا من يعرف هذا
الميموم.

وقال جمعة:

– إسمه الألومنيوم..

وقال الشيخ يحيى:

– لا نعرفه..

وقال مدبولى :

– نعرفه واللا منعرفوش.. مش ممكن بنتى تتجوز من غير نحاس.. عايزين تفضحونى فى وسط البلد.. وبلاد المركز كله.. عيب يا عبد الصمد.. عيب يا جمعه..

* * *

والقرية كلها تتحدث عن النحاس والاكتشاف الجديد الذى يسمى الألومنيوم..

وفى الصباح الباكر ذهب جمعة إلى البندر واشترى مجموعة من الأوانى الألومنيوم.. وعاء كبير أكبر من أكبر حلة.. ووعاء أصغر.. وأصغر، وطشت.. ومجموعة من الأطباق.. كلها من الألومنيوم وعاد بها إلى القرية فى المساء..

والتف أهل القرية يتفرجون على الألومنيوم..

وقال الشيخ يحيى وهو يقلب فى يده طبقاً من الألومنيوم:

– هذا صفيح، أو كالصفيح..

وصرخت أم بهية:

– يا خرابى.. بنتى تتجوز بصفيح..

قال شحاتة:

– لأ.. مش صفيح.. ده زك..

وقال عباس:

– دى حاجات بتاعة المستشفيات.. يكونش جمعه ناوى يسكن
فى مستشفى..

وقال عوضين:

– دى حاجات خواجات وانت الصادق.. الخواجه اللى كان فاتح
فى المركز كان بيطبخ فى بتاعه زى دى..

وقالت بهية والدموع فى عينيها:

– أنا عايزه نحاس أحمر..

وصرخ مدبولى:

– اسمع يا جمعه.. الجوازه مش نافع.. بهية مش لك.. من
بكره حايتكتب كتابها على عباس.. احنا لا من أهل البندر.. ولا
خواجات..

وصرخ جمعة:

– بهيه بتاعتى.. مراتى.. قريت فتحتها.. محدش يقدر
يتجوزها غيرى..

واشدد الصراخ..

وتجمعت عائلة مدبولى فى جانب.

وعائلة عبد الصمد فى جانب.

وارتفعت أعواد الشوم الغليظة فى الهواء..

وفى المساء.. نفس المساء.. تسلل بعض أولاد عبد الصمد إلى
أرض مدبولى، وقطعوا المياه عنها.. ولمحهم أولاد مدبولى..

وانطلق الرصاص.. وخرج جمعة من البيت يجرى.. لم يكن يعلم ما يجرى.. ولم يكن يعلم من أين ينطلق الرصاص.. وشق طريقه بين الجانبين.. فى الظلام.. وأصابته رصاصة.. لا أحد يعلم حتى اليوم، هل هى رصاصة أطلقها إخوته، أو أطلقها أخوة بهية.
وقتل جمعة..

وبعد أربعة أيام قتل شحاتة بن مدبولى وأخو بهية.. ثأراً لجمعة..

وبعد شهور مات عبد الصمد حسرة على ابنه..
ومات فى نفس الشهور مدبولى حسرة هو الآخر على ابنه..

ونسيت القرية مشكلة النحاس والألومنيوم..
والثأر لا يزال قائماً بين العائلتين.
ثأر لا موضوع له.. ولكن له ضحايا..

وخرجت فردوس أخت المرحوم جمعة تحمل على رأسها الوعاء
الألومنيوم الكبير الذى اشتراه جمعة يوماً ما.. وقالت لها فتحية:
- والنبي يا اختى ده أخف من الداھية النحاس اللى أنا شايلها
على دماغى..

وقالت عزيزة:

- ويستحمل زى النحاس وأكثر..

وقالت فتحية:

– ولا يصدى.. ولا يجنزر، ولا عايز تبيض ولا حاه..
وقالت سنية:

– وبيقولوا أرخص..

وبدأت نساء القرية وبناتها يستعملن الأوانى الألومنيوم.. دون
أن تتذكر واحدة منهن جمعة.. شهيد الألومنيوم..
واحدة فقط كانت تذكره وفي قلبها حسرة كبيرة..
بهية..
وعندما تزوجت بهية كانت كل أوانيها من الألومنيوم..

الهزيمة

أحمد.. عزيزى:
رأيتك أمس..

بعد خمسة عشر عامًا، رأيتك.. أتدرى.. إنك لم تكبر.. بشرتك
السمراء المشدودة.. أنفك المستقيم الذى يحمل ملامح شخصيتك
القوية.. عينك الجادتان الحازمتان كأنهما تلقيان فى كل لفظة
أمرًا عسكرياً.. ابتسامتك الدائمة التى تشق خطاً رفيعاً بين شفقتك
الغامقتين الممتلئتين.. و.. كم عمرك الآن.. الخامسة والخمسون
على ما أعتقد.. وبرغم ذلك فإنك ما زلت تبدو كما تركتك فى
الأربعين.

والحمد لله أنك لم ترنى عندما رأيتك، وإلا لما عرفتنى.. أنا
تغيرت كثيراً يا أحمد.. جلدى ارتخى فوق عظام وجهى.. جفناى
سقطا فوق عيني.. تشققت شففتاى.. لم أعد هذه الزوجة الصغيرة
الحلوة التى عرفتها منذ خمسة عشر عامًا.. بل لم أعد أبدو فى سنى..
سن الثامنة والثلاثين.. إنى أبدو أكبر بكثير.. وأحاول كثيراً أن أنكر
هذه الحقيقة، فأقف أمام مرأتى وأشد جلد وجهى بكفى، وأفتح عيني
على وسعهما لأدارى تجاعيد جفنى، ولكنى لا أكاد أرفع كفى، حتى
يعود جلدى ويرتخى، ويسقط جفناى.. وأرى نفسى كما أصبحت..

نعم.. لقد تغيرت كثيرًا يا أحمد..

وعندما رأيتك، وتداريت خلف فانوس النور أرقبك وأنت
تركب سيارتك، أحسست في لحظة واحدة أنى عدت إلى عمري
معك.. إلى شبابي.. إلى أيامنا.. وابتسمت ابتسامة كبيرة زغردت
في صدري بل كدت أضحك كما تعودت أن أضحك وأنا صغيرة..
وبعد أن ابتعدت، واختفيت عن عيني ربما لسنوات طويلة
أخرى، تذكرت، وابتسامتي لا تزال في صدري، أنى لم أقل لك
حتى اليوم لماذا هجرتك.. هكذا فجأة.. وتركتك حائرًا، تردد في
دهشة.. مجنونة.. مجنونة..

وربما كنت مجنونة فعلا..

ولكن كل مجنون له منطق..

وأنت لم تعرف بعد منطق المجنونة التي هجرتك فجأة..

عزيزى أحمد..

أتذكر..

لقد عرفتك وأنا فى الثامنة عشرة من عمري عندما التحقت
طالبة بكلية الآداب.. وبهرت بك منذ اليوم الأول الذى دخلت
فيه علينا لتلقى محاضرتك فى تاريخ الفلسفة.. ولم أكن وحدى
التي بهرت بك.. كل بنات الكلية كن يبهرن بك.. لا لأنك أستاذ
فحسب، ولا لأنك رجل وسيم فحسب، بل لأنك أيضًا أنيق، ولأنك
تملك سيارة أنيقة تقف على باب الكلية كالفرس الأصيل فى

انتظار فارسها.. وكل ذلك كان يجعل منك حلمًا جميلاً لكل بنت..
ولكنى لم أبهر برجولتك ولا بسيارتك، ولكنى بهرت بعلمك.. هذه
هى الحقيقة.. ومنذ أن انسأب صوتك إلى أذنى عميقاً رزيناً يروى
لنا قصة الفلسفة.. استغرقت فيك كما أستغرق فى كتاب ممتع..
أخذتنى كلى.. عقلى، وخيالى وأعصابى.. وأصبحت أنتظرى.. أو
على الأصح أنتظر محاضرتك.. بشوق ولهفة. كأنى أنتظر اللحظة
التي أدخل فيها إلى فراشى وأستغرق فى كتابى المفضل..
وكنت أيامها مجنونة بشيء اسمه الثقافة.. كنت أريد أن أكون
مثقفة، وأن أحس بأنى مثقفة.. لا مجرد طالبة، بل مثقفة.. وكنت
أعيش مع أمى وحدنا ننفق من معاش أبى الذى توفى منذ سنوات..
لم يكن لى أخ ولا عم ولا خال.. عم واحد سافر إلى كندا وبقي
هناك وانقطعت الصلة بينه وبيننا.. وربما كانت هذه الوحدة..
وحدتى فى الحياة.. هى التى دفعتنى إلى القراءة والثقافة، لقد
قرأت كثيراً، أكثر مما تتصور.. ووجدت إخوتى وآبائى، وآعمامى
وأخوالى، فىمن قرأت لهم.. كانوا هم الذين يصنعون لى مبادئى
وتقاليدى، وشخصيتى.. وكنت أحبهم كما أحب عائلتى.. لقد
جعلت منهم عائلتى.. وكنت أخاف من الفيلسوف «بيكون» كما
أخاف من أبى.. وأحترم أرسطو كما أحترم جدى.. وأناقش سارتر
كما أناقش ابن عمى.. إلى أن التقيت بك.. فأصبحت أنت أقرب
واحد إلىّ ممن أقرأ لهم.. ربما لأن كل الذين قرأت لهم كانوا مجرد

حروف ترسم لى ثقافتى، أما أنت فكنت ثقافة حية.. كنت لحمًا
ودمًا.. وكنت صورة حلوة للثقافة.. صورة أنيقة جذابة..

وبرغم ذلك لم أحاول أن أعرفك وأنا طالبة.. لم أحاول أن أجرى
وراءك بعد المحاضرة كما تجرى وراءك بقية الطالبات.. فإن ثقافتى
أشاعت فى نفسى نوعًا من التعالى، أو من مركب العظمة، إذا أردنا
أن نستعمل التعبير العلمى.. ولا شك أن هذه الثقافة قد حممتنى فى
هذه السن من كثير من نزوات الشباب.. بل إنها فى الواقع كانت
تنفر منى كل الشباب والرجال الذين يحاولون مغالزتى، فقد كان
الواحد منهم لا يكاد يقترب منى حتى أبدأ معه مناقشة علمية فى
الفلسفة أو فى الأدب، أحاول خلالها استعراض ثقافتى، فلا يلبث
أن يتضاءل أمامى، ويفر.. ولكن.. إذا كانت الثقافة قد حممتنى..
فقد أصابتنى أيضًا بهذا التعالى، وهذا الكبر، وهذه الحساسية
المرهفة بكل ما يمكن أن يمس كبريائى.. وفى كثير من الأحيان
كانت هذه الحساسية تنطلق من تفسير كاذب غبى لتصرف من
التصرفات، وينبنى عليها معركة كاذبة وهمية دفاعًا عن كبرياء
كاذب أيضًا..

لهذا لم أحاول أن أقدم لك نفسى كأى طالبة تقدم نفسها
لأستاذها، وكنت أنت كريمًا مع نفسك معتزًا بشخصيتك، فلم
تحاول أن تفرض نفسك علىّ، كأى أستاذ يفرض نفسه على طالبة..
ولكن أكثر من مرة التقت نظراتنا وأنت تلقى محاضراتك، ورأيت

فى عينيك تساؤلا عجيبيًا مهذبًا كأنك تسألنى فى أدب: متى وأين..
ولعلك رأيت فى عيني هذا الإصرار العجيب الذى يثيره إحساسى
بالتعالى مختلطًا بإعجابى وإيمانى بك..

وقد بقى هذا الإصرار قائمًا.. برغم أن إعجابى بك بدأ يتطور..
بدأت صورة الأستاذ المثقف تختلط بصورة الرجل.. بدأت أحبك..
ولكنى قاومت بعنف.. قاومت حبك، وقاومت فىك صورة الرجل..
وحاولت أن أتشبث بكل قوى فى حائط الثقافة الذى يحمينى من
الرجال.. من الحب.. أنت لا شىء سوى كتاب.. ثقافة.. هكذا كنت
أحاول أن أقنع نفسى..

إلى أن انتهى العام الدراسى.. ونجحت فى مادتك بأعلى درجة
حصلت عليها طالبة، ربما حتى الآن..
وفى فترة الإجازة، مرضت أمى..
واشدد بها المرض..

وبدأت بين آهاتها التى تنطلق من آلامها الفظيعة تلح على أن
أتزوج.. كانت تحس بأنها على وشك الموت، وكان الزواج هو الحل
الوحيد لإعالتى بعد أن تموت.. فلم يكن لى أحد، ولم يكن لى سوى
ما يتبقى من معاش أبى..

وثارت كبريائى..

وثار عنادى..

إن الزواج معناه القضاء على كل أحلامى.. ولكن تأوهات أمى
وذبولها يوماً بعد يوم، كان ينقلنى من سماء كبريائى، ومن أحلام
ثقافتى، إلى الواقع.. إلى الأرض.. إنى فعلا وحيدة.. وفعلا ليس
لى من يعولنى بعد أمى..

وبدأت أفكر فى الزواج..

ولكنى لم أفكر فى الزوج.. رضيت بأول الواقفين على الباب،
وكان أكثرهم إلحاحًا، وكان أيضًا أغناهم.. إنه تاجر.. يعمل
بالتصدير والاستيراد.. ويملك مصنعًا صغيرًا للحلوى.. وعمارة..
وخمسين فدانا..

ولم أكن أنتظر أن يكون مثقفًا.. ولكن غرورى جعلنى أتصور
أنى أستطيع أن أجعل منه إنسانًا مثقفًا.. أن أضع كل ما فى علقى
من كتب، فى عقله.. وربما كان استسلامه لى فى فترة الخطوبة
القصيرة، واحتماله فى صمت لمحاضراتى الطويلة التى ألقىها عليه
قد أثار غرورى أكثر، وطمأننى أكثر إلى أنى أستطيع أن أجعل منه
الرجل الذى أريده..

وتزوجنا بعد شهرين من إعلان خطوبتنا.. وانتقلت معه إلى
بىتى الجديد.. شقة فاخرة كان زوجى قد أثثها بنفسه أثاثًا باذخًا..
وماتت أمى بعد زواجى بأسبوعين.. راضية.. مطمئنة على..
ولم يبق لى إلا زوجى، وثقافتى بكل ما تثيره فى من تعالٍ
وكبرياء كاذبة..

وقبل أن ينقضى الشهر الأول بدأت أكتشف هذا الرجل الذى تزوجته، بعد أن أزاح عن وجهه الصمت الذى كان يختفى وراءه فى فترة الخطوبة، اكتشفت أنه لم يكن يريدنى كإنسانة مثقفة مهذبة، ولكنه فقط كان يريدنى كامرأة.. وقد عرف منذ الليالى الأولى أنى لا أستطيع أن أكون المرأة التى يريدھا.. واكتشفت أيضاً أن هذه الشقة الفخمة البازخة الأثاث لم يؤثها لى، ولكنه أثها ليصطاد فيها عملاء الذين يتاجر معهم، أو يستفيد منهم فى تجارته.. ويومًا بعد يوم، أصبح أكثر صراحة.. إن موائد القمار تمتد فى بيتى كل ليلة.. وزجاجات الويسكى.. وجوزة الحشيش.. ونساء لسن بالزوجات يصحبن الرجال.. وهو يريدنى أن أرى بكل ذلك، بل أن أشترك فيه.. يريدنى أن ألعب القمار، وأن أسكر، وأن أدخن الحشيش، وأن أصادق هؤلاء النساء.. بل أكثر من ذلك.. يريدنى أن أكون سهلة مع أصدقائه الرجال.. أن أكون لطيفة.. دمی خفيف.. أتحمل غزلهم.. و.. واعترضت.. حاولت أولاً أن أعترض فى هدوء.. أن أقنعه بأن هناك طريقاً آخر للحياة أنظف وأجدى من هذا الطريق.. كنت أريد أن أقنعه بمتعة العقل.. إن العقل وحده يستطيع أن يحقق شيئاً أكثر مما تحققه الشهوة، والغريزة الإنسانية البدائية السخيفة.. ولكنه كان يسخر منى ومن ثقافتى.. وبتهمنى بالبرود ويصفنى بثقل الدم.. وكنت أصرخ، فيصرخ أكثر منى.. إلى أن ضربنى مرة.. ضربنى لأنى أهنت رجلاً من أصدقائه

حاول أن يشد امرأة جاء بها فى إحدى هذه الليالى ، ويدخل بها إلى فراشى.

ولم أستطع أن أهجر هذا الزوج حتى بعد أن ضربنى ، فلم يكن لى مكان أذهب إليه إذا تركته..

كل ما فعلته أنى تعاليت عليه.. واجهته وواجهت أصدقاءه باحتقارى.. وانزويت فى مكان ضيق من البيت أنا وكتبى ، أقرأ.. وأقرأ.. ولا أعترض على شىء مما يجرى فى بيتى.. ولا أطلب من زوجى شيئاً.. الشىء الوحيد الذى طلبته هو أن يسمح لى باستكمال دراستى الجامعية ، بأن أعود إليك.. ولكنه رفض ساخراً.. وقال لى إن الأجدى لى أن أتعلم كيف أكون امرأة.. ولم أرد عليه.. ولم أتمسك بالعودة إلى الجامعة ، وأقنعت نفسى بأن الثقافة فى الكتب وليست فى الجامعة.. وبينى وبين هذا الزوج معركة رهيبة صامتة.. معركة بين كبرياء الإنسان المثقف وكبرياء الإنسان الغنى.. معركة بين الثقافة والمال.. ولم أكن أحس بلحظات الهزيمة إلا عندما يأتى إلى ويطلب بحقه فى جسدى كزوج.. وأعطيه جسداً أبرد من لوح الثلج ، أحس به يذلنى.. يهيننى.. يصفعنى..

عزيزى أحمد..

فى هذه الأثناء بدأت أتصل بك فى التليفون.. كنت فى حاجة إليك.. كنت فى حاجة إلى إنسان من عالمى يشعرنى بأنى ما زلت على قيد الحياة.. كنت فى حاجة إلى نافذة أفتحها وسط هذا الظلام

البشع ، ليطل على من خلالها قبس من النور النظيف.. نور العقل والروح.. وكنت أنت هذه النافذة.. وقد تذكرتني منذ مكالمتنا الأولى.. هل تذكر.. كأنك كنت دائماً فى انتظارى.

وتعددت مكالماتنا فى التليفون. كل يوم نتحدث.. أناقشك فيما أقرؤه.. وأطير معك فى عوالم الثقافة.. ولكن.. لم يكن هذا كافياً، كان لابد أن نلتقى.. وأنت تلح على لأحدد لك موعد اللقاء.. وأنا أرفض فى رفق.. ولم تكن تدري كم أتعذب وأنا أرفض.. وكم أذفع من أعصابى ثمناً لإرادتى.. لقد كنت أيامها أحبك.. أحبك حباً كاملاً، وعندما كنت فتاة كنت أحبك بعقلى، وخيالى، وعواطفى، ولكنى بعد أن تزوجت أصبحت أحبك بجسدى أيضاً.. إن الزواج يربط الجسد بالعاطفة.. والعاطفة بالجسد.. ليست هناك امرأة تستطيع أن تحب بعواطفها فحسب.. إن الفتاة بعد أن تصبح امرأة لا تستطيع أن تفصل خيالها عن واقعها.. لأنه لا يصبح هناك شيء من التقاليد ولا من الإحساس الفسيولوجى يفصل بينها وبين الواقع، وهكذا كنت أحبك.. خيالى وواقعى.. كنت أريدك أن تعطينى كل ما حرمنى منه هذا الزوج.. العقل، والقلب.. والجسد.. وبرغم ذلك قاومت، لأن استسلامى كان معناه هزيمتى.. هزيمة كبرىائى.. كان معناه أنى لم أعد أفضل من هذا الزوج الذى أحتقره.. كان معناه أن كل ما يفصل بينى وبينه هو اختلاف فى المزاج لا اختلاف فى المبادئ وفى المستوى الثقافى.

وكان زوجى قد بدأ يسافر كثيراً إلى الخارج، ويغيب فى كل مرة شهراً وشهرين.. ورغم ذلك كنت أرفض أن أذهب إليك.. وأنت صابر يا حبيبى... لا تملنى.. وتعطينى من روحك قوة أستعين بها على حياتى.

إلى أن عاد زوجى مرة من الخارج.. وجاء إلى.. وأسلمته هذا الجسد البارد، وأنا أحتقره وأزدريه.. وفجأة انتفض بعيداً عنى وهو يصرخ ويعلن فى وجهى خطة انتقامه الرهيب.. إنه لن يعود إلى.. سيتركنى.. ولكنه لن يطلقنى حتى لا يتزوجنى رجل آخر.. وسيترك لى هذه الشقة، ويدفع إيجارها.. ولكنه لن يدفع أكثر من ذلك.. سيتركنى أعول نفسى.. ولنر إذا كانت ثقافتى ستفنعنى.. وقبل أن يخرج من البيت جمع كل مصاغى وكل قرش، وأخذه معه. خطة دبرها صاحب مال، يريد أن يخنقنى بحاجتى إلى المال.. وقد قلت لك كل ذلك فى التليفون.. وكنت رقيقاً حنوناً ورجوتنى أن اعتبرك مسئولاً عنى إلى أن أستطيع أن أدبر أمرى.. وعرضت على أن ترسل لى مبلغاً من المال.. ولكنى رفضت.. وقلت لى وأنت أعتبر المبلغ على سبيل القرض، ولكننى رفضت.. وقلت لى وأنت تحتد احتداد إنسان يحب، إنه لا يعقل أن تحبنى وأحبك، دون أن أعتبرك رجلى المسئول عنى.. ولكنى رفضت..

وبدأت أواجه أياماً غريبة..

إنى أقيم فى شقة فخمة، وفى أرقى حى من أحياء القاهرة، وليس معى ولا قرش.. كيف آكل.. وكيف أدفع حساب التليفون،

والنور، وبائع الصحف.. و.. و.. أشياء كانت تبدو صغيرة فى حياتى، أصبحت مشاكل ضخمة.. معضلات.. واقترضت من صديقتى فتحية التى تقيم فى الشقة المجاورة، عشرة جنيهات..

وبعد أيام وجدت فى البيت بضع زجاجات الويسكى التى تركها زوجى وراءه، فأعطيتهما لفتحية.. وأعطتنى ثلاثين جنيهًا بعد أن خصمت العشرة جنيهات التى اقترضتها منها.. وأنا حائرة.. يائسة.. ولم أكن أستطيع وسط هذه الحيرة البائسة أن أستمر فى مقاومتك.. فى مقاومة نفسى.. ذهبت إليك..

ولم نكن فى حاجة إلى مقدمات.. لقد استمرت المقدمات بيننا أكثر من عامين.. وكان توتر أعصابى كفيلا بأن يدفعنى إليك كلى.. أعطيتك نفسى منذ اللقاء الأول.. لا.. لم أعطك نفسى، بل أخذتك، فربما كنت فى حاجة إليك، أكثر من حاجتك إلى.. وقبل أن أنصرف من بيتك.. لمحتك تدير ظهره وتخرج محفظتك وتلتقط منها مبلغًا من المال، وتدسه فى حقيبتى.. لمحتك..

وأحسست بتيار بارد كريح الثلج يسرى فى عروقى كلها.. ولكنى سكت.. لم أتكلم..

حملت حقيقتي كأنى لم ألمح شيئاً.. وتركتك تقبلنى على
جبينى البارد، وخرجت عائدة إلى بيتى، وفى كل خطوة تكتمل
فى خيالى صورة بشعة لنفسى.. خط بعد خط يرسمه خيالى حتى
اكتملت الصورة.. صورة مومس.. نعم صورة مومس.. امرأة تبيع
جسدها.. وصدقنى أنى حاولت كثيراً أن أبعد هذه الصورة عن
خيالى.. حاولت أن أقنع نفسى بأنك تحبنى، ولأنك تحبنى فأنت
مسئول عنى كزوجى وأكثر.. وحاولت أن أقنع نفسى بأن ما أعطيته
لى هو مجرد قرض.. حاولت كثيراً.. ولكن عبثاً.. صورة المومس
تكبر فى خيالى.. وتكبر.. وتكبر.. لقد ذهبت إليك وأنا إنسانة
مثقفة وزوجة التاجر الكبير عبد القادر عبد الله، وخرجت من
عندك.. مومساً..

ووصلت إلى بيتى وانكفأت على وجهى أبكى..
بكيت كثيراً..

بكيت الإنسانة المثقفة التى فقدتها..
بكيت كبريائى وعنادى..

بكيت هزيمتى أمام الزوج الذى أكرهه..

وأفقت من بكائى وفى رأسى قرار حاسم.. لن أراك بعد اليوم..
لا أريد أن أراك كمومس.. ولم يكن هناك شىء يستطيع أن يقنعنى
يومها بأنى لست مومساً، وأننى فقط امرأة فى حاجة إلى معاونة
حبيبها..

كنت أعرف أنى لن أذهب إليك بعد اليوم إلا وأنا أشعر بحاجتى إلى النقود، وأنت تشعر بواجبك الذى يحتم عليك إعطائى النقود.. ستظل النقود بيننا عنصرًا من عناصر حينًا.. أو علاقتنا.. ولم يكن هذا فى حسابى أبدًا.. لم أحبك أبدًا وأنا أشعر بحاجتى لأن تنفق على.. كنت أحبك وأنا أشعر بحاجتى إلى ثقافتك، وإلى رجولتك.. وإلى حنانك. ولن أذهب إليك أبدًا وأنا فى حاجة إلى مالك.. إنى لا أحبك وأنت تعطينى مالا.. إنك تجرحنى.. تهيننى.. لا تقل لى أن أعتبرك زوجى، فأنت لست زوجى.. إن الزواج ليس علاقة بين شخصين.. ولكنه علاقة مع مجتمع.. مجتمع يسمح للرجل أن ينفق على المرأة.. وأنت وأنا ليس لنا مجتمع.. إننا نختبئ من المجتمع.. والمجتمع لا يسمح لك أن تنفق على إلا إذا اعتبرنى مومسًا.. امرأة تبيع جسدها.. وأنا لا أريد أن أكون مومسًا.. لا أريد. ولن أراك بعد اليوم..

وعندما اتصلت بى فى التليفون تسألنى لماذا لم أتصل بك، قلت لك فى صوت مبحوح خطير، كأنه بقايا روحى:

- أرجوك.. لا تتصل بى بعد الآن..

وسمعتك تقول كلامًا كثيرًا.. ثم تردد.. مجنونة.. مجنونة..

وتعود تقول كلامًا كثيرًا..

وأنا صامته..

وأعدت السماعه إلى مكانها..

وكانت هذه هي المرة الأخيرة التي سمعت صوتك فيها.
وبرغم ذلك.. فقد أنفقت النقود التي أعطيتها لي.. كنت في
حاجة إليها.. كم أعطيتني.. خمسين جنيهًا على ما أذكر.. وقد
صرفتها في أقل من شهر.. وعدت واقترضت من صديقتي فتحية..
وأنا أعيش حياتي كالمشلولة، ولا أدري كيف أتصرف.. ولا ماذا
أفعل.. أفكر في أن أعمل.. وفي أن أدرس.. ولكني لا أعمل شيئًا،
ولا أدرس شيئًا.. وفتحية تعرف عنى كل شيء.. وتعرف أيضًا
قصتي معك، وقد حاولت كثيرًا أن تقنعني بأن أعود إليك، على
الأقل إلى أن أحل مشكلتي مع زوجي.. ولكني أرفض فى عناد وفى
كبرياء.. وأنت قد أخذت العزة بنفسك بعد أن قطعت حديثك فى
التليفون، فلم تعد تحاول أن تتصل بي.. وزوجي لا أدري مكانه،
ومكتبه يتولى دفع إيجار الشقة كل شهر.. فقط إيجار الشقة..
ودعتني فتحية إلى قضاء السهرة عندها.. وكان هناك رجل
وسيم مهذب.. أخذت فتحية تروى أمامه قصة زوجي معي.. وهو
يواسيني.. ويقترح على الحلول.. ثم اتصل بي بالتليفون فى اليوم
التالى.. و.. و.. ولا أطيل عليك.. ذهبت إلى لقائه. واستسلمت وأنا
مذهولة.. لم أكن أدري أيامها أين أقف، ولا ما هى مبادئى، ولا ماذا
أقاوم من أجله.. وفى نفس اللحظة الجارحة.. اللحظة التى انتهى
فيها منى، وبدأت أرتدى ثيابي.. لمحتة كما سبق أن لمحتك..
لمحتة يفتح محفظته، ثم يدس فى حقيبتي مبلغًا من المال.

وخرجت من بيته وخيالى يرسم لى نفس الصورة.. وخط وراء
خط واكتملت الصورة.. صورة المومس.. والصورة تكبر فى خيالى..
وتكبر.. وتكبر.. وانكفات على فراشى أبكى..

ورفضت فى عناد عجيب أن أذهب إلى لقائه مرة أخرى..
وبرغم إلحاحه وتوسلاته، وبرغم كل محاولات صديقتى فتحية فى
إقناعى.. لقد ذهبت إليه وهو يعتقد أنى إنسانة مثقفة وحرمة التاجر
الكبير عبد القادر عبد الله، ولن أعود إليه كمومس.

وبرغم ذلك أنفقت النقود التى أعطاه لى.. كم أعطانى.. أربعين
.. ربما كان ينوى أن يعطينى خمسين، ثم اختصر عشرة جنيهات
فى آخر لحظة..

..و

كم رجل..

كثيرون.. ولم أكن أقابل الواحد منهم إلا مرة واحدة.. كل منهم
أذهب إليه كزوجة تخون زوجها، ثم أرفض أن أعود إليه كمومس
.. ولم أكن أذهب إلى واحد إلا بعد أن تنتهى النقود التى أخذتها من
الذى قبله، وبعد أن أقترض من فتحية عشرة جنيهات.. وفتحية
تقول عنى إنى مجنونة.

وكنيت لا أزال أقرأ وأقرأ.. ولكنى لم أعد أحس بأنى محترمة
وأنا ممسكة بالكتاب كما كنت أحس دائماً.. ثم لم أعد أحس بأنى
من عائلة أرسطو وهكسلى وسارتر.. حتى هذه العائلة فقدتها..

يتيمة.. بلا عائلة.. وبلا مال.. وبلا زوج.. وبلا ولد.. وبلا
حبيب.. بلا أحد يحترمني وأحترمه.. حتى نفسى لا أحترمها
ولا تحترمنى.. وانطلقت أضحك ضحكات مجنونة.. لقد هزمت..
هزمت منذ زمان طويل، وهزمت أمام صاحب المال.. المثقف
هزمته حاجته إلى المال.. وقسوة الإنسان الغنى، هزمت كبرياء
الإنسان المثقف.. وبسرعة جريت إلى التليفون، واتصلت بمدحت
درويش.. إن مدحت كان أكثر أصدقاء زوجى إعجاباً بى، وأكثرهم
جرأة على مغالزتى، وكنت أصده وأحقره.. وكان زوجى يجن كلما
صددته.. إنه موظف كبير.. صاحب نفوذ.. فكيف أعامله هذه
المعاملة.. لن أعامله هذه المعاملة.. وضحكت له فى التليفون،
ودعوته لقضاء السهرة معى.. فى بيتى.. وذكرته بأن يأتى معه
بزجاجة ويسكى..

وجاء مدحت..

وزجاجة الويسكى..

ولم يترك لى شيئاً فى حقيبة يدى قبل أن يتركنى، ولكنه اقتنع
بأن زوجى يجب أن يعود إلى وتعهد بأن يعيده.. وقهقهه قهقهة
عالية فظيعة وهو يقول: هو جوزك حايلاقى واحدة زيك فين..

وعاد الزوج..

وعادت مائدة القمار، وزجاجات الخمر، وجوزة الحشيش،
والنساء اللاتى لسن زوجات.. وأنا أشارك فى كل ذلك.. ألعب
القمار، وأدخن الحشيش، وأسكر.. و.. كل شىء..

إنى أعيش فى هزيمتى..

وزوجى يعيش فى انتصاره.

شئ واحد حميته من هزيمتى ومن انتصار زوجى.. حبى لك،

حميته بابتعادى عنك.. فقد أحبتك كما كنت، منتصرة.. لا كما
أصبحت، مهزومة.

عزيزى أحمد:

الآن.. وبعد خمسة عشر عاماً.. لعلك تستطيع أن تفهمنى..

وشكراً لأنى رأيتك..

وشكراً لأنك لم ترنى..

لا تذبحوا الفراخ..

لا تقتربوا منى..

أنا مجنون..

وجنوني قاتل..

ولكنى أختلف عن بقية المجانين بأنى أعرف أنى مجنون..
وأعرف بالضبط متى أصبحت بالجنون.. إنه جنون من النوع
المتقطع.. فترات تمر بى، ثم أفيق منها، وأعود إنساناً عاقلاً
يستطيع أن يناقش جنونه ويدرسه ويعرف أسبابه، وإن كان لا
يستطيع أن يقاومه..

متى جننت؟..

فى الحادية عشرة من عمرى.. منذ حوالى الثلاثين عاماً.. وبرغم
أن جسمى أيامها كان يبدو أضخم وأكبر من عمرى، إلا أنى كنت
صبيّاً رقيقاً خيالياً.. كنت أهوى الرسم.. وأقضى معظم أوقات فراغى
أرسم هذه الرسوم الساذجة التى يرسمها الأطفال.. وكنت أحب
أن أجلس مع جدتى، أستمع منها إلى حكاياتها الحلوة المثيرة..
وكنت أجرى إلى أبى كلما وقف للصلاة لأصلى خلفه، وأحاول أن
أقلده فى صوته وحركاته.. كنت طفلاً يملأ السلام قلبه وخياله.
وكنا أيامها نقيم فى حارة نصير بالعباسية.. وأذهب أنا وثلاثة

من أبناء الحارة إلى مدرسة السلحدار الابتدائية التي تقع عند
بوابة الفتوح ملاصقة لجامع الحاكم بأمر الله.. وكنا نذهب إليها
سيرًا على الأقدام برغم بعد المسافة.. مسافة طويلة نقطعها فيما لا
يقل عن ثلاثة أرباع الساعة.. وكان يجب أن نمر في طريقنا بشارع
الحسينية.. الشارع الذي يشق الحى الشعبى العريق.. وكان صبية
حى الحسينية يعتبرون كل تلميذ يمر بهم مرتديًا بدلة، وفي
قدمه حذاء، وعلى رأسه طربوش.. كانوا يعتبرونه غنيمة لهم..
فيجرون وراءه ويخطفون طربوشه أو يضربونه عليه حتى يببطوه،
ولا يتركونه إلا فى نهاية الشارع عندما يصل إلى بوابة الفتوح..
وكنت أنا وزملائي لا نكاد ندخل شارع الحسينية فى طريقنا إلى
مدرستنا، حتى تمتلئ قلوبنا بالرعب من صبية الحى.. ونسير فى
خطوات مرتجفة حذرة، ملتصقين بالجدران، ونحن نتلفت حولنا
حتى إذا لمحنا الصبية يهجمون علينا التجأنا إلى أقرب دكان أو
إلى أقرب مقهى نحتمى بصاحبه ونحن نصرخ:

– والنبي يا عم.. حوش عنا العيال يا عم..

وكان صاحب الدكان أو المقهى يحمينا فعلا، ويطرد الصبية
من ورائنا.. ثم نعود نسير فى خطواتنا المرتجفة الخائفة، حتى
نحتمى فى دكان آخر أو فى مقهى آخر.. وهكذا من دكان إلى دكان،
ومن مقهى إلى مقهى، حتى نصل إلى المدرسة.. وبرغم هذا.. لم

نكن دائماً نصل سالمين.. كنا كثيراً ما نصل وطرايبشنا مبططة أو مفقودة، وثيابنا ممزقة..

وكانت أخطر المناطق التي نمر بها في شارع الحسينية، هي منطقة ضريح سيدي البيومي، وهي تقع في النصف الأول من الشارع، من ناحية العباسية.. كان أولاد البيومي هم أشرس أولاد الحسينية، وأكثرهم تحدياً وحقداً على أولاد العباسية.. ربما لقرب حيهم من حيننا.. ولأنهم كانوا - حتى الأطفال - ينفسون عن حقد طبقى يلح عليهم.. فأولاد البيومي كلهم من أولاد البلد.. أولاد صغار الباعة، والعمال، والعاطلين، بينما أولاد العباسية أغلبهم من أولاد الموظفين، وضباط الجيش، والتجار.. صغارهم وكبارهم.. فقد كانت العباسية تنقسم إلى حيين.. الحى الشرقى ويسكنه كبار الموظفين وكبار الضباط وكبار التجار، والحى الغربى ويسكنه صغار الموظفين، وصغار الضباط، وصغار التجار.. وتقع فيه حارتنا.. حارة نصير..

وكنا نعود من المدرسة فى المساء ونجتمع بأولاد حارتنا، ونروى لهم ما حدث لنا فى يومنا مع أولاد الحسينية، وخصوصاً أولاد سيدي البيومي. وبدأت اجتماعاتنا فى الحارة تتخذ شكل مجلس أعلى يضع خطة لحمايتنا أثناء زهابنا إلى المدرسة وعودتنا منها..

وقد اقترحت أن نذهب ونقابل المعلم إبراهيم عرا.. فتوة الحسينية ونطلب حمايته لنا.. ورد ابن حارتنا، محمود حسنين:

– مينفعش..

وقال واحد منا:

– أمال إيه اللي ينفع؟

وقال محمود حسنين وهو يشوح بيده:

– نحاربهم..

ولفتنا سحابة من الوجوم والصمت..

وصرخ محمود:

– إحنا خايفين ليه.. إذا كانوا همّا ولاد الحسينيه برضك إحنا

ولاد العباسية..

وهلل أولاد حارتنا.. وانطلق الحماس من حناجرهم..

وكان محمود أكبرنا سنًا.. إنه فى الخامسة عشرة من عمره،

وهو ابن الحاج حسنين صاحب المخبز البلدى الذى يقع فى شارع

رضوان شكرى، وهو الشارع الذى تتفرع منه حارتنا.. وكان

محمود يسيطر علينا جميعًا.. لا لأنه أكبرنا وأقوانا، ولكن لأنه

أيضًا شديد الذكاء، لا يكف عن ابتكار المشروعات التى يشركنا

فيها جميعًا.. أقام مرة مشروعًا لخيال الظل، وكان هو بنفسه الذى

يحرك الدمى خلف الشاشة، وكان يتقاضى من كل واحد منا مليمًا

أجرًا لمشاهدة خيال الظل.. وفى مرة أخرى حصل على أدوات صنع

الدندمة، وصنعها بنفسه وأخذ يبيعهما لنا.. لم يكن رأسه يكف

عن المشروعات.. وكان مشروع إعلان الحرب على أولاد الحسينية هو واحد من هذه المشروعات.

وذهب محمود ومعه بعض أولاد الحارة إلى الحسينية، وقابلوا شلة الصبية المتجمعين عند ضريح سيدى البيومى.. طبقاً لتقاليد الفتوات الكبار.. وقالوا لهم:
- إطلعوا لنا بره..

ورضى أولاد سيدى البيومى أن «يطلعوا بره».. أى فى أرض لا يملكها أحد.. لا هى أرض الحسينية ولا أرض العباسية.. واتفقوا على أن يلتقى الجيشان.. جيشنا وجيشهم.. فى مكان يسمى «أرض العيون» يقع فى صحراء العباسية.. وذلك فى يوم الجمعة عقب الصلاة..

وبدأ محمود يتولى القيادة، ويضع الخطط.. وأخذنا معه إلى أرض العيون، وحدد المكان الذى سنبدأ منه هجومنا.. وجمع قطع الحجارة فى أكوام وغطاها بالرمال حتى لا يكتشفها العدو.. ثم بدأ يدر بنا على استعمال «المقلاع» الذى تقذف به الحجارة من بعد كبير.. وأخيراً جمع بعض العصى الغليظة وأخذ يشق كل عصا من طرفها ويثبت فيها قطعة من حجر البازلت الثقيل ويربطها بقطع من القماش، وخيوط من السلك، فتصبح كبلطة من التى كان يستعملها الإنسان الحجري، أو التى يستعملها الهنود الحمر الذين نراهم فى أفلام رعاة البقر..

وكان إحساسى حتى هذا اليوم إحساسًا سلبيًا، لم أكن أشعر
بحماس ولا بفتور.. ولم أكن أتصور نفسى عندما يبدأ القتال.. ولم
أكن أدرى كيف أتصرف.. كنت فقط أزامل أولاد الحارة فى كل ما
يفعلونه لمجرد إحساسى بأنى ابن الحارة.

إلى أن وضع محمود فى يدى إحدى «البلطة» التى صنعها.. وقد
اخترنى فى فرقة حملة البلط لأنى - كما قلت - كنت أبداً أكبر
وأضخم من سنى..

وما كاد محمود يترك البلطة فى يدى حتى أحسست بها تأخذنى
معها..

تشدنى إليها..

وأحسست بأصابعى تلتف حول مقبضها، فى قوة، كأنها
التصقت بها.. أحسست أنى لن أستطيع أبداً أن أفك أصابعى من
حولها.. ليست أصابعى هى التى التفت حول البلطة.. ولكنها
البلطة التى جذبت أصابعى إليها ولفتها حولها، كأنها مغاطيس..
وأحسست بشىء يتحرك فى صدرى..

لا أدى ما هو..

كأنه عفريت كان نائمًا ثم بدأ يستقيظ.. ويتشاءب.. إنى أكاد
أسمع صوت تثارؤبه.. أكاد أراه وهو يمد ذراعيه داخل صدرى،
ويتمطى.. لعل هذا العفريت كان نائمًا فى صدرى منذ ولدت.. منذ
ولد الإنسان..

وفجأة رفعت البلطة إلى أعلى وضربت بها الفضاء..
لا..

أقسم لكم أننى لم أرفع البلطة..
هى التى رفعت ذراعى..
هى البلطة..

وأصابعى ملتفة حولها لا تريد أن تتركها.. لا تستطيع.. حتى
عندما ذهبت لأنام ظلت ملتصقة بأصابعى.. وكنت أحس بها -
بالبلطة - تهزنى فى نومى إلى أن أستيقظ.. أستيقظ فعلا.. وتشدنى
من فراشى.. وترفع ذراعى، ثم تهوى بنفسها فى الفضاء.. ثم أعود
لأنام، إلى أن توقظنى البلطة مرة ثانية..

وكان اليوم التالى هو يوم المعركة..

وجاء جيش سيدى البيومى..

واصطف جيشنا فى خطوطه..

وبدأ التقاذف بالطوب..

والبلطة فى يدى..

وهذا الشىء الذى فى صدرى يصرخ..

ثم فجأة وجدت البلطة تشدنى وتجرى.. تجرى بى.. تجرى بى
نحو خطوط الأعداء..

ورفعت البلطة ذراعى، ثم هوت بنفسها فوق رأس طفل من
أطفال البيومى..

لقد رأيت هذا الطفل..

رأيته بعيني..

رأيته قتيلاً والدم ينزف من رأسه..

وأذكر أنى ضحكت.. أو أنى سمعت صوتاً كالضحك.. ولا أدري

أنا الذى كنت أضحك أم البلبطة.. ولكنه كان ضحكاً كالصراخ..

ولا أذكر شيئاً بعد ذلك.. أفقت وأنا فى فراشى أعانى من حمى

خطيرة، أرقدتنى أكثر من شهرين..

ولم يكن أحد قد اكتشف بعد أنى مجنون..

وقد انتقلنا من حارة نصير بعد معركة أرض العيون، وسكنا

فى مصر الجديدة، وخصوصاً أن أبى ارتقى أيامها إلى الدرجة

الخامسة.. وخرجت من مدرسة السلحدار، والتحقت بمدرسة

مصر الجديدة..

وأصبحت إنساناً هادئاً.. أكثر هدوءاً من شاب فى مثل سنى..

أصبحت منطوبياً.. نفوراً من الناس.. لم يكن نفوراً ولكنه كان أشبه

بالخوف.. ولم أكن أخاف من الناس، بل كنت أخاف عليهم.. أخاف

عليهم من نفسى.. لا أدري لماذا.. ولكنى فعلاً كنت أخاف عليهم،

إلى درجة أنى لم أحاول أن أتخذ صديقاً.. لم يعد لى أصدقاء..

وفى صدرى دائماً شيء ثقيل.. نائم.. كأنه هذا العفريت الذى ولد

معى منذ ولدت.. منذ ولد الإنسان.. ولكنه نائم..

إلى أن بلغت التاسعة عشرة من عمري..
وكننت أستعد لامتحان شهادة التوجيهية، وسمح لى أبى أن
أذاكر على مكتبه..

وعلى مكتب أبى «فتاحة ورق» على شكل خنجر.. مقبضه يملأ
الكف، وسلاحه رفيع حاد..

ولاحظت أن الخنجر ينظر إلى..

كان ينظر إلى فعلا..

وكننت أشيخ عنه وجهى، ولكنى لا أكاد ألتفت حتى أراه لا يزال
ينظر إلى.. ويدعونى.. يدعونى إليه.. الخنجر..

وجذب الخنجر يدى نحوه.. وطوى أصابعى حول مقبضه.. ثم
رفع ذراعى، وهوى بنفسه على خشبة المكتب..

ولا أستطيع أن أفك أصابعى من حول مقبضه.. كأنها التصقت به
بمغناطيس.. وهذا الشىء بدأ يتحرك فى صدرى.. إنى أكاد أسمع
يتنآب مستقيظًا من النوم.. وأكاد أراه داخل صدرى يمد ذراعيه
ويتمطى..

وفجأة دخلت خادمتنا سنية إلى الغرفة.. وإذا بالخنجر يشدنى
من فوق مقعدى، ويرفع ذراعى فى الهواء، ثم يهوى بنفسه
على سنية..

ورأيتها..

رأيتها تحت أقدامى والدماء تنزف منها.. وسمعت ضحكاً.. لا
أدرى هل أنا الذى ضحكت أم الخنجر..
ولكنه كان ضحكاً كالصراخ.
ولا أذكر شيئاً بعد ذلك..
وأفقت وأنا صريع الحمى.. وعلمت أن سنية لم يقتلها الخنجر..
فقد أصابها فى كتفها وفى رقبتها..
وربما عرف أبى أيامها أنى مجنون.. ولكنه أخفى جنونى.. أبت
عليه كرامته، أن يعلن جنونى.. واستطاع أن يسوى الجريمة مع أهل
سنية.. عالجها ودفع لها تعويضاً.. وكان يقول لمن سمع الخبر إنى
كنت مرهق الأعصاب من أثر المذاكرة، وأن سنية أثارتنى، ولكن أمى
صممت أن تدعو الشيخ إدريس ليطرد عنى العفاريت التى تركبنى..
وجاء الشيخ إدريس.. وقرأ أوراده فوق رأسى، وأحرق من حولى
البخور، ثم اختلى فى إحدى حجرات البيت ليلة كاملة وهو عار من
كل ثيابه.. بلبوص.. ليس معه إلا مبخرة، وصينية عشاء فاخرة..
وخرج الشيخ إدريس علينا فى الصباح – بعد أن ارتدى ثيابه –
ليقول لنا إن الجن تطلب منى أن أذبح فى كل يوم فرخة.. أن
أذبحها بيدي..

إن كلام الجن لا يخلو من المنطق.. إنهم يريدون أن يداووننى
بالتى كانت هى الداء.. يريدون أن يشفونى من ذبح الناس بأن
يعودونى ذبح الفراخ.. منطق..

ولكنه منطلق فارغ..

إنهم لا يعلمون أنى لا أريد أن أذبح لا الناس ولا الفراخ.. أنا لا أريد أن أقتل.. السكين هي التي تريد أن تقتل.. البلطة هي التي تريد أن تقتل.. المسدس يريد أن يقتل.. الدبابة تريد أن تقتل.. القنبلة تريد أن تقتل.. الصاروخ يريد أن يقتل.. أما أنا فلا.. لا أريد أن أقتل.. صدقوني أننى لا أريد أن أقتل..

ولكن أُمى الطيبة مقتنعة بكلام الشيخ إدريس، وتريدنى أن أذبح فى كل يوم فرخة..

يا أُمى.. قليل من الذكاء.. لو أن ذبح الفراخ يعوض عن ذبح الناس، لكان معنى ذلك أن الحروب لا تقوم إلا لأن الناس لا تجد فراخًا تذبحها.. ولكن الحروب تقوم.. ويذبح الناس بعضهم بعضًا. ويذبحون أيضًا الفراخ والحمام والبط والخراف والجاموس.. والعصافير..

يا أُمى يا طيبة.. لا تضعى فى يدى السكين. أتوسل إليك.. لا تضعى فى يدى السكين.. إن السكين التى تذبح الفرخة تذبح أيضًا الناس.. قد تذبح أبى.. أخى.. ابن عمى.. حتى أنت يا أُمى، قد تذبحك السكين التى تذبح الفرخة..

إنها سلاح يا أُمى..

والسلاح يطول.. كما يقول الناس.. السلاح يطول، حتى على صاحبه..

أنا الآن موظف..

ولا أحد يدري بجنونى..

وفى كل صباح أنظر إلى الجندى الذى يقف على باب الوزارة ،

وقد علق مسدسه على جانبه ، نظرة إعجاب وتقدير.. بل تقديس..

إنه بطل..

بطل كبير..

لا لأنه يحمل سلاحًا..

ولكن لأنه لا يستعمل سلاحه..

إنه بطل لأنه يملك سلاحه ، وليس سلاحه هو الذى يملكه..

وأنا خائف..

خائف دائماً..

خائف على الناس.. من جنونى..

صائد الغزال..

ابنى محمود فى السابعة عشرة من عمره، وبرغم ذلك فهو زير نساء.. دون جوان.. فالنتنيو.. عمر الشريف.. وأراه كل يوم يقف أمام المرأة، يسبب شعره.. ويستعرض عضلاته.. ويهندم ثيابه.. ويدق جرس التليفون، وأسمع صوت صبية صغيرة.. أقدر أكلم محمود من فضلك.. وينتفش صدرى كالديك الرومى فرحاً بابنى محمود.. وأرفع صوتى كأنى أسد يزأر، وأصيح به.. تليفون علشانك يا محمود.. ثم أقف لأسمعه يحدث البنت فى خيلاء.. إنه واد تقيل يحدث البنات كأنه ربهن الأعلى.. ولكن محمود لا يتركنى أتمتع بسماع حديثه طويلاً، إنه يأخذ التليفون، ويختفى به فى غرفته، ويغلق الباب وراءه..

إنى فرح بمحمود..

فرحتى بشبابى..

أنا أيضاً كنت فى شبابى، زير نساء، .. دون جوان.. فالنتنيو.. ولكن.. كانت مهمة الزير، أو الدون جوان أصعب على أيامى.. لم يكن عندنا تليفون.. ولم تكن البنات قد خرجن إلى المصانع والمكاتب والجامعات.. ولم تكن البنات تذهب إلى السينما وحدها.. أبداً.. إن الدون جوانية هذه الأيام هواية سهلة، كقزقة اللب..

أما على أيامنا فكانت تتطلب ذكاء وصبراً، وحرفة.. كان صيد البنت أصعب من صيد الأسد!

وكنت فى شبابى أسكن فى حى الدراسة.. وكانت لى ميزة كبيرة على جميع شبان الحى.. فقد كنت ساقط بكالوياء.. مثقف يعنى.. وكنت موظفاً فى وزارة الأشغال.. كاتب أرشيف.. وكنت أرتدى بدلة وطربوشاً.. أفندى يعنى.. ثم إنى كنت وسيماً، أنيقاً، فهلويماً.. كنت أملاً كبيراً لكل بنت من بنات الحى.. ولكنى لم أكن أصطاد فى حيننا.. عيب.. ما يصحش.. على أيامنا كان الشاب يغار على بنات الحى كلهن غيرته على أخته، وعلى أمه.. فلا يسمح لنفسه بأن يتعرض لهن.. ولا يسمح لغريب.. الغريب الذى يتصدى لبنت من بنات الدراسة، وقعته سوداء..

كانت أماكن الصيد المفضلة عندى هى شارع الموسيقى، والغورية وبين الصورين، ثم شارع الأزهر..

وكانت الجميلات على أيامنا يختبئن فى الملاءات اللف.. كل بنات هذه الأحياء كن يلبسن الملاءة اللف.. وكان هناك كثيرات من جميلات الأحياء الأخرى يفدن على الموسيقى والغورية وهن مرتديات الزى الإفرنجى.. الفستان.. والبالتو.. ولكنى كنت دائماً - وما زلت - أفضل الملاءة اللف.. الملاءة اللف لها طعم آخر.. إنها شىء كقشرة الموزة المعسلة.. فيها رخاوة.. وفيها أنوثة.. أنوثة

ناعمة.. سايحة.. وفيها إثارة الكنز المخبأ الثمين.. الملاءة اللف
هى المرأة.. المرأة بكل ما فيها من سحر.. وروعة.. وغموض..
وأحلام.. إنها تلف القمر فى سواد الليل.. تلف النور فى الظلام..
يا أرحم الراحمين.. أموت فى اللف.. واللف يتعب.. وقد كنت
أتعب كثيراً.. كنت أمشى وراء البنت ساعات.. وأحياناً أياماً..
أدخل من دكان إلى دكان.. ومن شارع إلى شارع.. ومن حارة إلى
حارة.. وعيناي الظامتان لا ترتويان من الجسد الملفوف الذى
يتلوى أمامى.. والملاءة مشدودة حوله تبرز كل خط فيه.. والذراع
البضة تطل منها حيناً، وتختفى حيناً كأنها عمود من نور البرق
يشق كبد الليل.. والكعبان يرقصان فوق الشبشب المطرز كأنهما
كعبا غزال.. رقيقان.. مشربان بالحمرة.. شيهان كقلب التفاحة..
يتاكلوا أكل.. يا باشا.. يا أرض احفظى ما عليكى.. يا خويا رد
علينا.. يا جميل ارحم.. وبعدين معاك يا واد يا تقيل.. و.. وكل
كلمة من هذه الكلمات لها معنى خاص، وتوقيت خاص.. ومناسبة
خاصة.. إنك لا تستطيع أن تلقى الكلام هكذا جزافاً لمجرد أنك
تحفظه أو لمجرد أنك وقح.. لا.. إنك بذلك كأنك تطلق الرصاص
فى الهواء، فيفر الغزال.. كل كلمة لها معنى، ولها مناسبة.. «يا
باشا» غير «يا جميل».. و.. «ارحم بأه» تقال فى مناسبة تختلف
عن «التقل صنعة».. والصيد الماهر هو الذى لا يطلق الرصاص إلا
فى المليون..

وكانت كل رصاصاتي تصيب..

وكننت أتلقى الجواب من حركات الملاءة اللف.. إن الملاءة
اللف لها لغة خاصة.. ولها قاموس خاص.. يحتفظ به المتخصصون
فى صيد الغزال من أمثالى.. علم واسع، يحتاج إلى دراسة وخبرة
وصبر طويل..

هل تريد أن تعلم شيئاً من قاموس الملاءة اللف؟

اسمع يا سيدى..

إذا فردت البنت ملاءتها بذراعها الأيمن ثم عادت وضمتها
حول جسدها.. فمعنى هذه الحركة.. حصلنى..

وإذا رفعت يدها وشدت طرف الملاءة من فوق رأسها، فمعنى
هذا.. كلامك على رأسى..

وإذا ضمت الملاءة على صدرها بكلتا ذراعيها وبحيث تخفى بها
كل صدرها، فمعنى هذا.. أبويا ورايا..

وإذا رفعت يدها، وعدلت عروسة البرقع فوق أنفها، فمعنى هذا
أنت فى عنيه..

وإذا طرقت بكعب الشبشب أثناء سيرها.. فمعنى هذا.. وقعتك
سودة..

و..

كل حركة، إشارة لها معنى..

إنه قاموس..

علم واسع..
والله أعلم..

ولم يحدث لى إطلاقاً أن طرّع كعب الشبشب فى وجهى..
أبدًا.. بعد كلمة أو كلمتين، تطلق على البنت سهم عينيها، وما
تكاد تلمحنى حتى تفرد ملاءتها بذراعها اليمين.. وحصلنى..
بعض البنات كن لا يحتملن كلمة والثانية.. وبعضهن كن يعذبننى
وراءهن ساعة وساعتين.. وأحياناً يوماً ويومين.. والصبر يا جميل
جميل.. وينتهى صبرى دائماً بأن تفرد البنت دائماً ملاءتها
بذراعها اليمين.. وحصلنى..
وأحصلها..

تسير فى شارع الموسيقى وأنا وراءها، حتى نصل إلى ميدان
العتبة الخضراء.. وكان ميدان العتبة على أيامنا هو بر الأمان..
تستطيع فيه البنت أن تتحرر من تحفظها بعيداً عن أعين تجار
الموسكى والغورية، وحماشة أولاد البلد.. وتسمح لى بأن أسير
بجانبيها.. ونركب عربة حنطور - أو تاكس - إذا كنا فى أول
الشهر.. أو ندخل حديقة الأزبكية.. وفى الجبلالية أمان من
العوازل، وعسكرى البوليس.. ثم أنا وبختى.. يا طلعت على ما
قسم، يا إما جميلة دمها خفيف وقرفتها خفيفة وبحبوحة.. لقد
وقعت لى قطع فى منتهى الجمال.. غزلان يا بنى.. غزلان.. وأنا
الصيد.. صياد الغزال..

إلى أن وقعت فى قسمتى ، نفيسة..
شى لله يا ست..

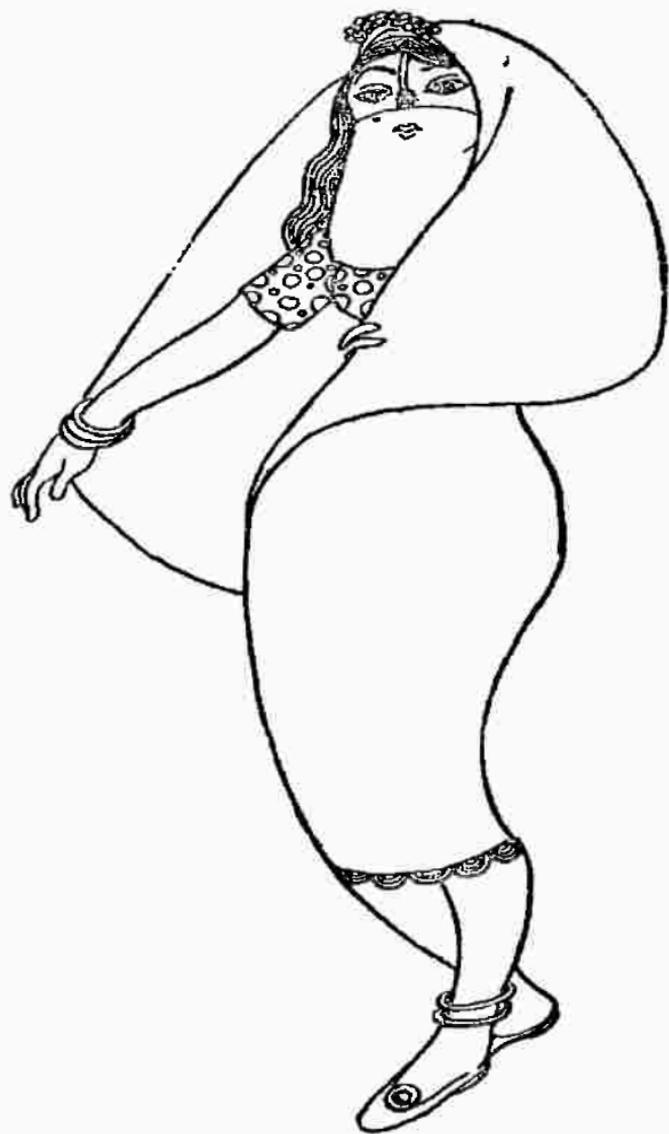
اللهم اجعل كلامى خفيف عليها..

رأيتها أول مرة فى شارع الموسكى أيضاً.. قوامها صغير زى
اللعبة.. والملاءة اللف تلتف حولها كأنها ستأكلها أكلا.. وجسدها
مشفى من غير عضم.. ومشيتها.. يا أرض احفظى ما عليكى.. كأن
كل قطعة منها تمشى وحدها.. صدرها يسبقها.. وعجزها يجرى
خلفها.. وعندما لمحت عينيها تطلان من فوق البرقع خيل إلى أنى
أصبت.. إيه ده يا جدعان.. دول مش عنين دول.. دول نجوم.. دول
دنيا.. عالم.. تهت فى عنيتها يا رجاله.. خدنى وراكى يا ست قبل
ما اتوه..

ومشيت وراءها..

وأطلقت أول رصاصاتى.. هدى الخطوة يا جميل.. ثم رصاصة
أخرى.. وبعدين معاك بأه، تعبنا.. ورصاصة ثالثة.. ورابعة..
ولا حركة..
ولا إشارة..

مشيت وراءها شارع الموسكى كله إلى أن وصلت إلى ميدان
الحسين، ثم انحرفت إلى الباب الأخضر.. واضطرت أن أقف..
فالمنطقة التى تقع فيما وراء الباب الأخضر لا تصلح للصيد.. إنها
منطقة تحتلها شلة من الفتوات، مرهوبى الجانب..



وعدت يائساً..

ولكنى فى اليوم التالى لمحتها.. نفيسة.. فى شارع الموسيقى..
فى نفس الموعد.. رب صدفة خير من ميعاد.. ومشيت وراءها..
برضه كده يا جميل.. همًا علموك التقل ده فين.. أموت يعنى ولا
أموت.. يا واد بحبها شويه..

ولا حركة..

ولا إشارة..

إلى أن وصلنا إلى الباب الأخضر..

وعدت وأنا مصدوم..

وفى اليوم الثالث..

يا خويا ارحم بأه.. والله ما بنام الليل.. و..

ولا حركة.. ولا إشارة.. إلى أن وصلنا إلى الباب الأخضر..

الباب الأسود.. الباب المهيب.. وعدت وأنا أشعر بأنى أهنت.. بأه

بت مفعوسة زى دى تغلبك الغلب ده كله.. عيب عليك يا حسنى،

يا صياد الغزال..

واليوم الرابع..

والخامس..

أسبوعين.. ثلاثة.. وقد أصبحت المسألة خطيرة.. البت جننتنى

بجد.. ما بنامش واللى خلقك..

ثم كان يوم..

ومرت نفيسة.. تأخرت يومها قليلا.. ومشيت وراءها وأنا أشعر
بأنى قد فقدت الثقة فى نفسى.. صوتى ضعيف منهك.. وعيناي
الوقحتان ماتت فيهما الوقاحة.. وأمشى كأنى منساق وراء قدرى..
تأخرت ليه النهاراة يا جميل.. يا جميل يا أبو قلب قاسى.. ارحم
يا سيد الراحمين.. ولا يعنى أموت..
وفجأة..

فردت نفيسة ملاءتها بذراعها اليمين وعادت وضمتها..
جاءت الإشارة..

حصلنى..

أحصلك لآخر الدنيا يا دنيا.. يا ترى آخرة الصبر ده كله إيه..
ورفعت نفيسة يدها ولمست عروسة البرقع..
إشارة أخرى معناها: «أنت فى عنيه»..
تسلم عنيكى يا ست الكل.. يا أحلى من الفل.. دوختنى يا بتاع
الدوخة أنت.. قوللى على فين وأنا وراك..
وعادت تفرد ملاءتها بذراعها اليمين..
حصلنى..

ما تخفش يا حتته من جوّه.. محصلك..

ولم تتجه نفيسة إلى الباب الأخضر.. دخلت من الموسكى إلى
النحاسين.. ثم انحرفت إلى بيت القاضى.. وبين كل خطوة وأخرى
تعطينى إشارة.. حصلنى.. يا خويا محصلك.. بس على فين..

وخيالى يسبقنى.. ربما أخذتنى إلى بيت صديقة من صديقتها..
ربما كانت تعرف امرأة عجوزا تستطيع أن تأوينا ساعة شهد..
ساعة حظ.. آه يا نفيسة.. ده أنا حاكلك أكل..

تخرج من حارة وتدخل حارة.. وعيناي مركزتان على ظهرها..
وكعبي قدميها.. وكل ثنية من جسدها.. والنار تشتعل فى عروقي..
عقلي فى النار.. قلبى فى النار.. نار وقايدة يا جميل.. خلصنا بأه..
وفجأة..

وأمام دكان بقال..

استدارت نفيسة إلىّ، وألقت بملاءتها من فوق رأسها ثم قذفت
بفردة الشبشب من قدمها، والتقطتها بيدها من الهواء.. ثم هجمت
علىّ.. وهى تصرخ.. يا افندى يا عرّه.. يا إبره مصديه، يا ماسح،
يا ماسخ.. يا.. وانهاالت علىّ ضربا بالشبشب.. وخرج البقال من
دكانه.. وانشقت الأرض وانطلق منها عشرات.. كبار وصغار.. كلهم
يضربوننى.. وصوت نفيسة، أعلى من صوتهم.. وشبشبها يحكم
التصويب على رأسى خيرا من صفعاتهم ولكماتهم.. ولم أصرخ..
عيب يا حسنى.. ماتشمتش فيك العيال.. ووقفت ألقى شبشب
نفيسة ولكمات أهل حتتها، وعيناي مركزتان على وجهها.. إنها
جميلة.. حتى وهى تروح.. جميلة بنت الإيه.. جميلة ولو أنها
راجل.. وصدمت نفيسه بهدوئى.. وقوة احتمالى.. والتقت عيناها
بنظرتى الثابتة التى تأكل وجهها.. وأحسست أنها بدأت تلهث..

وتقاوم شيئاً في داخلها.. أحسست أنها تعود أنثى.. بنتا.. ثم سمعت صوتها وهي تفتعل الحزم والمجدعة.. وتشخط في أهل حقتها:

- بس يا دوكشه.. بس يا واد أنت وهوّه.. كفايه يا حماده.. وكف الضرب عني..

ونظرت إلى وهي تلهث كأنها تبذل مجهودا عنيفا لتحفظ بقوة شخصيتها قبل أن تذوب أمامي:

- إنت عايز إيه منى يا جدع انت. بقالك شهر داير ورايا.. عايز أيه.. ما تتكلم..

وقلت في هدوء.. وأنا أبتسم لها ابتسامة ساخرة، أسخر بها من «مجدعتها».. خليك صياد يا حسنى إوعى تنخ.. وقلت كلمة واحدة: - عايزك..

تعجبني ياواد يا جامد..

وقالت نفيسة في غيظ:

- شوف الراجل وبجاحتته عايزنى يعنى أيه يا جدع انت.. قلت:

- عايزك وخلص..

قالت:

- اللى عايزنى يتجوزنى على سنة الله ورسوله..

قلت:

- وماله.. نتجوز..

ونظرت إلى كأنها لا تصدقنى، قالت:

- تلاقيك بتتجوز كل يوم واحده..

قلت:

- أبدا وحياة شبشبك.. ده بس علشان خاطر ك يا جميل..

وقالت فى حدة:

- طيب اتفضل اتجوزنى.. آدى أبويا، وآدى أخويا..

وشدت البقال من بين الزحام.. أبوها.. وأشارت إلى حمادة

أخوها..

وقلت:

- وفين أمك؟..

ورفعت حاجبها الأيسر، وقالت كأنها تسخر منى.

- تعيش انت..

قلت:

- عرفت تخلف.. الله يرحمها..

ثم التفت إلى أبيها وإلى أخيها، وقلت:

- تحبوا نكتب دلوقتي.. ولا نجيب امى الأول.

وقالت وهى ترفع حاجبها الآخر وتلم ملاءتها حول جسدها:

- لا.. روح هات امك.. ياروح امك..

قلت:

- يبجى معايا حمادة.. رهن.. أحسن أرجع ملقكيش..
وقالت وهى تبدو مسيطرة على الحارة كلها:
- روح معاه يا حماده.. ليتجوز فى السكه..
قلت كأنى أصبحت زوجها فعلا:
- إعملى لى كباية شاي على بال ما نرجع.. أنا احب الشاي
تقيل..

وهممت أن أنصرف، فصاحت بى:
- تعالى هنا يا فندى.. ما ترجعش لامك بالشكل ده..
وجذبتنى إلى دكان أبيها البقال، وأمسكت بفوطة بللتها بالماء،
وأخذت تمسح وجهى من أثر الكدمات، وهمست:
- واسم حضرتك أيه بأه؟
قلت:

- حسنى.. حسنى عبد العاطى..
قالت:
- ويا ترى بتشتغل شغله تانيه.. ولا بس معكساتى..
وضحكت قائل:
- موظف فى وزارة الأشغال.. ماهيتى تمانيه جنيه وكسور..
وعدت أملاً عينى من وجهها.. جميلة بنت الأيه.. وأنا صياد..
صياد الغزال.. لا تستطيع غزالة أن تفرمنى..
وتزوجت نفيسة..

ومن يوم أن تزوجتها إلى اليوم وأنا أخاف من شبشبها.. وقد
أقلعت عن صيد الغزال.. غزالتى تساوى كل ما فى شارع الموسيقى
من غزال.. وتفرغت لمستقبلى.. درست من جديد، ونلت البكالوريا
ودرست الحقوق وأنا موظف فى الأشغال، ونلت الليسانس.. وأنا
الآن محامى.. ونسكن فى العباسية.. وعندنا تليفون وتلفزيون..
وسيارة نصر.. ومحمود.. نفيسة هى أم محمود..
وأنا لا أخاف على محمود لأنه دون جوان..
سيجد حتما الفتاة التى تضربه بالشبشب..

القضية الأخيرة..

كانت هوايتي منذ كنت طالبا في المدرسة الثانوية، هي الخطابة، وكتابة البحوث الاجتماعية.. والذي يهوى الخطابة نادرا ما يهوى كتابة البحوث.. فالخطابة مواجهة الجماهير، وكتابة البحث تتطلب العزلة عند الجماهير.. والخطابة هي أن تصع عقلك على طرف لسانك، والبحث يتطلب أن تضع عقلك على طرف قلمك.. الخطابة تعتمد غالبا على إثارة العواطف.. على إقناع العاطفة.. وكتابة البحث تعتمد دائما على إقناع العقل..

هويتان متنافرتان، وبرغم ذلك فقد جمعت بينهما.. وكنت وأنا طالب في المدرسة لا تفوتني مناسبة سواء كانت وطنية أو اجتماعية إلا وأقف فيها خطيبا بين زملائي.. وفي لحظات أملك عواطفهم، وأهزها هزاً عنيفا.. أبكيهم على زميل توفي.. أو أحمسهم للخروج في مظاهرة.. أو ألهم أكفهم بالتصفيق لفريق كرة القدم عندما نقيم له حفلة تكريم في مناسبة فوزه.. وفي الوقت نفسه كان لي في كل أسبوع بحث مكتوب عن إصلاح نظم المدرسة.. أو عن التنشيط الاجتماعي.. أو.. أو.. بحوث أقدمها لناظر المدرسة أو للأساتذة المشرفين، فتلقى اهتمامهم وإعجابهم.. وقادتنى هوايتي إلى كلية الحقوق..

ولم أكن أحلم بأن أكون وزيرا، أو زعيما، كما كان يحلم بقية
طلبة الحقوق في عهد ما قبل الثورة.. أبداً.. كل ما كنت أحلم به
هو أن أكون محاميا.. محاميا كبيرا.. أخطب.. وأكتب البحوث
القانونية والاجتماعية والسياسية..

وتفوقت في كلية الحقوق.. وتفوقت في هوايتي.. وأصبحت جميع
الهيئات السياسية والاجتماعية داخل الكلية، وخارجها، تدعوني
إلى الخطابة في اجتماعاتها، وإلى إعداد البحوث عن نشاطها..
ولم أكن منتميا إلى واحدة من هذه الجمعيات، ولا إلى حزب من
الأحزاب.. أبداً.. كان كل ما أحرص عليه هو أن أقتنع بالموضوع
الذى أخطب فيه، أو الذى أعد بحثى عنه.. سواء كان هذا الموضوع
يهم الوفديين أو الشيوعيين أو الإخوان المسلمين.. أو.. أو.. المهم
هو عدالة القضية التى أذاع عنها.. وقد كنت حريصا فعلا على ألا
أتكلم إلا فى القضايا العادلة.. وبلغ منى الحرص إلى حد أن العدالة
أصبحت تعرف بى.. فإذا أعلن أنى سأخطب فى اجتماع ما آمن
الناس كلهم بأن القضية التى ستبحث فى هذا الاجتماع، عادلة..
وفشلت كل الوسائل التى تعرضت لها كى أشتك فى الدفاع عن
قضايا لا أومن بعدالتها.. فشل التهديد، والإغراء.. وفشل التشهير
والنفاق.. وبقيت صلبا قويا، فخورا بصلابتى وقوتى، ومكانتى
التي اكتسبتها بين طلبة وأساتذة الكلية.

وقبل أن أحصل على ليسانس الحقوق.. طبعت بطاقة تحمل اسمي.. «محمود عباس» ثم «المحامى».. كنت واثقا من حصولي على الليسانس.. وثلثه فعلا عام ١٩٤٣م بمجموع ٨٥ في المائة.. والتحقت بمكتب الأستاذ عبد التواب عبد الحى، محاميا تحت التمرين.. وذهل الأستاذ عبد التواب.. ذهل من المذكرات القانونية التى أعدها، ومن الأسلوب الجديد الذى أتبعه فى المرافعة أمام المحكمة.. أسلوب هادئ.. رنان.. يتسلل إلى قلب القاضى، حتى إذا ملكت القلب أصبح من السهل على أن أكسب العقل.. وأكسب القضية.. ولكنى كنت مصرا على ألا أقبل الترافع فى أى قضية إلا إذا اقتنعت بعدالتها.. قضايا كثيرة من التى ترد على مكتب الأستاذ عبد التواب، كنت أرفض المساهمة فيها، لا لشيء إلا لأنى غير مقتنع بعدالة موقف الموكل.. وكنت أصارح الأستاذ عبد التواب، برأى هذا، فلم يكن يغضب، بل ازداد تقديره لى، واحترامه لشخصيتى، إلى حد أنه بعد عام واحد من اشتغالى فى مكتبه، قرر لى مرتبا عشرة جنيهاً فى الشهر.. برغم أن المحامين تحت التمرين على أيامنا لم يكن من حقهم العمل بمرتب.. وبرغم ذلك..

وبرغم هوايتى.. وبرغم كل هذا النجاح الكبير.. وبرغم حلم العمر.. هجرت المحاماة قبل أن أتم فترة التمرين.. ذبحت

هو ايتى.. دفنت نجاحى.. مزقت حلم العمر.. وضحيت بالجنيهات العشرة.. كانت هذه الجنيهات العشرة تعنى شيئا كبيرا بالنسبة لى.. فقد كان والدى يعطينى حتى ذلك الحين ثمانية جنيهات فى الشهر إلى أن أستطيع أن أعول نفسى.. وكانت أمى قد ادخرت لى مائة جنية لتدفعها مهرا لى عندما أتزوج ابنة عمى.. إنى أحب ابنة عمى.. ومنذ قبضت العشرة جنيهات وأنا أدخرها كلها حتى يحين اليوم الذى أنفقها فيه مع ابنة عمى بعد أن نتزوج.. ولكنى ضحيت بالعشرة جنيهات أيضا..

ماذا حدث..

حدث أن جاءنى فى بيتى الأسطى محمد أحمد محمود المكوجى، الذى يقع دكانه تحت بيتنا مباشرة.. وأبلغنى أنه قبض على ابن عمه عبد المجيد علوان، متهما بسرقة مجموعة من ولاعات السجائر.. من المحل التجارى الذى يعمل فيه.. وأقسم لى أن علوان مظلوم، وأنه ضحية اضطهاد رئيسه الذى كان يطلب منه أن يذهب إلى بيته لينظفه ولأن علوان كان يرفض، فقد دبر له الرئيس هذه التهمة.. - علوان ابن عمى فقير.. ما حلتوش حاجه.. وبيجرى ورا سبع

عيال.. غير.. أمه.. ومظلوم والله..

ولا أدرى لماذا تحمست فورا لهذه القضية..

ربما لأنها أول قضية تأتى إلى مباشرة، وباسمى، لا عن طريق مكتب الأستاذ عبد التواب.

وربما لأنى أردت أن أثبت لأهل الحى أنى أقف بجانبهم،
والأسطى محمد أحمد محمود من أكثر أهل الحى نفوذاً..

وربما لأنى أصبت بنوبة من العطف المفاجئ على عبد المجيد
علوان وأولاده السبعة..

ورفضت أن أناقش الأسطى محمد أحمد محمود فى الأتعاب..
وزهدت إلى الأستاذ عبد التواب المحامى واستأذنته فى أن أتولى
القضية بنفسى ولحسابى، فقد كان يجب أن استأذنه لأنى مازلت
تحت التمرين.. وسمح لى الأستاذ عبد التواب.. بل قال لى:

– اعتبر نفسك صاحب هذا المكتب.. كل إمكانيات المكتب
تحت أمرك..

وشكرته..

وأسرعت إلى النيابة ونسخت محضر التحقيق بنفسى. فإنى لم
أرد أن أشغل كتبة المكتب فى نسخه، مادام المكتب لن يستفيد
شيئاً فى هذه القضية..

وقرأت التحقيق بإمعان..

إن السرقة كبيرة.. مائة ولاعة ماركة رونسون.. ثمن الولاعة
الواحدة يصل إلى خمسة جنيهات.. أى أن قيمة المسروقات تصل
إلى خمسمائة جنيه.

والاتهام قوى..

لقد عثروا على ولاعتين من الولاعات المسروقة في منزل
عبد المجيد علوان..

وذهبت لزيارة المتهم في السجن، وقلت له:

- اسمع يا علوان.. قولى الحقيقة علشان أقدر اخدمك.. كل
الحقيقة..

وأقسم علوان أنه لم يسرق.. وأقسم أن رئيسه يضطهده وأنه هو
الذى سرق الولاعات ودس اثنين منها فى بيته حتى يثبت عليه
التهمة..

وأفاض علوان فى التفاصيل..

كلها تفصيل معقولة..

وعلوان رجل عجوز، تبدو الطيبة على وجهه.. والشقاء..
والفقر.. وإرهاق العمر الطويل..

وتأثرت..

تأثرت جداً..

وانتهى علوان من كلامه، ثم قال:

- أقول إيه كمان يا أستاذ.. دلنى!

ولم تعجبنى هذه الكلمة.. لم استرح لها.. ماذا يعنى.. ربما لم
أفهمه تماماً.. لا يهم.. وتبخر قلنى بسرعة وقلت لعلوان:

- إظمن.. براءة بإذن الله..

وانهمكت فى القضية..

كل وقتي..

كل عقلي..

ولا أريد أن أروى التفاصيل.. ولكنى استطعت بعد جهاد عنيف
أن أفرج عن علوان بكفالة خمسين جنيها..

ولم يكن مع علوان هذه الخمسون جنيها..

وقريبه الأسطى محمد أحمد محمود، لم يستطع أن يدفع أكثر
من خمسة جنيهاً، فذهبت إلى أمي وأقنعتها بأن تعطيني
خمسين جنيهاً من مهر ابنة عمي.. على أن أردها بعد أن يحكم
ببراءة المتهم.. إنى واثق من أنى سأحصل له على البراءة..
ورفضت أمي.. وألححت.. لأول مرة أختلف أنا وأمي.. وتماديت
في الإلحاح محاولاً إقناعها بأن الأمر متعلق بمستقبلي كمحام..
وأخيراً خضعت أمي بلا اقتناع وأعطتني الخمسين جنيهاً، دفعتها
في خزانة المحكمة ليفرج عن علوان.. وأفرج عنه..

وقال لى علوان يومها وفي عينيه لمعة غريبة، خيل إلى برهة
أنها لمعة خبث..

— كله يترد لك بإذن الله يا أستاذ.. الصبر طيب!!!

ورفض صاحب العمل أن يعيد علوان إلى عمله، فأعطيته خمسة
جنيهاً قرصاً إلى أن يستطيع أن يجد عملاً آخر.. وأعطيته خمسة
جنيهاً أخرى.. وخمسة جنيهاً تالفة.. لقد ذهبت إلى بيته
ورأيت ما فيه من فقر.. رأيت أولاده السبعة حفاة.. عراة.. تطمس

القذارة وجوههم.. ولم أكن أستطيع أن أتركه دون أن أمد له يد العون.. إنه مظلوم.. إنى واثق أنه مظلوم..

وعاد عنوان يردد:

– كله يتردد لك يا أستاذ.. الصبر طيب..

ولم أفهم ما يعنيه..

وحماسى لا يفتر..

بل إنى كدت أتشاجر مع القاضى مرة لأنه أراد التأجيل.. إن حالة عنوان لا تحتتمل التأجيل.. إنه لا يستطيع أن يعمل والاتهام معلق فوق عنقه.. وأولاده جياع..

وانتقل حماسى إلى زملائى الذين يعملون معى فى المكتب.. إنهم

يدرسون القضية معى.. ويدلون بآرائهم.. والكتابة يساعودنى..

صحيح أنى أعطيت واحدا منهم جنيهين.. والثانى جنيها، عندما

كلفتهم بمهمات تتعلق بالقضية.. ولكنهم كانوا متحمسين.. بل

إنى نقلت الحماس إلى المحكمة كلها.. أصبحت أعرف هناك باسم

«محامى عنوان»!!

وبعد ستة أشهر..

حكمت المحكمة..

براءة..

لم يكن الأمر سهلا.. أبدا لم يكن سهلا أن أدحض أدلة الاتهام

القوية، ولقد هنأنى الأستاذ عبد التواب على هذا الحكم.. وزملائى..

واعتبرت أنا هذا الحكم هو الحجر الأساسى فى بناء مستقبلى.

وبعد أيام..

جاءنى علوان فى بيتى، وهو يحمل فى يده لفافة كبيرة، وقال لى بعد أن كرر شكره لى:

- أنا راجل حقانى يا أستاذ.. وانت عملت كتير.. جميلك ما ميتينسيش.. ودول ميت ولاعه.. يبقى لك منهم خمسين..

ثم فتح اللفافة التى فى يده.. ولمعت أمام عينى الولاعات..
الولاعات المسروقة..

وصرخت:

- إيه دول يا علوان..

وقال علوان ضاحكا:

- دول الولاعات إياهم.. كنت مخبيهم عند مراتى الجديده..
والحقيقة أنا كان نفسى ابيعهم بمعرفتى واجيب لك تمنهم..
إنما السوق واقف.. وأحسن الواحد يتقل.. قلت اجيب لك نصيبك
تتصرف فيه بنفسك..

ولم أرد..

بدأت أشعر بدوار..

وقال علوان:

- ودى فوق البيعه.. إحنا لنا بركه إلا انت يا أستاذ..

ووضع أمامى قطعة حشيش..

وصرخت:

- شيل الحاجات دى من قدامى.. شيلهم بقولك.. شيلهم احسن اوديك فى داهيه..

وارتفعت نظرة غبية مذهولة فى عينى علوان.. وقال:

- جرى إيه يا أستاذ.. ما هو متبقاش طماع.. كفايه كده قوى.. وعدت أصرخ:

- أخرج بره.. أخرج بره..

وجمع علوان الولاعات، وأعاد قطعة الحشيش إلى جيبه، واختفى من أمامى..

وسقطت فى هاوية الصمت..

لا أريد أن أتكلم..

لا أريد أن أرى أحدا.. ولا أسمى.. ولا خطيبتى.

والم ساحق يفرى صدرى.. ولم أكن أتألم لأنسى وقفت بجانب مجرم وبرأته.. بل لأن علوان كان طول هذه الشهور، يعتقد أنى أعرف أنه سارق الولاعات، وأنى كنت أدافع عنه لأطالبه بنصيبى فى المسروق..

وأفقت من نوبة الصمت..

وعدت إلى المكتب..

وحاولت أن أبدأ من جديد.. ولكنى لم أستطع.. لقد فقدت ثقتى فى نفسى.. وثقتى فى الناس.. لم أعد أصدق أحدا.. ولا كلمة.. ولا حتى الأستاذ عبد التواب نفسه..

وهجرت المحاماة..

إنى الآن موظف فى شركة.. موظف صغير..

وعيبى أنى لا أصدق أحدا.. وهو عيب أبعدنى عن الناس.. ولكنه

يحمينى منهم..

إنى أخاف من الناس..

أخاف..

ولم أتزوج ابنة عمى.. لأنى أخاف..

الحب والعدالة

يا حضرة القاضى..

أرجوك.. دعنى أتكلم.. إنى لا أستطيع أن أحتمل كل هذا الكلام الذى يقال هنا.. سواء الكلام الذى يقوله الدفاع أو كلام ممثل النيابة.. إنهم يتكلمون على أساس أنى ارتكبت جريمة.. وكان يجب أن يسألوا أنفسهم أولاً.. هل هناك جريمة؟.. أين هى الجريمة يا سيادة القاضى.. إن الجريمة تعنى الاعتداء.. فأين هو الاعتداء.. من هو الضحية فى هذه القضية.. من هو المعتدى عليه.. من الذى أصابه أذى منى.. إن السيد ممثل النيابة يقول إنى اعتديت على النظام العام.. وصدقنى، يا سيادة القاضى، أنى لا أدرى ما هو هذا النظام العام.. ولم يسبق لى أن تشرفت بمعرفته.. ولكن كل ما أعرفه أن أى اعتداء يجب أن يكون له دافع وهدف.. فما هو الدافع الذى يمكن أن يقودنى إلى الجريمة.. وما هو الهدف الذى يمكن أن أصل إليه من وراء هذه الجريمة.. السيد وكيل النيابة يقول إنى ارتكبت تزويراً فى أوراق رسمية.. ماذا استفدت من هذا التزوير إن كان حقيقة أنى وزورت.. ما هى حاجتى إلى هذا التزوير.. لا يا حضرة القاضى.. أرجوك.. أتوسل إليك.. لا تمنعنى من الكلام.. إنى لا أستطيع أن أسكت.. ولا أستطيع أن أنتظر حتى

يأتى دورى فى الكلام.. بل لا أطيق أن أسمع كل هذه النصوص
القانونية تنطلق إلى أذنى كالصواريخ.. نح القانون جانباً.. دعك من
القانون الآن يا سيادة القاضى.. واستمع إلى كإنسان.. إنك لم تجلس
على منصة القضاء إلا لأنك إنسان كبير.. الإنسان فيك هو الأصل لا
القاضى.. الإنسان فيك أكبر من القاضى.. وأنا أخاطب فيك الإنسان،
وأترك مهمة مخاطبة القاضى للأستاذ المحامى الذى يترافع عنى.
شكراً يا سيادة القاضى على سعة صدرك.. إنى عاجز عن الشكر..
والآن..

لماذا أنا هنا فى ساحة عدالتكم..

إنى هنا لأنى أحببت هدى، زميلتى فى العمل.. لا أدرى متى
أحببتها.. ربما منذ اليوم الأول الذى التحقت فيه بالعمل وعينت
كاتبة على الآلة الكاتبة فى قسم الحسابات.. لقد رفعت عينى إليها
وخيل إلى ساعتها أنى لن أستطيع أبداً أن أرخى عينى عنها.. إنها
جميلة يا سيادة القاضى.. رقيقة.. هادئة.. ولكنها ليست ضعيفة..
إنها شخصية ثابتة حلوة.. وابتسمت لها.. ربما كانت أول ابتسامة
أحس بها تملأ قلبى.. وتعيش فيه.. إن نفس هذه الابتسامة لا
تزال فى قلبى حتى اليوم.. حتى هذه اللحظة.. إنى أبتسم الآن يا
سيادة القاضى أبتسم لها.. لهدى..

وهى أيضاً، ربما أحببتنى منذ اليوم الأول.. فقد بدأ كل منا
يقترّب من الآخر فى خطى سريعة طبيعية، لا افتعال فيها ولا

تعتمد.. قوى أكبر منا تشد أهدنا للآخر.. إلى أن تنبهنا فجأة إلى أنه الحب.

وبدأنا نقاوم..

نقاوم الحب..

لقد أشفق كل منا على الآخر من حبه.. خفت عليها من حبه.. وخافت على من حبه.. فقد كان كل منا يعلم مدى العذاب الذي ينتظر الآخر.. كل منا يرى الصخرة الهائلة التي يمكن أن يتحطم عليها حبنا في آخر الطريق..

فأنا مسيحي.. مسيحي صريح.. اسمى لويس إسكندر منقريوس.. وهى، هدى عبد الفتاح.. مسلمة..

وأقسم لك يا سيادة القاضى أننا قاومنا كثيراً.. أكثر مما يحتمل أى إنسان يحب.. قاومنا إلى حد أن قررنا أن يبتعد أحدنا عن الآخر.. لم نعد نلتقى.. بل لم نعد نتبادل الكلام، ولا حتى تحية الصباح.. كانت تدخل إلى المكتب فلا تقول لى صباح الخير.. وأخرج فلا أقول لها سعيدة.. ووصل الأمر إلى حد أنى طلبت نقلى من قسم الحسابات.. وفى نفس اليوم طلبت هى أيضاً نقلها.. وصدر قرار بنقلى أنا إلى قسم المشتريات.

واستمرت هذه القطيعة ستة أشهر.. ستة أشهر يا سيادة القاضى والحب فى قلبينا.. فى رأسينا.. فى أعيننا.. فى أعصابنا.. وأنا أذبل.. وهى تذبل.. نكاد نموت يا سيادة القاضى..

لا يا سيادة القاضى.. إنى لا أبالغ.. ولا أتكلم كلاماً عاطفياً
منمقاً.. أبداً.. إن العاطفة هى واقع.. هى جسم الجريمة فى هذه
القضية إذا أرادت النيابة أن تسميها جريمة.. ولم نكن نستطيع
أن نعيش بعيداً عن واقعنا.. أعنى بعيداً عن عواطفنا.. عن حبنا..
فقررنا أن نستسلم.. وعدنا.. عدنا إلى الحب.. إلى دنيانا.. إلى الهواء
الذى نستمد منه حياتنا..

لا تنس يا سيادة القاضى أننا قاومنا.. وأننا قاومنا إلى هذا الحد..
لماذا قاومنا؟ لأننا كنا معترفين بالتقاليد التى تحكم مجتمعنا.. لأننا
لم نكن نريد أن نتحدى المجتمع.. ولا أن نتحدى شريعة كل منا..
كنا نحترم الشرائع.. ونحترم المجتمع.. ونحترم أهلى وأهلها..
وكان يمكن أن نرتاح لو أننا استقطعنا أن نستمر فى المقاومة..
ولكننا لم نستطع.. لأن حبنا كان أقوى من أهلى وأهلها.. وأقوى
من المجتمع.. وهو ليس أقوى من الشريعة.. ولكن الشريعة.. كل
الشرائع.. هى شرائع حب.. الله هو الحب.. وقد كان حبنا نظيفاً
نقياً بحيث نفخر بأن ننسبه إلى الله.. الله.. الله الواحد.. إله المسلمين
والمسيحيين.. مهما تعددت شرائعه..

ماذا نفعل بهذا الحب يا سيادة القاضى..

كان أمامنا طريقتان..

إما أن نبقية سراً، خوفاً من الناس ومن الأهل، إلى أن ينقلب إلى
خطيئة، لا نرضاها لحبنا..

وإما أن نعلنه للناس.. ونسير به فى الطريق الذى رسم للحب
منذ بدء الخليقة.. أن تكون لى وأكون لها.. أى أن نتزوج..
ولكن نتزوج، يجب أن يبدل أحدنا دينه..
إما أن أعلن إسلامى..

وإما أن تقتصر هدى.. تعلن اعتناقها للدين المسيحى..
واسمح لى يا سيادة القاضى أن أتكلم بصراحة أكثر.. وأنا واثق
أن سعة صدرك، وسمو تفكيرك ومشاعرك، يمكن أن تفسح لى مجال
الصراحة.

لقد كنا نعتقد أن تغيير أحد منا لدينه، ما هو إلا مجرد إجراء
شكلى مضطرين إليه، ولن يؤثر على معتقدات أحد منا.. سواء
أسلمت أنا، أو تنصرت هى.. فسيبقى كل منا محتفظاً بحقيقة
مشاعره ومعتقداته.. الشاعر والمعتقدات التى تعيش فى قرارة
صدره، والتى تنظم صلته بالله، ولا يملكها أحد إلا هو، ولا يحاسبه
عليها أحد إلا الله..

كان هذا هو تفكيرنا فى مبدأ الأمر..
ولكننا عندما تعمقنا أكثر اكتشفنا أن الأمر لا يمكن أن يكون
بهذه السهولة..

فتغيير أحدنا دينه سيسبب جرحاً لأهله، ولقومه.. أمى
وأمه.. وأبى وأبوها.. وإخوتى وإخوتها.. أى فريق نعرضه
للصدمة.. أى فريق نضحى به.. واحد منا يجب أن يضحى بأهله

وبقومه.. التضحية بهم بمعنى جرح شعورهم وتعرضهم للصدمة..
ثم هناك تضحية أخرى.. تضحية ذاتية.. فلا شك أن واحداً منا
سيضحى بجزء من معتقداته.. أو على الأقل سيضحى بمظهر هذه
المعتقدات.. بالأشياء الصغيرة التي تربينا عليها.. بالتقاليد والبدع
التي أصبحت.. إلى حد ما جزءاً من حياتنا.. ولا شك أن حبنا
يحتمل هذه التضحية.. ولكن لا شك أيضاً أن التضحية تؤثر في
الشخصية.. واحد منا سينازل عن قطعة من شخصيته.. ستهتز
شخصيته.. وقد يصاحبه أثر اهتزاز الشخصية طول حياته..
فمن منا يقدم على هذه التضحية..

أنا..

أو هي..

وصدقني أننا ناقشنا هذا الموضوع بصراحة، وبساطة، وحلاوة..
كان حبنا - ولا يزال - يحتمل مواجهة الواقع.. ليس فقط الواقع
المادي.. بل الواقع النفسى.. واقع أحاسيسنا النفسية.. لم يحاول
أحد منا أن ينافق الآخر.. أو يتظاهر بالاندفاع في سبيل حبه أكثر
من الآخر..

وكنت مستعداً أن أقبل التضحية..

وكانت هي أيضاً مستعدة أن تقبل التضحية..

أنا مستعد أن أعلن إسلامي..

وهي مستعدة أن تعتنق المسيحية..

وضحكنا معاً، وكل منا يحاول أن يعنى الآخر من التضحية
ويحتملها عنه..

أتدرى يا سيادة القاضى.. لقد سبق أن قرأنا قصة
لإحسان عبد القدوس، اسمها «الله محبة» تدور حول مشكلة
كمشكلتنا، وقد وصل البطل والبطلة فى القصة إلى حل غريب..
أجريا «طس» بينهما.. أمسكا بقطعة نقود، واختار كل منهما وجهًا
من وجهيها.. ثم قذفا بها فى الهواء.. والوجه الذى تسقط عليه
قطعة النقود يغير صاحبه دينه..

وربما كانت القصة مجرد خيال انطلق فى رأس الكاتب.. ولكننا
فكرنا فى أن ننفذ هذا الخيال.. ثم أبته عقولنا.. لم نقتنع به.. إن
دين كل منا لا يمكن أن نعلقه فى قطعة من ذات الخمسة القروش..
ولا يمكن أن نتركه لعجلة الحظ.. إنما يجب أن نصل إلى حل نقتنع
به بعقولنا.. فإننا إذا اقتنعنا احتفظنا بسلامة شخصياتنا.. الاقتناع
وحده هو الذى يحفظ قوة الشخصية..

وعدنا نفكر..

فكرنا كثيرًا يا سيادة القاضى.. كثيرًا جدًا..
وانتهينا إلى الحل الذى تسميه النيابة جريمة..

لقد تزوجنا مرتين..

مرة كمسلمين..

ومرة كمسيحيين..

ذهبت وأعلنت إسلامي.. ثم تزوجتها أمام المأذون..
ثم.. بعد ذلك.. ذهبت هدى واعتنقت المسيحية، وتزوجتني
مرة ثانية في الكنيسة..

فأين الجريمة هنا يا سيادة القاضي..

هل جريمة أن يحب أحدنا الآخر إلى هذا الحد..

لنفرض أن اثنين من دين واحد، خطر لهما أن يتزوجا مرتين
تأكيداً لحبهما.. لنفرض أن رجلاً تزوج امرأة.. وبعد خمس سنوات
أو عشر خطر لهما أن يتزوجا مرة ثانية تأكيداً لحبهما.. مجرد
خاطر حلوا من الخواطر التي ترد في عقول المحبين.. إن أم كلثوم
تقول في أغنيتها «لو كنت أقدر أحب تاني أحبك أنت»، وهو تعبير
صادق عن خواطر تطلقها فعلا عقول المحبين.. إن الزوج كثيراً ما
يقول لزوجته التي يحبها: «لو كنت أقدر أتجوز تاني أتجوزك
انتى برضه».. فهل لو تزوجا مرة ثانية.. لمجرد حبهما بطريقة
خطرت لهما، يعتبر هذا جريمة..

لا..

لا يمكن..

لا يمكن أن يكون الارتفاع بالحب إلى هذا المستوى يعتبر جريمة..

وهذا ما فعلناه يا حضرة القاضي..

تزوجنا مرتين تأكيداً لحبنا..

مرة بعد أن غيرت ديني من أجل هدى..

ومرة بعد أن غيرت هدى دينها من أجلي..
صحيح أننا أخفينا ما فعلناه عن كل من حولنا.. أخفينا خطتنا
عن المأذون والقسيس.. وتركنا البعض يعتقد أنى أسلمت وتزوجت
زواجاً إسلامياً.. والبعض الآخر يعتقد أن هدى تنصرت وتزوجت
زواجاً مسيحياً.. ولكننا لم نخف شيئاً لأننا اعتبرناه جريمة،
ولكننا أخفينا لأنه كان إجراء يخصنا وحدنا.. هدى وأنا..
إجراء يسمو بحبنا، ويحفظ لكل منا شخصيته..

ولكن النيابة تقول إننا زورنا فى أوراق رسمية.. إننا لم نزور
فى أوراق رسمية يا سيادة القاضى، ولكننا أكدنا حبنا فى أوراق
رسمية.. التزوير يجب أن يهدف إلى فائدة غير مشروعة يجنيها
المزور.. فهل الزواج غير مشروع.. إنه مشروع فى الأوراق الرسمية
المسيحية.. ومشروع فى الأوراق الرسمية الإسلامية.. فكيف تنطبق
هنا جريمة التزوير..

وبعد ذلك.. فإنى واثق يا سيادة القاضى أنك لا يمكن أن تحاسبنا
على حقيقة عواطفنا ومعتقداتنا الدينية، فهذا شىء بيننا وبين
الله.. وسواء اعتبرتنا أنا وهدى مسلمين، أو اعتبرتنا مسيحيين..
فنحن نحسب الله.. ونؤمن به.. ونؤمن بأن الله يحبنا، وإلا لما وهبنا
كل هذا الحب الذى حدثتك عنه..

والأمر لك يا سيادة القاضى..

وحكمك لن يكون علينا.. ولكنه على الحب..

وأنا وهدى مطمئنان إلى أن الحب هو العدل.. وأنتك عادل..

وسام للمتهم

يا سيادة القاضى..

ثق أنى حائر.. والمحامى غالبًا لا يحترار فى موقفه.. فهو دائماً يقف بجانب المتهم الذى قبل أن يدافع عنه.. وأنا الآن واقف بجانب أربعة من المتهمين الشبان، ومعترفين بجريمتهم.. ولكن حيرتى هى أنى برغم اعترافهم لا أستطيع أن أعتبرهم مجرمين.. حتى أدافع عنهم.. إنى فى الواقع معجب بموقفهم، حتى لو كان هذا الموقف خلف قضبان القفص الحديدى.. وواجبى الذى أحس به ليس هو واجب الدفاع عنهم، ولكنه واجب المطالبة لكل منهم بوسام يعلقه على صدره.. فهل من حقى أن أطالب لمجرم معترف بوسام؟..

النيابة طبعاً، ستقول، لا.. وقد عصرت القانون عصراً حتى تستطيع أن تستخرج منه ما يكفى للحكم على الأربعة المتهمين. ولكنى واثق أن السيد وكيل النيابة لو انتقل الآن إلى مقعد القضاء لتغير منطقته.. ولاحتار مثلى.. ويرغم أنى أسمو بعدالة المحكمة عن مستوى الحيرة.. إلا أن الحيرة هنا وفى هذه القضية بالذات.. هى حيرة إنسانية.. والإنسانية تعلقو فوق القانون.. الإنسانية هى العدالة، وليس القانون..

يا سيادة القاضى..

البراءة ليست هى موضوع دفاعى.. أنا لا أطلب البراءة.. فإنى
لست فى حاجة إلى طلبها.. إنها ثابتة قانوناً.. ولكنى أطلب أربعة
أوسمة لأربعة متهمين.. إنى أطمع فى أن أضع تقليداً قضائياً
جديداً بأن تسجل المحكمة فى حيثيات الحكم، أنه برغم وقوع
الجريمة، وبرغم اعتراف المتهمين، فإن المحكمة تثبت إعجابها
بهم، وتقديرها لموقفهم، ونوصى الهيئات المختصة بمنح كل منهم
وساماً..

لا تبتسم يا سيادة القاضى..

أرجوك لا تبتسم..

إنى لا أبالغ.. ولا أفتعل مدخلاً جديداً لدفاعى.. إنى أتكلم
بإحساسى كمواطن عادى، يرى فى الجيل الجديد الذى يمثله هؤلاء
الشبان، روحاً جديدة، تثير الإعجاب.. جيل له أخطاؤه، ولكنه
جيل بطل.. وله نقط ضعفه، ولكنه جيل قوى.. أقوى من ضعفه..
واسمح لى سيادتكم بأن أعرض موضوع القضية بسرعة.. وأقول
«موضوع».. ولا أقول «جريمة»..

من هم المتهمون؟

إنهم محمد، وأحمد، وعلى، وحسين.. أربعة من طلبة كلية
الهندسة.. أكبرهم فى الثانية والعشرين، وأصغرهم فى التاسعة
عشرة.. محمد هو أول دفعته فى كلية الهندسة.. وحسين حصل

على تسعين فى المائة من مجموع الدرجات فى شهادة الثانوية العامة، ومنح مجانية التفوق.. وأحمد وعلى من الطلبة الممتازين.. الأربعة يا سيادة القاضى، حاجة تفرح.. ليس فى ماضى واحد منهم ما يشينه.. والأربعة تلتف حولهم قلوب زملائهم، إلى حد أن قامت ضجة فى كلية الهندسة يوم بدأ التحقيق معهم..

وكان الأربعة مجتمعين فى بيت محمد للمذاكرة.. عندما دخل عليهم عمه.. عم محمد.. وطلب أن يتطوع واحد منهم، ويأخذ سيارته.. سيارة العم.. ويذهب بها إلى بيته فى مصر الجديدة ليعود بالسيدة حرمة..

وقرر الأربعة أن يذهبوا سوياً..
فسحة..

وفى شارع رشيد بمصر الجديدة.. والدنيا ظلام.. والشارع هادئ، خال من المارة.. انحرفت السيارة التى يركبها الأربعة، وصعدت فوق الرصيف وصدمت الإنسان الوحيد الذى كان يمر فى الشارع فى هذا الوقت.. وقتلته..

قضاء وقدرًا..

وكان المتهمون يستطيعون الهرب بالسيارة..
لا أحد رأى الحادث..

لا شهود عليهم.. حتى عسكري الدورية لم يكن فى مكانه
ليشهد عليهم..

لو أنهم هربوا لما كانوا اليوم واقفين أمام عدالتكم.. ولما استطاعت
قوة فى الأرض أن تكتشفهم.

لكنهم لم يهربوا..

أرجو أن تقدر هذا يا سيادة القاضى.. إنهم لم يهربوا.. ضمائرهم

الحساسة النظيفة القوية، لم تسمح لهم بالهرب.. وبالعكس..

حملوا جثة القتيل داخل السيارة، وذهبوا إلى قسم البوليس..

وسلموا الجثة.. وسلموا أنفسهم..

واعترفوا..

وهنا أيضاً لم يكونوا فى حاجة إلى الاعتراف أو على الأقل لم

يكونوا فى حاجة إلى أن ينسبوا الخطأ إلى أنفسهم.. كانوا يستطيعون

أن يقولوا مثلاً إن الرجل القى بنفسه تحت عجلات السيارة.. كانوا

يستطيعون أن يقولوا إن الرجل كان يسير فى منتصف الطريق..

وإنهم استعملوا آلة التنبيه.. وإنهم استعملوا الفرامل.. و.. و.. إلى

آخر المبررات التى كان يمكن أن تعفيهم من تهمة القتل الخطأ..

ولكن، لا..

اعترفوا بكل التفاصيل.. اعترفوا بأن الرجل كان يسير على

الرصيف وأن السيارة صعدت إليه وقتلته..

ولم يرجعوا عن اعترافهم عندما تولت النيابة التحقيق..

إنها رجولة يا سيادة القاضى..

رجولة مبكرة، قوية، تعبر عن المعاني الجديدة التي يدين بها
الجبل الجديد..

وإني أعتزف لك الآن يا سيادة القاضى بأنى حاولت أن أقنعهم
بالعدول عن هذا الاعتراف، بدافع الحرص على مستقبلهم.. حاولت
كثيراً.. بلا فائدة.. إنه إصرار عجيب.. إصرار على الصدق.. لا
يريدون أن يكذبوا حتى لو كان فى الكذب السلامة..
ولكن..

من كان يقود السيارة لحظة وقوع الحادث؟
هنا حدثت المفاجأة..

لا أحد يدري حتى الآن من كان يقود السيارة.. هل هو محمد..
أو أحمد.. أو على.. أو حسين؟!
لقد سئلتوا طبعاً، عمن كان يقود السيارة.. فأجاب كل منهم:
- مَعْرِفْش..

كلمة واحدة لم تتغير طول التحقيق.. مَعْرِفْش!
ولا بد أن ضابط البوليس الذى بدأ التحقيق قد جن عندما واجهوه
بهذا الجواب الحاسم.. ما اعرفش.. ولا بد أن السيد وكيل النيابة قد
بذل كل جهده حتى يأخذ منهم كلمة أخرى غير كلمة «مَعْرِفْش»..
وينتزع السر الكبير من صدورهم..

وقد اتبعت معهم كل طرق التحقيق..

سئلتوا مجتمعين فى مواجهة بعضهم البعض.. وسئلتوا أفراداً..

ولا أريد أن أقول إن المحقق قد استعمل معهم طرق التهديد الأدبى.. بل استعمل معهم نوعاً من أنواع التعذيب الجسدى، عندما حبس كلاً منهم حبساً انفرادياً.. وصمم على حبسهم برغم أن القانون لا يبيح له حق الحبس فى هذه الحالة.. ولكنى لا أريد أن أثير هذه النقطة فى دفاعى.. لسبب واحد.. وهو أن المتهمين لا يريدون إثارتها..

وفى مرحلة من مراحل التحقيق، خيل للمحقق أنه وجد الطريق لمعرفة السائق.. فطلب من الفنيين أن يلتقطوا البصمات من فوق عجلة القيادة..

أتدرى ماذا وجد خبير البصمات يا سيادة القاضى..

وجد أن المتهمين قد حرصوا قبل أن يسلموا أنفسهم على أن يمسحوا البصمات من فوق عجلة القيادة.. ومن فوق الباب المجاور لكان السائق.. كما هو ثابت فى تقريره المقدم منه!
إذا فموقف المتهمين موقف متعمد..

وهذا صحيح..

إنى أتصورهم وقد اتفقوا بعد وقوع الحادث، على اتخاذ هذا الموقف، ورفعوا كلمة «ما اعرفش» كشعار لهم.. ثم اتجه بهم ذكاً وهم وهم قطعاً أذكىء بدليل تفوقهم فى دراستهم.. إلى مسح البصمات من فوق عجلة القيادة.

وقد لجأ المحقق إلى طريقة أخرى..

لجأ إلى آباء المتهمين، وأخذ أقوالهم على أمل أن يعترف أحد
منهم على ابن الآخر..

لا..

لم يعترف أحد من الآباء على ابن الآخر..

لأن كل أب سما بنفسه عن الوشاية بصديق لابنه..

ولكن لأن أحداً من الآباء لا يعرف حتى اليوم من كان يقود
السيارة.. لقد أخفوا السر حتى عن آبائهم.. بل إنى أعرف أنهم
أخفوه حتى عن أمهاتهم..

وأنا..

أنا المحامى الذى يتولى الدفاع عنهم، لا أدرى اليوم من كان منهم
يقود السيارة.. وقد حاولت أن أعرف.. هذا الموقف العجيب وهذا
الإصرار، أثارا فضولى إلى حد كبير.. فحاولت أن أعرف.. حاولت
كثيراً.. ولم يكن معقولا أن يخفوا عنى السر لأنهم يثقون فى.. فأنا
محاميهم.. وبرغم ذلك رفضوا أن يفشوا لى سرهم العجيب.. وقال
لى محمد وأنا أناقشه:

- لقد اتفقنا على أن ننسى من كان منا يقود السيارة.. وقد نسينا
فعلا.. بذلنا مجهوداً نفسياً كبيراً حتى ننسى.. وثق أننى لا أقاوم
الآن الإفشاء بالسر، لأنى نسيته..

يا سيادة القاضى..

لماذا اتخذ المتهمون هذا القرار؟

لأنهم يؤمنون بمبدأ: الكل فى سبيل الواحد، والواحد فى سبيل الكل.. لأنهم مصرون على ألا يتخلوا عن واحد منهم.. وأن يتحملوا المسئولية معاً..

إنهم لا يحاولون التهرب من المسئولية..
لا..

لو أرادوا التهرب من المسئولية، لتركوا القتل فى الشارع وهربوا.. ولما اعترفوا.. ولكنهم لم يفكروا أبداً فى التهرب من المسئولية.. كل ما أرادوه هو أن يحملوا المسئولية معاً.. أن يكون الكل فى سبيل الواحد.. أن يضحى ثلاثة منهم فى سبيل واحد.. وكل ذلك بدافع من الرجولة القوية.. وصلابة الخلق.. والشهامة.. والتضامن أمام الخطر..

ولكنهم بموقفهم هذا - دون أن يتعمدوا - خلقوا مشكلة قانونية.. فنحن أمام أربعة معترفين بجريمة لا يمكن أن يرتكبها إلا واحد.. وفى الوقت نفسه لا نعرف من هو هذا الواحد، حتى نحكم عليه..

وقد تخبطت النيابة فى مطالبها.

لقد حاولت أن توحى إلى المحكمة بأن محمداً هو الذى كان يقود السيارة، لأنه ابن أخى صاحب السيارة.. وهذا كلام لا يمكن أن يكون جدياً.. فليس هناك ما يمكن أن يسمى «متهماً بالقرابة».. ولا تكفى أبداً قرابة محمد لصاحب السيارة حتى نعتبره الفاعل

الأصلى.. مستحيل.. هذا منطوق لا يقره القانون أو العدالة.. إن
أى واحد من الأربعة يمكن أن يكون هو قائد السيارة لحظة وقوع
الحادث، خصوصًا إذا عرفنا أن الأربعة يجيدون القيادة وكل منهم
يحمل رخصة قيادة..

ثم حاولت النيابة أن تكيف التهمة تكييفًا آخر.. حاولت أن
تعتبر الأربعة فاعلين أصليين.. أى أن الأربعة كانوا يقودون السيارة
فى وقت واحد.. وهذا أيضًا مستحيل.. هذا إسراف فى الخيال.. ولا
أريد أن أقول إنه تعنت فى توجيه الاتهام.. فلا يمكن أصلاً وعملاً
أن يتولى أربعة قيادة سيارة واحدة فى وقت واحد.

ولا أريد أن أرد على الكلام الكثير الذى قاله ممثل النيابة، عن
جنون الشباب واستهتارهم.. ومحاولته الربط بين هذا الحادث،
وحادث الأتوبيس الذى راح ضحيته عدد من القتلى نتيجة إهمال
السائق.. هذا كلام، أعتبره كلامًا فى غير موضعه.. ولا يستحق أن
يرد عليه..

ولكن هذا لا ينفى أن هناك حادثًا قد وقع راح ضحيته قتيل..
وأن هناك أربعة معترفين بارتكاب الحادث، الذى لا يمكن أن
يرتكبه إلا واحد منهم فقط.. وبما أننا لا نعرف وكلنا عجزنا عن
معرفة سائق السيارة لحظة وقوع الحادث..

فإنى واثق أنكم ستحكمون بالبراءة..
ولكن البراءة لا تكفى..

هذا التضامن الرائع بين الشبان الأربعة.. هذه الشهامة.. هذه
الصلابة.. هذا الخلق النظيف القوي.. هذه الروح الجديدة التي
تنطلق من الجيل الجديد.. ليس بينهم جبان.. ليس بينهم من
يتخلى عن زميله.. ليس بينهم من يريد أن يهرب بجلده..
كل هذا..
يستحق وساماً..

غلطة حبيبي

ليس الذنب ذنبي..

مؤكد أن ليس لي ذنب في كل ما حدث.. لا يستطيع أحد أن

يلومني.. ولا مصطفى..

لقد أحببت مصطفى وأنا أعرف كل ما يمكن أن أحتمله في سبيل

هذا الحب.. أحببته وأنا مصممة على أن أحتمل.. أن أضحي.. أن

أجعل من حبه عالمي الذي أعيش فيه.. لا أريد شيئاً من العالم

الآخر.. لا أريد شيئاً إلا أن أنام وأصحو وحببه في صدري.. هادئاً..

مستقراً.. لذيذاً..

وكننت أعلم أن أكثر ما يجب علي أن أحتمله هو عمل مصطفى..

صحيح أنني لم أكن أتصور أن يكون مشغولاً بعمله إلى هذا الحد..

ولكنني استطعت بسرعة أن أعود نفسي على انشغاله عني بعمله..

أن أبقى في انتظاره أياماً.. ثلاثة أيام.. أربعة.. أسبوعاً.. نلتقي

ساعة أو ساعتين وأحادثه في التليفون دقيقتين، وقد يحدثني

خلالهما وهو يقرأ أو وهو يكتب.. فلا أتبرم.. ولا أضيّق.. أبداً..

أبداً.. لقد كنت سعيدة.. سعيدة حقاً.. سعيدة بحبي له.. وسعيدة

بإحساسى أنني أحتمل في سبيل شيء كبير.. في سبيل أن أمنح

حبيبي النجاح.. وكان ينجح.. كان يخطو خطوات سريعة عملاقة..

كأنه عفريت من الجن يفرض إرادته على المستقبل.
كنت أحس أنى أصنع هذا النجاح..
أحس أنى أمنح حبيبي القوة ليخطو خطواته العملاقة..
وكانت هذه هى سعادتى..
سعادتى العميقة.. الحلوة.. السعادة التى أستمدّها من نجاحه
وتفوقه..

ولكن مصطفى لم يكن يصدّق..
لم يكن يصدق أنى أستطيع أن أحتمله كل هذا الاحتمال، ثم أكون
سعيدة..

وبدأت ألحظ شكوكه كلما التقينا أو كلما تحدثنا فى التليفون..
كان يسألنى فى التليفون:
- بتعملى إيه؟
فأرد فى بساطة:
- بشتغل كانفاه..

وألحظ الشك والتهمك فى صوته وهو يقول لى:
- برضه.. ده انتى بقالك جمعه، كل ما اسألك تقولىلى انك
بتشتغلى كانفاه..

وأتجاهل شكه وتهكمه وأرد قائلة، وأنا أضحك:
- تصور انى خلصت نص المفرش فى خمس تيام.. مش أنا بطله
والنبي..

ويضحك مصطفى فى تهكم، ويقول:

- فعلا بطله..

وفى مناسبة أخرى يسألنى:

- رحتى فىن اليومين دول؟

وأرد:

- أبداً.. قعدت فى البيت..

وتطل من عينيه نظرة تضطرب بشكه ويقول فى حدة:

- يعنى قعدتى فى البيت أربعة أيام ما خرجتيش؟

وأرد وأنا أرفع إليه عينى كأنى أتوسل إليه أن يصدقنى:

- وفيها إيه يا مصطفى.. انت عارف انى بحب البيت..

ويهز مصطفى رأسه ويزفر أنفاسه، كأنه لا يصدقنى..

ثم..

يتصل بى فى التليفون، فيجد تليفونى مشغولاً. فيعود يتصل بى

ويصرخ فى وجهى:

- كنتى بتكلمى مين؟

وأقول:

- كنت بكلم اختى..

ويرد من تحت أسنانه:

- لا يا شيخه!!

وأرد وقلبى يرتجف:

- أمال حكون بكلم مين يعنى !!

ويقول فى تهكم:

- مفيش.. مش ممكن فعلا انك تكلمى حد الا اختك !!

وشكوك مصطفى تزداد يوماً بعد يوم.. عيناه تزدادان اضطراباً..
وكلماته تقطر بغل مكتوم.. إلى أن قال لى مرة:

- أنا ساعات بكره شغلى علشان خاطر ك.. وساعات بكره ك
علشان خاطر شغلى..

قلت له يومها:

- أنا مَسْمَحش لك تكره شغلك، ولا تكرهنى.. لازم تحبنا
احنا الاتنين.. واحنا الاتنين ممكن نستحمل بعض.. أنا استحمل
شغلك، وشغلك يستحملنى.

وكنت أحاول أن أريحه من شكوكه.. أن أمسح النظرات المضطربة
عن عينيه.. أن أجعل أنفاسه تنتظم فى صدره..

ولكن كيف.. كيف يا ربى.. كيف أريح حبيبي من شكوكه..
إلى أن صرخ فى وجهى مرة:

- أنا مش ممكن أقدر أصدق إن بنت عندها اثنين وعشرين سنة
تفضل قاعده فى البيت، ولا تعملش حاجه إلا إنها تشتغل كنافاه..
الكلام ده كان أيام ستى.. مفيش بنت اليوميين دول بتعمل كده
أبدأ.. وبصراحه أنا مش مصدقك.. أنا مش مطمئن..

وقلت والدموع تملأ عينى:

– وتصدقنى ازای یا مصطفى.. أطمئنك إزای.. قول لى أعمل إيه؟
وقال فى حدة:

– أنا مش ممكن اطمئن عليكى إلا لما الايكي مشغوله.. مشغوله
فى حاجه عارفها.. حاجه جد.. مشغوله بشغل، زى ما انا مشغول
بشغلى..

وقلت كانى أتوسل إليه:

– ما انا مشغوله يا مصطفى.. مشغوله فى البيت.. وفى الكنافاه..
وفى الراديو.. وفى التليفزيون.. ده انا عملت سبع مفارش فى ست
شهور.. وإذا كنت عايز مستعده اسمع لك أغانى الراديو كلها..
قال فى صراخ:

– مش كفاية.. مش مهم انك تشغلى إيديكى.. ولا تشغلى
ودانك.. المهم انك تشغلى عقلك..
قلت:

– عقلى مشغول بيك يا مصطفى..
قال:

– ما هو ده الخطر.. طول ما عقلك مشغول بيأ.. يبقى بتفكرى
انك تقابلينى.. ولما ما تقابلينيش حتزهقى.. ولما تزهقى ممكن
تغلطى.. ممكن تعملى حاجات كتير غير الكنافاه..
وقلت فى استسلام:

– طيب عايزنى اعمل إيه يا مصطفى؟

قال:

- عايزك تشتغلى..

قلت:

- أشتغل إيه؟

قال:

- أى حاجه.. سكرتيره.. مذيعة فى الإذاعة واللا فى

التليفزيون.. أى حاجه..

قلت:

- زى ميعجبك يا مصطفى.. شغلنى مطرح ما انت عايز..

ولم أكن أريد أن أعمل..

والله العظيم لم أكن أريد أن أعمل..

كنت سعيدة فى البيت..

سعيدة بأشغال الكنافاه..

سعيدة بأغانى الإذاعة وبرامج التليفزيون..

سعيدة وأنا فى انتظار مصطفى ليقابلنى مرة أو مرتين فى

الأسبوع..

ولكن مصطفى صمم..

وأخذنى من يدى إلى التليفزيون.. وقدمنى إلى المختصين هناك..

وأجروا لى امتحاناً.. ونجحت.. أصبحت مذيعة فى التليفزيون..

مقدمة برامج كما يسمونها..

وانقلبت حياتى كلها..

وانشغلت..

وكان أول ما انشغلت عنه هو مصطفى.. لم أعد أعيش معه
بفكرى وعواطفى أربعاً وعشرين ساعة فى اليوم.. أصبحت أعيش
معه فترات متقطعة من يومى.. وأرقد فى فراشى كل مساء فلا أكاد
أفكر فيه حتى يغلبنى التعب وأنام.. وأصبحت أنسى فى زحمة
العمل أن أتصل بـمصطفى فى التليفون كل صباح.. وأنسى أن أقرأ له
مقالاته التى كنت أحفظها عن ظهر قلب..

أصبحت مشغولة..

مشغولة..

ولم يشغلنى العمل نفسه.. ولكن شغلنى أكثر جو العمل.. شغلت
بزملائى الكثيرين الذين يعملون معى فى التليفزيون.. وشغلت
بخطابات المعجبين والمعجبات.. وشغلت بالدسائس والمقالب التى
تدبر فى كل حجرة من حجرات المبنى الكبير..

وبين زملائى كثيرون من الشبان المهدبين الناجحين.

ربما كان أكثرهم تهذيباً ونجاحاً، هو محمود.

وتوطدت الصداقة بينى وبين محمود..

صداقة خالصة..

قلبى لا يزال مع مصطفى..

ولكنى أرى «محمود» كل يوم.. إنه إما فى مكتبى.. أو أنا فى مكتبه..

وهو فى حاجة دائماً إلى..

إن أحلامه الكبيرة تكاد أحياناً تعصف به.. وتكاد تلقيه فى هاوية اليأس.. وهو فى حاجة إلى حتى أقوى به على أحلامه.. حتى أسند شخصيته المهزوزة.. حتى أمنحه القدرة ليخطو خطوات عملاقة نحو أمله..

ودعانى محمود ليوصلنى إلى البيت بسيارته..

ثم أصبح يوصلنى كل يوم..

بل أصبح يمر على كل صباح ليأخذنى معه إلى مبنى التليفزيون.. كانت صداقة..

لا أكثر من الصداقة..

ولم يكن هناك شىء أخفيه عن مصطفى.. صرحت له بصداقتى لمحمود، وكنت أروى له ما يدور بيننا من أحاديث.. وكنت أطلععه على مشاكل محمود فى العمل، كما أطلععه على مشاكلى..

وكنت أعتقد أن مصطفى يفهم حقيقة علاقتى بمحمود، إلى أن قال لى مرة:

- شفتى محمود النهارده؟

وقلت فى بساطة:

- طبعاً..

قال وهو يتكلم من تحت أسنانه:

- وطبعًا وصلك بعربيته..

قلت:

- أيوه..

وانفجر مرة واحدة صارخًا:

- انتى بتشتغلى فى التليفزيون، ولا بتشتغلى فى محمود..

قلت فى هدوء:

- يا مصطفى.. متقولش كده.. انت عارف ان محمود صديقى..

أنا مخبتش عنك حاجة..

وصرخ:

- أنا مش مطمئن للصداقة دي.. مفيش حاجة اسمها صداقه..

راكبه فى عربيته رايحه جايه، وتقوليلي صداقه!

وقلت وأنا أكثر هدوءًا:

- يعنى عايزنى أعمل إيه؟

قال:

- عايزك تبطلنى تعرفى اللى اسمه محمود ده..

قلت:

- مش ممكن يا مصطفى.. ده زميلى.. يعنى اقول له إيه؟..

قال:

- قولى له بصراحه انك بتحبى واحد تانى..

قلت:

– هو عارف انى بحب واحد تانى.. وعمر الراجل ما طلب منى
أكثر من صداقه..

وعاد يصرخ:

– مَتَجِبِيلِيش سيرة الصداقه.. إنتى فاكراه إنى مغفل.. أنا بشتغل
زيك.. وعارف الصداقه معناها إيه.. إشمعنى سى محمود ده اللى
مصاحباہ.. ما فيه ألف واحد فى التليفزيون..
قلت:

– يا مصطفى خلى عقلك واسع.. يعنى اعمل إيه؟

– وصرخ كأنه يطلق أبخرة كثيفة كان يخبزنها فى صدره:

– سيبي الشغل.. ارجعى اقعدى فى البيت..

وترددت برهة.. كدت أضعف كما تعودت أن أضعف أمام
مصطفى.. ولكن شخصيتى الجديدة التى اكتسبتها من العمل،
انتصرت على ضعفى، وقلت له فى ثبات:

– مقدرش يا مصطفى.. مبقتش اقدر اقعد فى البيت..

وقال كأنه صدم:

– كده.. طيب اعملى اللى انتى عايزاه.. سعيده!

وعشت يوماً كاملاً أراجع نفسى..

واكتشفت أنى فعلاً لا أستطيع أن أعود لأبقى فى البيت..

لا أستطيع أن أستغنى عن عملى فى التليفزيون.

ولا أستطيع أن أستغنى عن صداقة محمود..

ومصطفى يلومنى..

أبدأ.. لا أستحق لومه.. ليس لى ذنب.. لقد كنت له بكل دقيقة

من عمرى.. وكنت سابقى له بكل دقائق عمرى..

ولكنه هو..

هو الذى أخرجنى من البيت..

هو الذى أخذنى بيده إلى التلفزيون..

خاف على حبى له من فراغ حياتى.. فملاً حياتى حتى لم يعد

فيها مكان لحبه!

العقل الكبير

أكثر ما يضايقنى أن يتدخل الناس فى حياتى الخاصة.. وأن يصدروا علىّ أحكاماً، ليست من شأنهم.. لقد حكموا علىّ أنى بائسة.. مسكينة.. غلبانة.. وتمصص العجائز شفاههن ويهمسن.. يا ميّلة بختها.. والنبي دى ضفرها بميت بنت.. ثم يتضحكن قائلات.. آل بنت آل..

وأنا فعلا، بنت..

بنت فى الخامسة والثلاثين من عمرى..

وحتى أريح الناس، فإنى أقول فى وجوههم.. إنى عانس.. أنا عانس..

ولكن..

من أدراهم أنى مسكينة، بائسة، غلبانة، وبختى مائل..
لماذا يفترض الناس دائماً أن العانس لا بد أن تكون بائسة..
لا..

لست بائسة..

أنا سعيدة..

سعيدة جداً.. أسعد من ثمانين فى المائة من الزوجات اللاتى أعرفهن، واللاتى فى مثل سنى.. وسعادتى نابعة من عقلى..

الشعراء، وكتاب القصص، يقولون إن السعادة تنبع من القلب..
لا.. هذا كذب.. خيال.. السعادة تنبع من العقل.. وكلما استطاع
العقل أن يسيطر على القلب.. استطاع أن يحقق لصاحبه سعادة
أكبر..

وكنت - ولا أزال - أعتمد على عقلى فى تنظيم حياتى، وفى
تحديد تصرفاتى، بحيث أضمن لى نفسى أكبر قدر من السعادة.. إنى
أرسم صورة محددة لى حياتى.. حياة سعيدة.. لا أعرضها لمجازفة،
أو لمغامرة، أو لنزوة، قد تنتهى بنكبة..

الفرق بينى وبين بقية البنات.. أنى لا أبيع عمرى فى نظير
لحظات سعيدة.. إن سعادتى دائمة، مستقرة ثابتة.. أما بقية
البنات فسعادتهن لحظات من العمر، والباقى شقاء..

وأنا لا ينقصنى شىء لأتزوج..

إنى جميلة.. مثقفة.. ذكية.. غنية.. معاشى من المرحوم بابا
قدره خمسة وعشرون جنيهاً فى الشهر..

ومنذ كنت فى السادسة عشرة والخطاب يقفون على بابى..
المهندس.. والدكتور.. والضابط.. بل تقدم لى مرة أحد كبار
الصحفيين..

وكنت أرفضهم..

أرفضهم، لأنى منذ كنت فى السادسة عشرة، وأنا مقتنعة بأن
الزواج فى حد ذاته لا يحقق السعادة.. وأن لىس المهم أن أكون
زوجة، ولكن المهم أن أكون سعيدة..

عقلى الكبير استطاع أن يجنبنى الخطأ الكبير الذى تقع فيه
البنات المراهقات، عندما يندفعن إلى الزواج.. والفرحة الساذجة
تملاً لقلوبهن.. الفرحة بالثوب الأبيض والطرحة.. والفرحة بالدبلة
الذهبية.. والفرحة بالزليطة والهيصة.. ثم يكتشفن بعد أيام أنهن
زفن إلى الشقاء.. ويعشن عمراً شقيماً.. لا ينفعهن فيه لا الثوب
الأبيض، ولا الطرحة..

نعم.. أنا عقلى كبير منذ كنت فى السادسة عشرة.

وليس معنى هذا أن ليس لى قلب..

إن لى قلباً..

قلباً كبيراً أيضاً..

وقد أحببت بهذا القلب.. أحببت «حسين»..

وقد التقيت بحسين، وأنا فى الثانية والعشرين من عمرى..

ومنذ اللحظة الأولى أحسست بتفاهم كبير بينى وبينه.. كان عقلى

يتجاوب مع كل ما فى عقله، وأخلاقى تتلاقى مع أخلاقه.. ومزاجى

مع مزاجه.. وأحبنى حسين.. ربما أكثر مما أحبته.. كان يقضى

معى كل دقيقة يستطيع أن يكون فيها مع أحد..

ولكن حسين كان ضابطاً بحاراً على إحدى المراكب التجارية..

وكان يغيب فى البحر كثيراً.. يغيب شهراً.. ويعود ليبقى معى

خمسة عشر يوماً على الأكثر..

وبرغم ذلك بقينا على حبنا..

وحبنا ينمو..

ولكنه كان حبًّا عفاً نظيفاً.. واستطاع عقلي أن يسيطر على قلبي دائماً ليبقى حبي عفاً نظيفاً..

ليس معنى هذا أنى لم أكن أحس بأنى فى حاجة إلى أن أطلق حبى إلى مدى أبعد.. ليس معنى هذا أنى باردة.. عديمة الإحساس.. ليس معنى هذا أنى حنبلية متزمتة.. أبداً.. كل ما هنالك أنى لم أكن أريد أن أعود نفسى على تصرفات لا أضمن نتائجها.. ولا أضمن مدى حاجتى إليها بعد أن أعود عليها.. دلنى عقلى على أنى لو عودت جسدى على «حسين».. لو أطلقت معه غرائزى الطبيعية.. فإنى سأتعذب، لأن «حسين» يغيب عنى كثيراً.. إنى لا أستطيع أن أكون له ليلة، ثم يغيب عنى ستة أشهر، حتى يعود مركبه.. لا.. لا أستطيع.. إنى قد أجد نفسى فى هذه الحالة معرضة للانحراف.. معرضة لمقاومة حاجتى الجسدية، وقد لا أستطيع مقاومتها، فأنحرف وأخون «حسين» مع رجل آخر.. لا.. لن أعود نفسى على شىء من هذا..

وقد تقدم حسين لخطبتى..

ولكنى رفضته..

هل هذا معقول؟

هل معقول أن ترفض فتاة الزواج من الرجل الذى تحبه؟

معقول جداً، إذا اكتشفت بعقلها الكبير أن حبيبها لا يمكن أن يحقق لها حياة زوجية مستقرة سعيدة.. وإذا كان في زواجها به ما يعرض حبها للتلف، والضياع والنكبات..

وقلت كل ذلك لحسين..

قلت له إنى لا أستطيع أن أتزوجه لأن عمله يحتم عليه أن يغيب عنى طويلاً.. شهوراً بأكملها.. فلن نستطيع أن نقيم بيتاً سعيداً.. بل قلت له إنى لو تزوجته، وتعدت على أن يكون لى رجل، فلن أضمن أن أصون نفسى من الانحراف، وهو يغيب عنى مُمدداً تصل إلى عشرة أشهر فى العام، ولا يمنحنى سوى شهرين توزع أيامهما على مدار السنة.. وفى الوقت نفسه فإنى لا أستطيع أن أطلب منه أن يستقيل من عمله، ويضحى بمستقبله، حتى يقيم معى البيت السعيد..

تناقشنا مناقشة منطقية واقعية..

واقنع حسين..

وقرر أن يبحث عن عمل له فى شركة القناة.. فإن ضباط البحرية فى القناة لا يسافرون فى أعالي البحار.. إنهم لا يغيبون عن بيوتهم أكثر من ليلة أو ليلتين فى الأسبوع..

ولكن «حسن» لم يوفق فى الالتحاق بشركة القناة، ظل يعمل على مركبه التجارى.. واستطعت أن أقنعه بأن نبقى على حبنا فى حدود إمكانياتنا على ممارسة الحب، والتمتع به.. وإمكانياتنا

لا تتعدى هذا الحب الرائع الأفلاطونى.. حب أقرب إلى الصداقة
الحلوة الجميلة..

وظل حسين معى بعد أن رفضت الزواج به..
ثم سافر بمركبه إلى دول أمريكا فى رحلة طويلة استغرقت ما
يقرب من عام..

وعاد ليعرض على الزواج مرة ثانية..
وصمم فى هذه المرة..

إنه يريد أن يكون له بيت يعود إليه.. ويريد أن يكون له أولاد
يفرح بهم..

لا تكن ساذجاً يا حسين.. إنك لا تستطيع.. ليس المهم أن يكون
لك بيت، ولكن المهم أن يكون لك بيت سعيد.. وليس المهم أن يكون
لك أولاد، ولكن المهم أن يكون أولادك سعداء.. وأنت لا تستطيع
أن تكون سعيداً إلا فى الحدود التى رسمتها لك.. لا يمكن أن
تكون سعيداً فى بيت تخشى فيه زوجتك على نفسها من الفتنة
والانحراف.. ولا أن تكون سعيداً بأولاد يعيشون كل حياتهم بلا
أب.. كأنهم يتامى..

ولكن حسين صمم..
وأنا أشفق عليه من تصميمه، وعقلى الكبير يرفض
أن يستجيب له.

وذهب حسين وتزوج..

تزوج فتاة أخرى..

إنى واثقة من أنني أسعد من هذه الفتاة الأخرى التى تزوجها..
إنى على الأقل لا أفضى عشرة أشهر فى العام، بإحساس
الأرملة، أنتظر أن تعود الحياة إلى زوجى، يوم تعود مركبه إلى
الإسكندرية..

وانتهت قصتى مع حسين..

وكنت فى هذه الأثناء قد قررت أن أكمل دراستى فالتحقت
بكلية الآداب قسم اللغة الإنجليزية.. وقد منحتنى الجامعة مزيداً
من السعادة.. إنى سعيدة.. سعيدة.. وقد تقدم إلى وأنا فى الجامعة
ثلاثة من زملائى ليخطبونى.. ومعيد.. ولكن.. لا.. إنى لا يمكن أن
أتنازل عن إكمال دراستى.. وفى الوقت نفسه لا أؤمن بأنى أستطيع
أن أكون سعيدة لو تزوجت وبقيت فى الجامعة.. لماذا.. لماذا أقسم
نفسى إلى اثنين.. وأعيش حياتين.. ما حاجتى إلى كل هذه الربة؟
إما أن أكون زوجة وأماً.. وإما أن أكون طالبة فى الجامعة..
وفضلت أن أكون طالبة..

عقلى الكبير هدانى إلى أن أكتفى بأن أكون طالبة.. ورسم لى عالماً
محددًا أستطيع أن أكون فيه سعيدة.. وكنت سعيدة فعلاً..
وتخرجت..

واشغلت فى إحدى السفارات.. بمرتب خمسة وعشرين جنيهاً،
إذا أضيفت إلى معاش أبى فقد أصبح دخلى خمسين جنيهاً..

إنى غنية..

إن الإحساس بالغنى سعادة أخرى..

سعادة كبيرة.. واطمئنان.. وهدوء بال..

ثم التقيت ببهجت..

كان بهجت هو حبي الثانى.. وكان يختلف اختلافًا كبيرًا عن حسين.. فبرغم أنه تخرج فى الجامعة واشتغل محاسبًا، إلا أنه كان يبدو فى حاجة إلى فى كل كبيرة وصغيرة.. أصبحت أنا التى أنتقى له ثيابه وربطة عنقه.. وأنا التى أحل له مشاكله مع رؤسائه ومع أمه.. وأنا التى أنتقى له الكتب التى يقرأها.. بل أنا التى علمته كيف يبدو إنسانًا محترمًا كاملاً.. مهذبًا..

وأحبنى بهجت فى ولّه.. كان عنيفًا مندفعًا فى حبه.. ولكن عقلى الكبير استطاع أن يسيطر عليه كما يسيطر على.. فلم أندفع معه إلى أكثر من الحدود التى رسمتها لنفسى، والتى أصون بها نفسى من التعود على أن أطلق غرائزى الطبيعية.. دون أن أتأكد من مصيرى..

وطلبنى بهجت للزواج..

وكان يمكن أن أتزوجه..

ولكن.. أمه!

إن بهجت يقيم مع أمه ولا يستطيع أن يتركها.. وهو فى الوقت نفسه مقتنع بأنى لن أطيق أن أعيش معها إذا تزوجنا.. إنها

شرسة.. جاهلة.. لا يمكن أن تفهمنى.. ولا يمكن أن تعيننى على إقامة بيت سعيد، أسعد فيه.. وحتى لو ضحى بهجت بأمه وقرر أن نقيم أنا وهو بعيداً عنها، فهو سيبقى مسئولاً عنها مادياً.. وهو لا يستطيع أن ينفق على بيتين.. بيتى وبيت أمه..
مشكلة لا حل لها..

ماذا أفعل..

هل أجازف وأقنع بهجت، بأن نقيم مع أمه.. ثم أحاول أن أتحملها.. أو أحاول أن أخفف من شراستها.. ليه.. لماذا؟.. لماذا أضحى بعالمى السعيد، لأقتحم عالماً لست واثقة من سعادتى فيه؟!..
عقلى الكبير يرفض هذه المجازفة.. هذا الاندفاع.

ورفضت أن أتزوج بهجت.. واستطعت أن أقنعه بأن نبقى على حبنا فى حدود إمكانياتنا.. حب أقرب إلى الصداقة الرائعة الحلوة.. وسر قوتى هو أنى لم أقبل أبداً أن أنقاد إلى الحب إلى أبعد من هذه الحدود.

لو أنى اندفعت مع بهجت.. لو أنى تماديت معه بحيث أفقد سيطرة عقلى على قلبى وعلى جسدى، فربما قبلت زواجه، وعشت فى جحيم أمه.. يا حفيظ..

وأنا الآن فى الخامسة والثلاثين من عمري..

عانس..

ولكنى سعيدة..

سعيدة أكثر من سعادة ثمانين في المائة من الزوجات اللاتي في

مثل سنى..

وسعادتى تنبع من عقلى ، لا من قلبى ، ولا من جسدى..

أتدرى ما يقوله الناس؟..

إنهم يقولون إنى لم أتزوج حتى لا أفقد معاش أبى..

أبدأ والله العظيم..

لا تصدقهم..

إنه معاش كبير.. خمسة وعشرون جنيهاً فى الشهر.. ثلثمائة

جنيه فى العام.. إيراد خمسة عشر فداناً..

ولكن لا تصدق الناس..

أرجوك..

إنى سعيدة..

وهذه الدموع.. هى دموع سعادتى.. وفرحتى بعقلى الكبير..

أزمة المثقفين

عطيات.. عزيزتى:

وكان يجب أن أناديك: «زوجتى العزيزة».. ولكن، لا.. سواء كنت زوجتى أم لم تكونى.. فأنت دائماً: عزيزتى، أنت دائماً، عطيات العزيزة..

لقد كذبت عليك يا عزيزتى..

أنا لم أسافر إلى الإسكندرية لأتم بحثى عن البيروقراطية كما قلت لك.. أبداً، البحث قد تم وستفاجئين به منشوراً فى الجريدة غداً..

لم أسافر إلى الإسكندرية إلا لأكتب لك هذا الخطاب.. منذ متى وأنا أريد أن أكتب إليك؟ منذ سنتين..

ربما قبل أن ينقضى شهر العسل.. عسلنا!

وكنت طول هذه المدة أتردد فى الكتابة إليك، لأنى كنت فى كل يوم أكتشف فى نفسى شيئاً جديداً أريد أن أطلعك عليه.. ثم لأنى لم أكن قد وجدت القرار الذى يجب أن أنتهى إليه بعد أن أطلعك على نفسى.. فلم يكن الأمر سهلاً.. أبداً ليس سهلاً أن أحاول اكتشاف أغوار نفسى، وأن أكتشف الروابط بين عقلى الباطن وعقلى الصاحى،

ثم أكتشف الخيط الذى يربط بين ثقافتى وبيئتى.. لأنتهى من كل ذلك إلى القرار الذى يحدد مصيرى ومصيرك..

وقد انتهيت إلى القرار..

أمس فقط انتهيت إليه..

أرجوك.. لا تجرى فوق السطور بسرعة حتى تصلى إلى معرفة هذا القرار.. أرجوك.. أنا فى حاجة لأن تقرئى كل سطر من سطور خطابى وكل كلمة، بإمعان.. بكل عقلك.. فلا تجرى.. وسأطلعك على القرار منذ الآن، حتى لا تجرى..

القرار هو: أنت طالق..

نعم يا أعز الناس.. طلقتك!

هل صرخت؟

هل بكيت؟

هل غضبت؟

.. أرجوك يا عطيات.. فلم يكن بيننا أبداً صراخ، ولا بكاء، ولا غضب.. لقد اختلفنا كثيراً من قبل، وتعودنا أن نناقش خلافاتنا بالمنطق.. بالعقل وحده.. وكانت ثقافتى وثقافتك تحميّنا دائماً من العواصف النفسية التى يتعرض لها السوقة الذين لا تعينهم ثقافتهم على الوصول إلى أغوار النفس.. إلى البؤرة التى تنطلق منها العواصف، حتى يسيطروا عليها..

إنى أكتب لك هذا الخطاب بثقافتى..

فإن أى قرار مهما بلغت قسوته، يخفف منه الفهم.. وأنا أريدك أن تفهمينى، كما فهمت نفسى، حتى لا تتهمينى بالقسوة.. وحتى لا تعرضى نفسك للإحساس بالظلم.. ومييلة البخت..
والآن..

الأسباب..

أسباب القرار الذى انتهيت إليه..

إن من حقدك أن تعرفى هذه الأسباب بتفاصيلها.. ولكى أطمئنك.. أؤكد لك منذ الآن أنها ليست أسباباً متعلقة بك.. أنت زوجة فاضلة.. أنت خير الزوجات.. أنت عصارة ما فى الحياة من غذاء.. غذاء الروح، وغذاء العقل، وغذاء الجسد.. أنت مشبعة ولكن الأسباب كلها متعلقة بى أنا.. أنا الذى كنت أخوض المعركة وحدى.. وكان يجب أن أكون أنا الذى أتخذ القرار.. وحدى أيضاً.. وسأضطر أن أعود إلى الوراء سنوات حتى لا تحتارى فى فهمى.. سأمر بسرعة.. فإن معظم أحداث حياتى تعلمينها، وإن كنت لم تفكرى فى ترتيبها، ترتيباً مسلسلاً بحيث تصل بك إلى قرار بالطلاق..

لقد تركت قريتنا فى مديرية قنا لألتحق بالجامعة وأنا فى السابعة عشرة من عمرى.. وكانت نقلة كبيرة بين حياة القرية، وحياة القاهرة بالنسبة لى.. نقلة لم يسبقها إعداد نفسى، ولا إعداد عقلى.. وبهرت.. وبقيت ثلاث سنوات مبهوراً.. والبهرة تشل

كل انطلاق يمكن أن يندفع فيه شباب فى مثل عمرى.. كانت بنات الجامعة والنساء اللاتي أراهن فى شوارع القاهرة، مخلوقات غريبة بالنسبة لى.. غريبة بالنسبة لأمى التى لا تخرج من بيتها، إلا وهى مختفية فى زعبوط يخفى حتى عينيها.. وغريبة بالنسبة لأختى التى حجزت بجانب أمها منذ كانت فى السابعة، ولم تخرج من دارنا إلا إلى الدار الأخرى.. أقصد، دار زوجها.. وغريبة بالنسبة لزينة.. الفتاة التى ذبحها شقيقها لأنها أطلت على ابن عمها مكشوفة الوجه.

ولكن هذه البهرة.. وهذه الغربية.. بدأت تخف شيئاً فشيئاً.. ومنذ أصبحت فى السنة الثالثة بكلية الآداب، بدأت أختلط بالبنات، وبدأت أجهد نفسى فى أن أبحث عن مبررات منطقية لتصرفاتهن مع الأولاد.. وبدأت كثير من هذه المبررات تتسرب إلى منطقتى.. وأصبحت أذهب مع البنات إلى الرحلات الجامعية دون أن أفقد احترامى لهن.. وأصبحت أرى الواحدة منهن ترتدى بنطلوناً يبرز كل قطعة من جسدها، دون أن أفقد اقتناعى بها..

والواقع أن سرعة اقتناعى بتصرفات البنات، كانت تصحبها سرعة فى تحررى من إحساسى بالمسئولية عن المجتمع كله.. وعن مجتمع الجامعة بالذات.. كان إحساسى الفردى قد بدأ يطغى على إحساسى بالمجتمع.. وإحساسى بمسئوليتى عن نفسى بدأ يسبق مسئوليتى عن الناس وبنات الناس.. بدأت أقبل البنات كما هن،

ما دام هذا لن يتسبب لى فى خسارة.. وما دمت لست مسئولا عن واحدة منهم..

أقول لك هذا، لترى الفرق بين الاقتناع والإحساس.. فالذى تغير فى هذه الفترة لىس اقتناعى، ولكنه إحساسى.. نتيجة تغير المجتمع الذى أعيش فيه.. فى قريننا كان إحساسى يشمل القرية كلها.. ولكن هذا الإحساس تقلص فى القاهرة، إلى أن أصبح إحساساً فردياً..

وقد كان لى فى نهاية سنوات الجامعة، والسنوات التى أعقبته، علاقات مع بنات كثيرات.. لم أحب.. بمعنى الحب الذى عرفته معك.. ولكنها كانت علاقات تستطيعين أن تسميها صداقة متحررة.. تصل إلى حد تبادل القبلات، وأكثر من ذلك قليلاً.. وكنت أقبل هذه الصداقات أيضاً بإحساس اللا مسئول.. اللامبالى.. وكان هذا الإحساس يترك على ذهنى غلالة رقيقة، أبدو بها كأنى مقتنع بهذا النوع عن العلاقات، وهذا النوع من البنات.. ولكنه لم يكن أبداً - كما اكتشفت أخيراً - اقتناعاً أصيلاً..

ثم..

سافرت إلى باريس كما تعلمين، لأعد رسالة الدكتوراه.. وقد سافرت وأنا أرسم لنفسى عن باريس صورة العاصمة الإباحية، المنحلة، المتهتكة.. ولم تستطع قراءتى الكثيرة عن عظمة الأدباء الفرنسيين أن تخفف من هذه الصورة.. فقد كان يخيل

إلى دائماً أن هؤلاء العظماء ليسوا واقعاً.. إنهم تاريخ.. إنهم فى السماء.. أما باريس فهى مدينة منحلة، بلا عظماء، وبلا مبادئ.. ولكن عندما عشت فى باريس بهرت بثقافتها.. إن ثقافة باريس، وجديتها، وكفاحها فى سبيل رقى العقل البشرى، أمر واقع.. ليس تاريخاً.. إنه واقع باريس.. إن الثقافة على الأرصنة.. وفى المقاهى.. وفى البيوت.. وفى عقول كل البنات.. حتى العاهرات.. فإذا كان هذا الواقع الثقافى هو الذى فرض مظاهر الانحلال على باريس.. فلا يمكن بعد هذا أن يسمى انحلالاً.. أبداً.. هذا الذى يسميه الناس انحلالاً، ليس سوى انتصار العقل.. انتصار الثقافة.. إنه التقدم الذى يصنعه الإنسان..

واقتنعت بباريس..

بكل ما فى باريس..

وانتهيت من الدكتوراه فى خلال عامين.. نلتها مع درجة الشرف.. ولكنى بقيت فى باريس لأعد دكتوراه أخرى.. وتزوجت كما تعلمين..

تزوجت زميلتى فى الجامعة.. فرانسواز..

ولم تكن فرانسواز عذراء.. عرفت أنها ليست عذراء من قبل أن أتزوجها، وبرغم ذلك تزوجتها.. لم أفكر لحظة واحدة فى أنها ليست عذراء.. إن ثقافتى رفعتنى كثيراً فوق هذه التوافه.. عذراء.. ماذا يعنى أن تكون الفتاة عذراء أو ليست عذراء.. لا شىء.. لا شىء

بالمرّة.. ولم يكن هذا الموضوع قط مثار نقاش بينى وبين فرانسواز..
ولا حسب أحدنا حسابه.. لم أحس أنها نقصت حقة، لأنها ليست
عذراء.. أبداً.. أبداً.. ليس هناك ما أعانيه لا فى عقلى ولا فى
إحساسى.. وكل ما عرفته عن فرانسواز أنها كانت تحب شاباً قبل
أن تلتقى بى، ثم هجرته.. وبرئت من حبه.. وحتى هذا لم يُثر
فى أذى تردد فى الزواج بها.. لماذا.. إن من حقها أن تحب.. لم
يكن معقولا، ولا منطقياً أن تبقى حتى تلتقى بى وهى فى السابعة
والعشرين من عمرها، دون أن تحب.. دون أن يكون فى حياتها
رجل..

وقضيت معها ثلاث سنوات من أسعد سنوات عمرى..
إنى لم أنكر سعادتى معها، عندما حدثتكَ عنها.
ثم..

ماتت فرانسواز.. فى حادثة..

ولم أناقش موتها.. فمناقشة الموت جدل سفسطائى.. والحزن
على الموت حزن عقيم.. سخيّف.. تنطلق إليه العواطف الجاهلة..
لا العواطف المثقفة.. ولكنى ناقشت وحدتى بعدها.. وتعذبت
بوحدتى.. وحرزنت لوحدتى.. ليست وحدة جسدى، ولكن وحدة
عقلى، ووحدة روحى ومزاجى وثقافتى.. فقد كانت زميلة روحى،
وزميلة مزاجى.. وزميلة ثقافتى..
وعدت بعدها إلى القاهرة..

عدت ومعى باريس..

باريس فى عقلى ، وفى قلبى..

وقررت أن أشتغل فى الصحافة حتى أفيد بثقافتى عددًا أكبر من طلبة الجامعة.. حتى أساهم فى رفع المستوى الثقافى بين أهل مصر.. حتى أنتشلهم من أحاسيسهم الجاهلة ، وأخرجهم من وراء قضبان المنطق العتيق الذى يحبس أفكارهم ، ويحبس أحاسيسهم ، ويحرمهم من متعة الانطلاق فى عالم أوسع وأرقى.. أوسع من الأسوار البالية التى أقاموها حولهم ، وأرقى من التفاصيل الصغيرة التافهة التى يعيشون فيها..

إلى أن قابلتك..

وكانت ثقافتك أرقى بكثير من الشهادة الجامعية التى

تحملينها..

ولا أزال أذكر أول كتاب قررنا أن نقرأه معًا.. لقد قررنا أن نعيد

قراءة كل أعمال جان بول سارتر.. ويعيد كل منا تقييمه لها..

ولا أزال أذكر التعليقات التى كنت تتركينها على هوامش الكتب

التي أقرأها بعدك.. كانت تعليقاتك كأنها تسجيل لأرائى.. كأنك

تعلمت على يدي.. لقد ارتبطت بك ثقافيًا قبل أن ترتبط بك عاطفيًا

أو جسديًا..

ولم يكن لجسدينا دور فى هذه الفترة.. لا أدري ، هل عن تعمد

منك.. أم لأن ظروف لقائنا لم تكن تتيح لنا التعبير عن حاجة

جسدينا..

المهم..

لقد عرضت عليك الزواج، ولم أكن قد قبّلتك أكثر من ثلاث مرات.. واحدة فقط على شفقتيك.

وترددت أنت قليلا، ومررت سحابة قائمة على عينيك، ثم قلت:
- دعنى أفكر؟..

ودهشت.. فيم تريدين التفكير.. إذا كنا قد ارتبطنا ثقافياً إلى هذا الحد، وأدى بنا الارتباط الثقافى إلى ارتباط عاطفى.. فماذا بقى لتفكرى فيه..

وقلت لك فى دهشة:

- تفكرين فى ماذا؟..

ونظرت إلى طويلا.. نظرة ملؤها الحيرة.. وقلت وصوتك ينضح بالعذاب:

- أريد أن أقول لك شيئاً..

قلت والدهشة تستبد بى:

- ماذا؟

قلت وأنت تحنين رأسك:

- إنى لست عذراء..

وأذكر ساعتها أنى ضحكت ضحكة كبيرة، وقلت:

- وماذا يعنى هذا؟

قلت :

- ألا يعنى هذا شيئاً؟..

قلت وآثار ضحكى بين شفتى :

- لا.. لا يعنى شيئاً..

ولكنى عندما أجبته، قفز فى رأسى شىء لم أكن أتوقعه.. كأنى تذكرت فجأة أنى فى مصر، ولست فى باريس.. نعم.. طوال هذه الشهور التى مضت منذ عدت من باريس.. أكثر من عام.. لم أتنبه إلى أنى أصبحت أعيش فى مصر لا فى باريس.. لم أتنبه إلا عندما صرحت لى بأنك لست عذراء.

إن فرانسواز لم تصرح لى بأنها ليست عذراء - لم تكن تعتقد أن هذا شىء يستحق أن تصرح به إلى..

إن فرانسواز.. باريس..

وأنت.. القاهرة..

وقد صممت أنت يومها على أن تروى لى قصة وكيل مكتب والدك الذى اعتدى عليك وأنت فى الثانية عشرة من عمرك.. وكيف أن أحداً لا يعلم بخبر هذا الاعتداء.. لا والدك.. ولا أمك.. لا أحد يعلم أنك لست عذراء سوى وكيل المكتب.. وأنا..

ولم أكن أريد أن أسمع قصتك.. ولم يكن يهمنى أن أسمعها.. سواء كان الرجل قد اعتدى عليك، أو أنك كنت قد استسلمت له بإرادتك.. فهذا لا علاقة له بنا..

وقد عدت تقولين، كأنك تصرين على إقناعي:

- كنت أستطيع أن أخفى عنك كل هذا.. وكنت أستطيع أن أجرى عملية جراحية تجعل منى عذراء مزيفة، حتى لا تكتشف شيئاً بنفسك.. ولكنى فضلت أن أطلعك على الحقيقة ما دمت تريد أن تتزوجنى..

وأجبتك:

- إنك تتكلمين كالجاهلات.. كأنك فتاة قروية.. ماذا يعني كل هذا الذى تقولينه.. لا يعنى شيئاً أبداً.. إنى أريدك كما أنت .. بتجاربك.. إن هذه التجارب هى التى كونت الشخصية التى أحبها.. ثم إنك تنسين أنى إنسان مثقف.. وأنى عشت فى باريس.. وابتسمت أنت ابتسامة مسكينة..

ثم وافقت على الزواج..

ولكنك بعد أن تركتنى.. وجدت نفسى يوماً أتعرض لتيارات ذهنية كأنها تهب على من عالم سحيق.. بعيد.. عالم ظننت أنى تحررت منه.. هربت منه على أجنحة ثقافتى.. ووجدت نفسى، برغم إرادتى أناقش موضوع الفتاة العذراء من جديد.. كأنه موضوع فوجئت به.. وأخذت أقنع نفسى كأن فى داخلى تلميذاً يتلقى المبادئ الأولى للفكر المتحرر.. قلت لنفسى إن حرية الجسد لا تختلف بين المرأة والرجل.. وقلت لنفسى إن الفتاة التى فقدت عذريتها ليست أقل شرفاً من الفتاة العذراء.. الشرف لا يمكن أن يعلق على قطعة

واحدة من الجسد، ثم نترك باقى الجسد حرّاً يفعل ما يشاء، دون أن يفقد شرفه.. وقلت إن الشرف هو شرف الروح، والعقل.. شرف الضمير.. وشرف الكلمة.. وقلت إن المرأة ليست زجاجة مسدودة بالشمع الأحمر، مكتوب عليها: «لا تفتح إلا بمعرفة الزوج».. قلت لنفسي كلامًا كثيرًا..

وكان عقلى مقتنعًا طبعًا بهذا الكلام..

ولكن بقى فى نفسى شىء يقلقنى..

وأصارحك اليوم بأنى تزوجتك كنوع من التحدى لهذا القلق.. تحدى نفسك.. تزوجتك لأنصر ثقافتى على هذا المجهول الذى يعيش داخلى ويقلقنى..

وكنت واثقًا أن ثقافتى ستنتصر فى النهاية..

ولكنى منذ اليوم الأول لزواجنا.. ربما بعد أن التقى جسدانا لأول مرة، مباشرة.. اكتشفت أن الأمر بالنسبة لى ليس سهلا كما كنت أتصور.. وأن ثقافتى قد لا تنتصر.. فقد وجدت نفسى ساعتها أتمنى لو أنك كنت عذراء.. إنى لا أعرف ما هو الفرق الحسى أو العاطفى الذى يمكن أن أشعر به لو أنك كنت عذراء.. فلم يكن لى من قبل فتاة عذراء.. ولكنى وجدت نفسى أفكر فى هذا الرجل الذى اغتصبك وأنت صغيرة.. ولم أكن أشك فى قصتك التى رويتها لى.. لم يخطر على بالى أنك كذبت علىّ.. أو.. لم يكن هذا يهمنى.. سواء صدقتك أو كذبتك.. كان كل ما يهمنى أن هناك رجلا آخر أخذك

قبلى.. وأخذك بلا زواج.. وكنت أتصور هذا الرجل.. أتصوره بشعاً
كريهاً، ثم أشعر بكراهية عنيفة نحوه.. ثم أشعر بهذه الكراهية
تدفعنى إلى التفكير فى ارتكاب جريمة.. أريد أن أقتله.. نعم..
أريد أن أقتل.. تماماً كأي فلاح من قريتنا يكتشف ليلة الزفاف
أن زوجته ليست عذراء.. أنا.. أنا.. أنا الذى أحمل فى عقلى وفى
ضميرى كل هذه الثقافة.. الكنوز الهائلة التى تحوى كل مستقبل
الإنسان.. أنا.. أفكر كفلاح قريتنا..

ولكن فرانسواز أيضاً لم تكن عذراء..

وحاولت أن أقنع نفسى بأنك كفرانسواز..

وحاولت أن أقنع نفسى بأنى ما زلت فى باريس..

ولكن، لا..

مستحيل..

أنت عطيات.. ليست فرانسواز..

وأنا فى القاهرة.. لست فى باريس..

ولكن ما هو الفرق؟..

لماذا أمنح فرانسواز حقوقاً، لا أستطيع أن أمنحها لك بنفسى

البساطة؟..

لماذا لا أكون فى القاهرة، كما كنت فى باريس؟

فكرى معى..

لماذا؟..

ربما لأن جنوري تمتد في مصر إلى بعيد.. إلى جد جدى.. إلى آخر أجدادى.. وليس لي جنور في باريس..

وربما لأن المجتمع الذى كان يحيط بي فى باريس يختلف عن المجتمع الذى يحيط بي فى القاهرة.. لأنى لا أستطيع أن أرى الجلايب فى الشارع، وباعة القرمس، ثم أتصور نفسى فى باريس.. وقد كنت فى باريس أساير مجتمعا حتى فى تقاليد.. وأستسلم له.. ولكنى - وأنا فى القاهرة - لو فعلت ما كنت أفعل فى باريس، وآمنت بما آمنت فى باريس، فإنى لا أستسلم للمجتمع، بل أتحداه.. وأنا لا أستطيع أن أتحدى المجتمع.. ثقافتى لا تمنحنى القوة الكافية لأتحداه..

وربما.. ربما لأنى لا أشعر بمسئوليتى عن مجتمع باريس.. ولكنى أشعر بمسئوليتى عن مجتمع مصر.. فلم يكن يهمنى أن أناقش تقاليد أهل باريس، ولكن يهمنى أن أناقش تقاليد أهل مصر..

وربما لأن فرانسواز عندما فقدت عذريتها، لم تفقدها وهى تحس أنها ترتكب خطيئة.. أما أنت فقد اعتبرت نفسك ضحية.. واعتبرت نفسك موصومة بالخطيئة..

وربما.. وربما.. عشرات «وربما»..

والمعركة تشتد فى داخلى..

وقد اكتشفت أثناء هذه المعركة أنى تنازلت عن كثير من منطق ثقافتى التى تلقيتها فى باريس..

لقد كنت فى باريس أعجب بفن الليدو والفولى برجير.. الفن العارى.. وكان الجسد العارى فى نظرى ليس كشفًا عن عورة، ولكنه تعبير عن جمال.

ولكنى عندما عدت إلى مصر كتبت دون أن أدري مقالا أهاجم فيه نجمة سينمائية كشفت عن ساقها فى أحد الأفلام.. وكنت فى باريس أقرأ لسارتر.. وألبرتو مورافيا.. وتنسى وليامز، دون أن أحس بأن أحدًا منهم قد خدش ناموس الأخلاق وهو يكتب ويصف المشاهد الجسدية، بصراحة، ولكنى بعد أن عدت إلى مصر أصبحت أصب كل لذعة قلمي على أى كاتب يدمج فى إحدى قصصه مشهدًا جنسيًا.. و.. و.. تحولات كثيرة.. أو هى انحرافات طرأت على منذ عدت من باريس، وكان أقواها أنى أحاسبك بينى وبين نفسى، لأنك لست عذراء..

والمعركة التى تدور فى صدرى لا تريد أن تسكت.

ويومًا بعد يوم أفقد ثقتى فى نفسى.. وفى ثقافتى..

وبدأت أشعر بأنى منافق كبير.. وأنى أضحك على الناس بهذه الشهادات التى أحملها.. بأنى لست مثقفًا.. عقلى ليس مثقفًا، وقلبى ليس مثقفًا، وإحساسى ليس مثقفًا.. الثقافة فى ذاكرتى فقط.

كأنى مقرئ من مقرئى القبور، أحفظ آيات القرآن وأتلوها مائة مرة
فى اليوم، ولكنى لا أعمل بها، ولا أحس بها..

وقد لاحظت أنت شرودى الدائم.. ولاحظت القلق المرتسم دائماً
فى عينى.. وحاولت جهدك أن تخففى عنى، ولكنك لم تستطعى
لأنك لم تكونى تدرين سبب هذا الشرود وهذا القلق.. وربما لاحظت
أيضاً أنى بدأت أتردد كثيراً على قريتنا فى الصعيد.. كنت أذهب
إلى هناك وأجلس بجانب أمى، وأستريح.. أستريح من ثقافتى..
وأشعر أنى فى مكانى..
أدرين..

لقد اكتشفت أن كل هذه الثقافة التى أحملها، ليست سوى كتاب
أضعه فى جيبى، وأخرجه كلما أردت أن أستعين به فى كتابة مقال
لجريدة.. كل هذه الثقافة ليس لها أثر فى منطقتى، ولا فى نفسى..
إنها شىء اشتريته.. ووضعته فى جيبى..

وهزمت أمام نفسى..

وكان يجب كى أستريح أن أفعل ما كان يفعله جدى..

أن أطلقك..

فأنت لست فرانسواز..

أنت عطيات..

فرانسواز كان من حقها ألا تكون عذراء..

أما أنت.. فلا..

حبيبي أصغر مني

أنا زوجة طلقت ثلاث مرات..
إنهم ليسوا ثلاثة رجال.. ولكنه رجل واحد طلقني ثلاث
مرات..

طلقني.. لا.. أنا التي كنت أطلب الطلاق في كل مرة..
وكنت أحبه.. ولكن حبي كان يصطدم بكرامتي.. وكرامتي كان
يجرحها إصراره على أن يقضى ليلتين من كل أسبوع مع أصدقائه..
وأصداؤه كلهم عزاب.. هذا الصنف المستهتر من الشبان.. وأكثر
من مرة ضببت أثراً من آثار لهوه مع أصدقائه.. آثار أحمر شفاه في
منديله.. آثار بودرة فوق قميصه.. ودائمًا أضبط هذه الآثار في صباح
الليلتين اللتين يقضيهما مع أصدقائه..
وحاولت أن أبعد عن أصدقائه.. فلم أستطع.. حاولت أن أقنعه
بألا يسهر وحده.. فلم أستطع.. ثم طالبت أخيراً بأن يكون لي الحق
في أن أسهر وحدي خارج البيت في الليلة التي يسهر فيها..
لم لا.. إنى أو من بالمساواة.. أنا موظفة مثله.. وأكسب مثله.. فلماذا
لا يكون لي نفس الحقوق التي يمنحها لنفسه.. ولكنه كان يرفض..
ويصر على أن أبقى في البيت وحدي..

وكنت أستطيع أن أخونه كما يخوننى.. أن ألهو مثل لهوه..
ولكنى لم أفعل أبداً.. كنت أشعر بالتمزق كلما تصورت نفسى
لرجلين فى وقت واحد.. جسدى يقشع لمجرد أن أتخيل رجلا
آخر يلمسنى غير زوجى..
لم أخنه.. ولكنى طالبته بالطلاق صوتاً لكرامتى..
وظلقنى.

قضيت ستة أشهر وأنا مطلقة.. وبرغم ذلك لم أحاول أن يكون لى
رجل آخر.. أبداً، لم أحاول، رغم كل الإغراء الذى يحيط بكل شابة
مطلقة جميلة.. كنت أعتبر نفسى فى كل يوم من الشهور الستة،
كأنى ما زلت زوجته.. برغم الحرمان الشديد الذى كنت أعانيه..
ثم أعادنى إليه..
ووعدنى أن يغير من نفسه..
وعدت إليه.. ملهوفة إليه..
ولكنه لم يف بوعده..
عاد كما كان..

وقاومت الصراع الذى اشتعل من جديد بين كرامتى وحبى..
قاومت طويلاً.. إلى أن غلبتنى كرامتى.. فطلبت الطلاق مرة ثانية..
وظلقنى..

وعشت مطلقة سنة كاملة.. لم أحاول أيضاً أن يكون لى خلالها
رجل آخر.. بل لم أحاول أن أتزوج.. اعتبرت نفسى أنى لا أزال

زوجته.. وتحملت الحرمان القاسى.. وكنت أضحك على نفسى
عندما تشتد بى قسوة الحرمان، وأتخيل أن زوجى مسافر.. وأنه
سيعود.. ويجب أن أحتمل إلى أن يعود..

وقد عاد..

أعادنى إليه.. وأسرعت عائدة تحت ضغط عذاب الحرمان.. لم
يكن الحب وحده هو الذى أعادنى.. ولكنه الحرمان.. الحرمان
الطويل المر..

وواعد..

ولكنه أيضاً لم يف بوعده..

وقد فكرت فى هذه المرة أن أخونه، حتى أتخلص من الصراع
بين حبى وكرامتى.. ولكنى اكتشفت أن الخيانة الزوجية ستفقدنى
الاثنين.. الحب، والكرامة.. وخير لى أن أحتفظ بأحدهما..
واخترت أن أحتفظ بكرامتى.. وطلبت الطلاق..
وظلقتنى للمرة الثالثة..

هذه المرة أصبح الأمر مختلفاً.. فإنى لن أستطيع أن أعود إليه إلا
بمحلل.. رجل آخر يتزوجنى قبل أن أعود إليه..

فهل أستطيع أن أتزوج رجلاً آخر.. لا.. لا أستطيع إذا كان
الزواج لمجرد أن أعود لزوجى الأول.. لا أستطيع حتى إذا كان هذا
«المحلل» رجلاً صورياً.. مجرد إجراء رسمى على الورق.. أحس
أنى سأظل موصومة بهذه الورقة الرسمية إلى الأبد.. إذا لم تترك
أثراً فى جسدى، فإنها ستترك أثراً فى إحساسى.. فى كرامتى..

وبرغم ذلك، بعد أن مرت الشهور.. شهور الحرمان.. بدأت
كرامتي تلين.. وبدأت أتصور أنى أستطيع أن أقبل على نفسى إجراء
«المحلل»..

ولكن زوجى لم يعد إلى..

سافر..

سافر إلى بعيد..

وبدأ الأمل يذوب.. وبدأت أحس أنى أنتقل إلى عالم آخر..
عالم ليس فيه الرجل الذى كان زوجاً لى.. وليس فيه أصدقاؤه..
وليس فيه أهله.. وليس فيه بيجامته المخططة.. ولا فمه المفتوح
الذى يتشاءب به كل صباح..

وقد انتقلت فعلاً إلى عالم جديد.. مجتمع جديد يضم زميلاتى
وزملائى فى العمل.. وأصدقاء جدد.. وجوه جديدة.. وعادات
جديدة.. وأصبحت أخرج فى رحلات.. وأسهر سهرات بريئة..
سهرات ثقافية..

ولكنى بقيت دائماً السيدة الفاضلة..

لم أخطئ أبداً..

ولم أفكر فى الخطأ إلا بعد أن عرفت صلاح..

كان صلاح إنساناً رقيقاً.. مهذباً.. فنانياً.. مثقفاً.. وقد شعرت به

منذ أول لقاء لنا، كما لم أشعر برجل آخر ممن يحيطون بى..

واحترت فى بادئ الأمر فى تفسير شعورى نحوه.. فهو مختلف
عن زوجى الأول.. مختلف عنه فى كل شىء.. زوجى الأول لم
يكن رقيقاً، ولا مهذباً، ولا فنانياً.. كان عنيفاً، مادياً، يسيطر على
جسدى أكثر مما يسيطر على روحى.. وكنت أحبه.. فكيف أحب
رجلا آخر مختلفاً عنه..

وبددت الأيام حيرتى..

إنى أحبه..

أحب صلاح..

ولكن.. ماذا أفعل بهذا الحب.

إن صلاح أصغر منى بأربع سنوات.. ولا يمكن أن أتزوج رجلا
يصغرنى بهذا الفارق الكبير.

وصلاح يريد أن يتزوجنى..

لا..

لن أتوجه..

لو تزوجته فسأصدم فى زواجى الثانى أكثر مما صدمت فى
زواجى الأول.. لقد كانت مصيبتى فى زواجى الأول أن زوجى كان
يكبرنى بعام واحد.. فماذا يحدث إذا كان يصغرنى بأربع سنوات..
إنى واثقة أن صلاح سيشعر بفارق السن بعد اليوم الأول من الزواج..
إنه يقول الآن إن فارق السن لن يكون له أثر.. ولكن هذا كلام
يقوله قبل الزواج.. وكل الرجال يقولون قبل الزواج ما لا يقولونه
بعد الزواج..

لا لن أتزوج..

إنن ماذا أفعل..

هل أكون له بلا زواج؟

مستحيل..

لقد مضى على علاقتى به أكثر من ستة أشهر دون أن أمنحه
نفسى.. ولم يكن هذا سهلا على.. أبداً لم يكن سهلا.. إننى أعانى من
كل دقيقة فى عمرى.. فى كل دقيقة أريده.. كله.. وفى كل دقيقة
أقاوم ما أريد.. وأضغط على أعصابى لأحتمل الحرمان.. الحرمان
القاسى.. حرمان تشدد قسوته كلما نظرت فى عينيه المتلهفتين
إلى.. وكلما لمحت شفتيه الظامئتين إلى شفتى.. وكلما لمست يده
الساخنة يدي المرتعشة.. وكلما احتكت كتفه المزدحمة بقوته
بكتفى المحرومة..

وبرغم ذلك..

قاومت..

قاومت لأنى كنت أعلم أنى لو أصبحت لصالح بلا زواج، فسيكون
سهلا على بعد ذلك أن أكون لأى رجل بعد أن يتركنى لصالح..
خير لى أن أعود على حرمان جسدى، من أن أعود على ابتذال
جسدى..

لا يا صلاح.. لنبقى أصدقاء..

واضطر لصالح أن يكتفى بصدائتى..

كنا نخرج سوياً كل يوم.. نتمشى على النيل.. ونزور أصدقاءنا..
ونرقص.. ونتناقش.. ونقرأ كتباً.. ونشترك فى الرحلات الجماعية..
ومازلنا مجرد أصدقاء..

إنى أحبه..

وهو يحبنى..

ولكننا مجرد أصدقاء..

وكانت تمر بى أيام أثور فيها على هذه الصداقة.. أيام أطالب
فيها لى نفسى بحقها فى الحب.. ولجسدى بحقه فى الارتواء.. ولكن
عقلى كان يخمد ثورتى.. اعقلى يا «بت».. لا تتزوجيه، حتى لا
تعيدى تجربتك مع زوجك الأول.. ولا تروى جسدك بلا زواج..
والا عودت جسدك أن يشرب بلا حساب..

إلى أن كان يوم..

وقال لى صلاح ونحن جالسان فى حديقة كازينو قصر النيل..

- شهيرة.. إنى أفكر فى الزواج.. لم أعد أحتمل وحدتى..
ونظرت إليه بعينين متغطرتين.. وقلت:

- سنعود إلى سيرة الزواج.. ألم نتفق أن نكون أصدقاء..

قال فى هدوء:

- إنى أقصد الزواج نفسه.. أى زواج..

وانطلق الذعر من عينى.. ولكنى بسرعة ضبطت أعصابى، وقلت
وأنا أحاول أن أجاريه فى هدوئه:

- ماذا تقصد..

قال مبتسماً:

- ألسنا أصدقاء..

قلت:

- نعم..

قال:

- وأنت أقرب صديقة إلي.. بل إنك أكثر من صديقة.. فإن أُمِّي

كما تعلمين، ماتت..

قلت:

- إني أحب أحياناً أن أكون أمك..

قال:

- إذن.. اخطبي لي.. أي واحدة تعجبك..

وضغطت على أعصابي بكل إرادتي، وقلت من تحت أسناني:

- بس كده.. حاضر..

وبدأت أعرض عليه أسماء بنات أعرفين، وأنا أقنع نفسي بأنه

فقط يريد أن يغيظني.. ثم قلت له وأنا أدعي اللامبالاة:

- ما رأيك في ابنة خالتي.. لقد عرفتك بها من قبل..

وقال:

- إنها حلوة..

قلت:

- وسنها مناسبة.. ثمانية عشر عامًا.. أصغر منك بست سنوات..
قال:

- فارق معقول..

قلت:

- وذكية.. وثقفة.. وست بيت..

قال:

- ودمها خفيف..

قلت:

- سأكلم أمها..

ومازلت معتقدة أن صلاح يغيظني.. لا يمكن أن يكون جاداً في
الزواج.. لماذا يتزوج.. إنه يستطيع أن يستغنى عن الزواج كما أفع
أنا..

ولكن.. هل استغنيت أنا عن الزواج..

لا..

ولكني كنت قد قررت بيني وبين نفسي أن أتزوج رجلاً يكبرني
كثيراً.. لا تقل سنه عن خمسة وأربعين عاماً.. مركز.. وثروة..
وأخلاق.. رجل أستطيع أن أستقر معه، وأن تهدأ حياتي معه..

ولكن صداقتي لصلاح كانت تؤجل تنفيذ قراري يوماً بعد يوم..
فلماذا لا يؤجل هو الآخر قراره.

ولكنه يلح على لأتصل بخالتي..

وانتابتنى نوبة من العناد، والخطرسة الكاذبة، واتصلت فعلا
بخالتي، وعرضت عليها «صلاح» زوجًا لابنتها «تيما».. دلع،
فاطمة..

ورحبت به خالتي..

ورحبت به فاطمة..

وكاد الكمد يقتلني.. ولكنى بقيت على عنادى، وغطرستى..
أقوم بدور الخاطبة لصلاح.. بل إنى دعوته ودعوت تيما وأمها على
الشأى فى بيتى.. بيت أهلى..

وأنا أنتظر فى كل يوم أن يعدل صلاح عن رأيه..

ولكنه لم يعدل..

وهو يفوضنى فى السير فى إجراءات الخطبة.. ويستعجلنى!!
وقلت له والمرارة تشق حلقي:

– الرجال لايؤتمنون.. منذ شهرين فقط كنت تريد أن تتزوجنى

أنا..

قال:

– أنت رفضت..

قلت:

– لأنى أكبر منك.. وزواجنا لا يمكن أن يدوم..

قال:

– معقول..

قلت:

- لقد اكتشفت غلطتك بدليل أنك تريد أن تتزوج الآن تيما..
تتزوج والسلام.. أى واحدة..

قال:

- الرجل فى حاجة إلى زواج.. والتوفيق بيد الله.. وأنا أصغر
منك، ولا أصلح لك.. وقد يوفقنى الله مع تيما..

قلت:

- فعلا.. خير ما فعلت..

و..

وتحدد يوم إعلان خطبته إلى تيما..

وأنا أتعذب.. وأطوى عذابى فى كبريائى الكاذبة.. وابتسامة
مرة أضعها على شفقتى كلما رأيت صلاح.. وكلمة رأيت تيما.. ثم
أبكى فى فراشى.. وأصحو ذابلة.. كل شىء فى يذبل.. عيناي..
شفقتاي.. قلبى.. عقلى.. أعصابى.. لقد نقص وزنى ثلاثة كيلو فى
شهر واحد..

وصلاح يسألنى:

- ما بك..

وأرد فى كبرياء:

- لا شىء.. عاملة رجيم..

و..

وذهبنا أنا وصلاح نشترى دبلتى الخطوبة..
انتقيت الدبلتين بنفسى.. ودموعى مختبئة تحت جفنى..
ورفع الصائغ رأسه إلينا وسألنى:
- الاسم من فضلك.
وترددت قليلا.. ثم قلت:
- صلاح..
وعاد الصائغ يسأل:
- والاسم الثانى..
وفتحت شفتى، وهمست فى صوت خفيض:
- شهيرة..
اسمى أنا..
وسمع صلاح همستى برغم خفوتها، وصرخ فى الصائغ:
- شهيرة.. الاسم الثانى شهيرة..
ورفع إليه الصائغ عينيه كأنه يسأله لمانا هو فرح إلى هذا الحد..
إلى حد الصراخ..
والتقط صلاح يدى وضغط عليها، وعاد يقول للصائغ فى هدوء:
- العروسة اسمها شهيرة.. والعريس اسمه صلاح.. والتاريخ
تاريخ النهاردة..
ثم جذبنى..
وسار بى كأنه يجرى..

ودفعنى فى أول سيارة أجرة.. وذهب بى مباشرة إلى المازون..
كتبنا الكتاب.. بلا خطبة.. أغننتنا فترة الصداقة عن فترة الخطوبة..
أترى ماذا تقول خالتي..
إنها تقول إنى خطفت عريس ابنتها..
إنها لا تعلم شيئاً..
ولا تعلم أنى أعيش خائفة.. الخوف يمزقنى.. فحبيبى..
زوجى.. يصغرنى بأربع سنوات.

استقالة عالمة الذرة

سيدي الوزير..

صباح الخير..

هذا خطاب استقالة.. وكنت أستطيع أن أكتب استقالتي في كلمات قليلة.. «أرجو التفضل بقبول استقالتي لأسباب خاصة.. وتفضلوا سيادتكم بقبول فائق الاحترام».. وقد فكرت فعلا في أن أرسل إليك استقالتي في هذه الكلمات القليلة، حرصًا على الطابع الرسمي بين الوزير وإحدى موظفات وزارته.. ولكنني تذكرت ما يمكن أن تسببه لك استقالتي من ألم.. وتذكرت برقيتك التي أرسلتها إلي وأنا في أمريكا، بعد أن نلت شهادة الدكتوراه في علوم الذرة من جامعة هارفارد.. لم تكن برقية وزير، كانت برقية أخ كبير، ومازلت أذكر كلماتها حتى اليوم: «عزيزتي عنايات، إنى فخور بك».. كلمات ملأت قلبي بالفرحة.. أحسست أن مصر كلها فخورة بي.. وأن كل من في مصر أخ لي وأب وابن عم.. وكلهم فرحون بي.. ثم تذكرت الحياة التي عشتها بعد أن عدت، وعينت في المعهد القومي للبحوث.. لم تكن حياة موظفين، كانت حياة تسودها روح العائلة الواحدة.. ربما لأن العلم يرفعنا جميعًا فوق روتين الحياة الرسمية التي يعيشها الموظف العادي داخل جدران

الوزارة.. وربما لأننا كعلماء نحس أننا أضعف بكثير من الكون الهائل الذى يسعى العلم لاكتشافه، فنشعر بحاجتنا إلى أن نقترب بعضنا من بعض، عقلياً وعاطفياً، لنتمكن ويحتمى أحدنا بالآخر، حتى لا نضيع فى هذا الكون الهائل.. وربما لأنك وأنت عالم كنت تنسى دائماً أنك وزير.. فكنت معنا أحياناً وصديقاً..

لذا.. لم أكن أستطيع أن أكتب استقالتي فى كلمات رسمية قليلة.. حقت علىّ يتطلب منى أن أسرد لك كل مشكلتي.. بتفاصيلها.. إنها تفاصيل لا تهملك كوزير.. وربما أضحكك كعالم يستغرق العلم كل رأسه.. ولكنى واثقة أنها تهملك كأخ كبير.. وواثقة أنك بروح الأخ تستطيع أن تقدر وتفهم كل ما سأرويهِ لك..

تبدأ المشكلة يا أخى الوزير، منذ أن تزوجت.. وانتقلت أنا وزوجى إلى بيتنا الصغير فى عمارة السعودية المطلة على النيل.. لقد أحببت هذا البيت.. وضعت فيه كل أحلامى، وكل ذوقى، وكل حنانى، ولكن البيت لم يشغلنى أبداً عن العمل.. كنت أنساه بمجرد أن أصل إلى المعهد وأرتدى المعطف الأبيض وأقف أمام مائدة البحث.. لا، لا.. لم أكن أنساه، ولكنى كنت أخبئه فى قلبى، وأترك قلبى ينام بين ضلوعى، ويبقى عقلى وحده صاحياً.. يعمل.. وتذكر سيادتك أنى كنت منكبة خلال هذه المدة على التجارب الخاصة بتأثير النظائر المشعة، فى علاج مرض تسوس العظام، وفى كل يوم.. فى الساعة الثانية تماماً.. كنت أشعر بقلبي يستيقظ

من نومه، ويأخذنى من فوق العظام المسوسة، ويذهب بى إلى بيتى.. بيتى الذى أحبه.. ولم أكن أصل إلى البيت قبل زوجى، كما هو المفروض.. غالباً كنت أذهب بعده، برغم أن سيادتك أمرت بتخصيص سيارة لتوصيلنا إلى منازلنا.. ولم يكن زوجى يغضب.. أبدأ.. فأنت تعرف أنه أستاذ الألكترونيات فى كلية الهندسة.. عقله واسع.. تلقى علومه فى سويسرا.. ويستطيع أن يقدر حلاوة الحياة التى يعيشها زوجان يشغلان بالعلم..

وكنت أجدّه عادة، قد أعد المائدة ووضع الطعام، الذى طهوته فى الليل، على البوتاجاز، ليسخن.. ونضحك ونحن نأكل.. وأروى له ما وصلت إليه فى بحثى عن تسوس العظام، ويروى لى ما وصل إليه فى بحثه عن الألكترونيات.. ثم نقوم ونغسل معاً الصحون والأوانى.. ثم يخرج زوجى إلى الشركة التى يعمل مستشاراً لها، بعد الظهر.. وأعود أنا إلى المعهد.. ولم يكن نظام العمل يضطرنى إلى العودة إلى المعهد، ولكنى كنت متحمسة لأن أنتهى من بحثى، حتى أجعلك تفخر بى مرة ثانية، كما افتخرت بى يوم نلت الدكتوراه بدرجة امتياز..

هكذا كنت أعيش أنا وزوجى..

لم أفكر أيامها فى أن أستأجر خادمة.. أبدأ.. كنت أخاف على بيتى من الخادمت.. ولم أكن فى حاجة إلى خادمة.. كنت أفضل أن أعيش على نمط الحياة العائلية فى أمريكا.. أنا وزوجى نتعاون فى

خدمة أنفسنا.. وفي كل يوم جمعة كنت أدعو البواب ليعاوننى فى تنظيف البيت نظافة كاملة..

إلى أن حملت يا سيادة الوزير..

هل رفعت حاجبيك وأنا أحدثك بهذا الكلام.. لا تنسَ أنى امرأة.. صحيح أنى أشتغل فى علوم الذرة.. وصحيح أنى نلت الدكتوراه.. وصحيح أنى قضيت ثلاثة أرباع عمرى بين الكتب والمعامل.. ولكن كل هذا لا يعنى أنى لست امرأة.. لا يعنى أنى أصبحت عقلا إلكترونياً.. ولا يعنى أنى أصبحت رجلا، مثلك، أو مثل زميلى الدكتور عوض..

إنى امرأة.. ولأنى امرأة رفضت أن أستعمل أى دواء يمنع الحمل. برغم أنى قدرت أن الحمل قد يشغلنى عن انهماكى واندفاعى فى بحث تأثير النظائر المشعة فى علاج تسوس العظام.. أتدرى ماذا كان أول ما فكرت فيه بعد أن حملت؟
خادمة..

لم أكن أستطيع أن أضع أى تنظيم لحياتى بعد الوضع، دون الاستعانة بخادمة.. ولم أكن أتصور أن الخادمة يمكن أن تكون مشكلة.. أبداً.. لم أكن أتصور هذا..

وكنت حاملا فى الشهر الخامس عندما أوصيت البواب أن يبحث لى عن خادمة.. أو على الأصح مربية.. وقد مضى أكثر من أسبوع دون أن يرسل لى البواب أحداً.. وعدت أسأله، فقال وهو يهز رأسه فى أسى:

– أصلهم عزاز قوى اليومين دول يا ست هانم..
ولم أصدقـه.. اعتقدت أنه كسلان.. وبدأت أوصى زملائي،
وأقارب زوجى، أن يبحث لى كل منهم عن مربية، أو خادمة..
وأخيراً.. بعد شهر.. جاءتنى زينب.. امرأة فى الثلاثين من
عمرها.. ضاحكة الوجه.. مليئة بالصحة والعافية.. نشطة..
وفرحت بها..

عاملتها، أحسن مما يعامل أصحاب الملايين الأمريكان
خادماتهم.. أعددت لها سريراً فى الحجرة التى أعددتها للمولود
المنتظر.. وخصصت لها أربع ملاءات سرير، لتغيرها فوق سريرها..
و.. و.. لن أضيع وقتك يا سيادة الوزير، فى هذه التفاصيل النسائية..
ولكنى كنت أعامل زينب، كأنى رزقت بها قبل أن أرزق بطفلى..
وأعدّها لتحمل معى الأمانة الكبيرة.. أمانة تربية الطفل..
وعاشت معى زينب شهرين.. وفى كل يوم أثق فيها أكثر، إلى
درجة أنى سلمتها كل مفاتيح البيت.. وكنت أعود من المعهد لأجد
كل شىء معداً لى ولزوجى.. كأنى أعددته بنفسى.. بل إنى تحسرت
على الأيام التى ضاعت من عمري قبل أن تدخل زينب بيتنا..
وفى يوم..

خرجت زينب فى إجازتها الأسبوعية لتعود فى اليوم التالى..
ولكنها لم تعد.. ومر اليوم الثانى والثالث ولم تعد.. وارتعش
قلبى.. لم أعد أستطيع أن أنيمه بين ضلوعى، ليتفرغ عقلى للبحث
فى تأثير النظائر المشعة على مرض تسوس العظام..

ثم عادت زينب..

عادت لتبلغنى أنها لن تعود..

– ليه يا زينب؟

وأجابت وهى خجلة من بشاعة الجرم الذى ترتكبه فى حقى :

– أصل جوزى رجعتنى يا ستى..

قلت وأنفاسى تتلاحق :

– وماله يا زينب.. ما يرجعك وتفضلى برضه معانا..

وخبطت على صدرها قائلة :

– يا خبر يا ستى.. أنا جوزى ما يرضاش انى أشتغل أبداً.. ده

أسطى مكوجى قد الدنيا..

وقلت، وأنا أتوسل لها بعينى :

– وهو الشغل عيب يا زينب.. مانا بشتغل أنا كمان..

وقالت زينب :

– لأ يا ستى.. مش ممكن.. أنا جوزى حاجة تانيه غير البيه

بتاعك..

وغلبت فى إقناعها.. إلى أن قلت فى يأس :

– طيب خليكى لغاية ملاقى واحده تانيه..

وقالت :

– معلش والنبي يا ستى.

قلت :

- بس الأصول انك تدينى إنذار، القانون بيقول كده..
ونظرت إلى كأنها تتحفز للدفاع عن نفسها:

- قانون إيه يا ستي.. أنا لا سرقت، ولا قلت.. و..

ولا أطيل عليك يا سيادة الوزير.. خرجت زينب من خدمتى..
هل يمكن أن تشعر بما شعرت به يوم خرجت زينب.. لا.. فأنت
لست امرأة.. لعل السيدة زوجتك تستطيع أن تقدر حالى.. حالة
زوجة صغيرة على وشك الوضع تركتها خادمة مثالية..
وبدأت أبحث عن خادمة أخرى..

كأنى أبحث عن كنز من كنوز الفراعنة..

وبعد أسابيع أرسلت لى زوجة ابن عمى خادمة.. عصمت..
ولم أسترح لعصمت منذ رأيتها.. كانت فى العشرين من عمرها..
تحس بجمالها.. ونظراتها وقحة..

وبعد يومين بدأت تختفى أشياء صغيرة.. قلم روج.. فوطة..
قميص.. كرافطة.. وبعد أسبوعين قررت أن تختفى عصمت من
حياتى.. طردتها..

ثم أرسلت لى أمى من الإسكندرية مربية عجوزاً.. أم سنية..
واسترحت لها فى بادىء الأمر.. ولكنها كسولة.. غبية.. قذرة..
عملت طول حياتها فى بيوت لا تهتم اهتمامى بنظافة بيتى ودقة
نظامه.. ووجدت نفسى بعد أيام أنظف ورائها.. طبق طعامها الذى
تلقيه فى الحوض وتتركه ساعات قبل غسله.. ثيابها المبللة دائماً

التي تفوح منها رائحة العطن.. وكانت تأكل كثيراً.. لم أر في حياتي يا سيادة الوزير عجوزاً تأكل كل هذا الأكل.. وأنا لست بخيلة.. ولكن هذه المرأة تأكل بلا نظام.. تأكل كلما وجدت شيئاً تأكله..

وتقززت منها نفسي..

وطردتها..

ثم وضعت ابنتي..

وضعتها وليس عندي مربية أو خادمة..

وتذكر سيادتك أني أخذت أيامها إجازة شهرين، قضيتهما وأنا أفكر كيف أدبر حياتي وحياة ابنتي، في الوقت الذي أعمل فيه بالمعهد القومي للبحوث، وأتفرغ بعقلي لعلاج تسوس العظام بالنظائر المشعة.

وكنت أقدر عملي.. لم يكن عملي مجرد مساهمة مني في نهضتنا العلمية، بل كان هوايتي.. كان حياتي..

وابنتي أيضاً حياتي..

وفكرت.. فكرت كثيراً..

فكرت أن أرسل ابنتي إلى أمي في الإسكندرية لتربيتها.. ولكني أمّ يا سيادة الوزير.. ولا تستطيع أم أن تتنازل عن ابنتها حتى لأمرها..

فكرت أن أقنع أمى بأن تأتى وتقيم معى فى القاهرة.. ولكن مستحيل.. لا أستطيع أن أربك حياة أمى إلى هذا الحد..

فكرت أن أضع ابنتى فى دار من دور الحضانة.. ولكن أين هى دار الحضانة التى أستطيع أن أضع فيها طفلة فى شهرها الثالث، وأنا مطمئنة.. ليس عندنا دور حضانة..

فكرت أن أطبق نظام «رعاية الأطفال» أو «البيبي سيتر» المطبق فى أمريكا.. ولكننا فى مصر، ولسنا فى أمريكا..

فكرت.. فكرت.. وكان كل تفكيرى منحصراً فى تدبير حياة ابنتى، بحيث أتفرغ لرسالتى الكبرى.. رسالة استغلال الذرة فى سبيل سعادة الإنسان..

ولم يهدنى تفكيرى إلا إلى أن أعود وأبحث عن مربية من جديد.. وجاءت.. سعدية.. شابة سمراء مدربة.. فرحت بها، كما فرحت بزینب.. ومنذ اليوم الأول اطمأنت على ابنتى بين يديها.. ودفعت لها الأجر الذى طلبته.. كنت قد قدرت لها خمسة جنيهات، ولكنها طلبت سبعة ودفعت لها السبعة.. وقطعت إجازتى.. وبدأت أذهب إلى المعهد.. صحيح أنى لم أعد أستطيع أن أتفرغ بكل عقلى للبحث الذى أقوم به.. ولكنى كنت مطمئنة.. مطمئنة على ابنتى بين يدي سعدية..

ولكن..

بعد شهر واحد..

شهر واحد يا سيادة الوزير.. عادت سعيدة من يوم إجازتها
وطلبت حسابها لتخرج من خدمتي:
وصرخت:

- ليه يا سعيدة.. حد زعلك.. ناقصك حاجة..
وقالت:

- أبدًا يا مدام.. بس الجماعة اللي كنت عندهم عايزيني تانى..
وأنا الحقيقة متربية عندهم..
ولا أمل..

وقال لي البواب بعد أيام إنها لم تذهب إلى بيت مخدمها
السابق، بل ذهبت لتعمل في العمارة المجاورة، عند عائلة رفعت
أجرها إلى تسعة جنيهات.

وعدت وانقطت عن العمل لأجلس مع ابنتي..
فكرت أيامها أن أطلب منك أن تسمح لي بأن أعمل بعد الظهر،
حتى أبق مع ابنتي في الصباح إلى أن يعود زوجي، فأتركها له
وأذهب إلى المعهد.. ولكن.. مستحيل.. مستحيل أن أطلب من زوجي
أن ينقطع عن عمله في الشركة التي يعمل فيها بعد الظهر.. ثم إنها
مستوليتي أنا، وليست مسئولية زوجي..
وبدأت أستقبل خادمات جدًّا..

فتحية.. كانت صريحة.. لم تبق إلا ثلاثة أيام، ثم جاءت إلى
واعترفت أنها كانت متقدمة بطلب للعمل في مصنع.. وقد قبل
طلبها..

وخرجت..

ثم أخيراً..

خديجة..

كانت خديجة صغيرة.. فى الثامنة عشرة.. حلوة إلى حد أنسى غرت من جمالها.. وجاءت إلى تلبس بلوفر «موهير» وجيب ترجال، وحذاء فرنى بكعب عال.. كلها مظاهر تخيفنى منها.. ولكن لماذا أخاف.. إن الخادمت فى أمريكا يبدون أكثر أناقة.. ثم إن خديجة لها ابتسامة تفتح القلب.. وقد فتحت قلبى..

ومرت أيام، وأنا لا آخذ على خديجة إلا كثرة تطلعها فى المرآة.. وكثرة وقوفها فى شرفة البيت.. ولكنها كانت حنوناً على ابنتى.. وكانت تعرف كيف تداعبها.. وكيف تجذب النوم إلى عينيها.. وبدأت أواظب على الذهاب إلى المعهد..

ولكنى لم أكن مطمئنة..

أصبحت أعمل بنصف عقلى.. أحياناً بربع عقلى.. وأحياناً يضيع عقلى كله، وأسرح وراء ابنتى.. وأتساءل.. هل ناولتها خديجة رضعة الساعة الثانية عشرة.. هل هى بجانبها الآن.. هل.. هل.. وفى يوم..

كنت فى المعهد.. وكنت منكبة فوق الميكروسكوب أفحص العظام المسوسة.. وفجأة شعرت بنغزة فى قلبى.. قلب الأم.. شعرت بأن شيئاً قد حدث لابنتى، ولم أحاول أن أتساءل عن سر هذا الشعور..

لم أحاول أن أكذبه.. وقفت جامدة برهة.. ثم انطلقت وأنا ما زلت
أرتدى المعطف الأبيض، وجريت إلى خارج المعهد، وركبت تاكس
وعدت إلى البيت.. والهلع يشدد في قلبي دقيقة بعد أخرى.. وأصرخ
في السائق..

- قوام من فضلك يا أسطى..

إلى أن وصلت..

وجريت إلى المصعد..

وجريت من المصعد إلى داخل الشقة..

وسمعت شيئاً كالصراخ.. صراخ ضعيف.. ووضح الصراخ في

أذني وأنا أقرب من غرفة ابنتي.. ابنتي تصرخ..

ورأيته..

واقعة من فوق سريرها على الأرض..

والحمد لله لقد كان تحت السرير سجادة سميكة، وإلا كان رأسها

قد تهشم..

وانحنيت عليها ملهوفة.. جزعة..

الحمد لله.. سليمة..

ولا أدري ما حدث لي.. ولكنني تركت ابنتي على الأرض،

لم أرفعها لأضعها على السرير، وجريت كالمجنونة أبحث عن

خديجة.. ووجدتها واقفة على سلم المطبخ مع شاب يبدو عليه أنه

طالب.. وقبل أن أفكر.. وجدت نفسي أندفع إليها وأرفع ذراعي

وأنهال عليها ضرباً، وأنا أصيح:

- يا مجرمة.. يا مجرمة.. امشى اطلعى برة..
اطلعي من بيتي..
وجرى الشاب من أمامي.
وخرجت خديجة من بيتي..
حدث هذا أمس..
واليوم أجلس لأكتب لك هذا الخطاب..
لأستقبل..
سيدي الوزير..

أرجوك.. لا تحاول أن تذكرني بواجبي نحو بلدي، ونحو نهضتنا العلمية.. ولا تذكرني بالسنين الطويلة التي قضيتها لأجعل من نفسي إنسانة تستطيع أن تخدم وطنها في مجال لم يتسع بعد لكثير من المواطنين. لا تذكرني بالسلام.. وتقدم الإنسان.. فإنك لا تستطيع أن تضع كل ذلك في كفة ثم تضع ابنتي في الكفة الأخرى.. وتجعلني أختار.. مستحيل.. إنك تنسى أنها ابنتي.. وأنني أم.. وقد أستطيع أن أستقبل من واجبي كعالمة في الذرة، ولكني لا أستطيع أن أستقبل من واجبي كأم..

والذنب ليس ذنبي.. إنه ذنب الدولة.. ذنب المجتمع.. إن الدولة عندما تشتري آلة جديدة فإنها تخصص لها عمالا يعاونونها على العمل.. واعتبرني آلة.. ولكن عندما بدأت هذه الآلة تعمل لم تخصص لها الدولة عمالا يساعدونها حتى تؤدي عملها على الوجه الأكمل..

الدولة لا تستطيع أن تطالبنى بالعمل إلا إذا طمأنتنى على
راحة ابنتى.. وحياتها..

وأرجوك يا سيادة الوزير.. أرجوك إذا صممت على أن ترفض
استقالتي، أن تبحث لى أولا عن مربية لطفلتى، وتضمن لى أن أطمئن
عليها..

وتفضل أيها الأخ الكبير بقبول خالص تحيتى.

كلام ستات

لا أدري لماذا قررت أن أعمل «رجيم».. إنى لست سمينة.. ومدام أسبريدون الخياطة تقول إن قوامى يجنن، وإنى أصلح لأكون موديلًا.. مانيكان.. وإنها تعتبر كل ثوب تصنعه لى دعاية لها.. وحتى لو كانت مدام أسبريدون تنافقتى.. فإنى أستطيع أن أحم جمال قوامى فى عيون الرجال إذا استثنيت زوجى..

وبرغم ذلك قررت أن أعمل رجيمًا.. ربما لأنه لم يكن لى شىء آخر أعمله.. وكان من ضمن الرجيم أن أمشى فى كل يوم ساعة.. لتنشيط الدورة الدموية.. ولم أكن أستطيع أن أمشى وحدى.. ولا مع زوجى.. فى قدم زوجى «كألو» ولا يحب المشى.. فاتفقت مع صديقتى، روحية وإنجى، أن نمشى معًا.. كل يوم.. ابتداء من الساعة الثالثة بعد الظهر حتى الرابعة.. فى الشمس الدافئة..

روحية رفيعة.. ومشاكلها كثيرة.. وربما وافقت على ممارسة رياضة المشى، كرجيم لعقلها أكثر منه رجيمًا لجسدها..

وإنجى.. تعتقد فى نفسها أنها جميلة، يابختها فالمرأة التى تعتقد فى نفسها أنها جميلة امرأة سعيدة ولم تكن إنجى أيضًا فى حاجة إلى رجيم.. وربما لم تكن تحب المشى.. ولكنها قطعًا تحب الاستعراض!!

وأنا أحب روحية وإنجى.. إنهما أعز صديقاتى.. ونحن الثلاثة
نثير حسد كل النساء بصدقتنا والحب المتبادل بيننا. كل منا تعرف
عن الأخرى كل شىء.. بل إنى أستطيع أن أقلد شخير زوج روحية
وهو نائم، وأستطيع أن أعرف النقود التى يحملها زوج إنجى فى
جيبه كل صباح.. إنها تعطيه كل صباح خمسين قرشاً.. كمصروف
خاص.. وهما لا يعرفان عنى أى شىء.. لا لأنى أتعمد أن أخفى
عنهما شيئاً.. ولكنى لا أحب أن أتحدث عن حياتى الخاصة.. كل
ما يعرفانه هو الكالو الذى يتألم منه زوجى..
المهم..

خرجنا فى اليوم الأول.. كنت أرتدى ثوبى البرتقالى الصوف..
صوف مصرى، وكأنه صنع بباريس.. كل صديقاتى اعتقدن أن زوجى
اشتراه لى من باريس.. مدام اسبريدون الخياطة أيضاً. برغم أنها
تعتبر خبيرة فى الأقمشة، اعتقدت أنى اشتريته من أوروبا..
وكانت روحية ترتدى الجيب الأسود الذى أراه عليها منذ
عامين.. جيب ترجال.. لا أدرى كيف تطيقه كل هذا العمر..
وبلوزتها الخضراء.. والجاكت الجلد التى تبدو فيها كسائق
الأتوبيس.. غلبت فى أن أجعل روحية تهتم بثيابها.. إنها
بخيلة.. ولا تشتري إلا ما يحتمل السنين.. ولكنها طيبة والنبى..
إنى أحبها..

وهلت علينا إنجي وهى ترتدى بنطلون «سترتش» لونه أحمر،
وبلوفر أسود.. والنبي ده كلام.. ده احنا طالعين سبور.. مش
رايحين حفلة.. يبقى لازمة البنطلون إيه.. ولكن هكذا إنجي..
إنها تعتبر نفسها صغيرة.. نونو.. مع أنها ليست أصغر من ابنة
خالتي عدلية.. إلا بستة أشهر.. ولكن إنجي دمها خفيف.. إنى لا
أستطيع أن أستغنى عنها يوماً واحداً.. حبيبتي.. صاحبتي..
وقد صحبت معى كلبى روك.. ليمشى معنا.. إن المسكين محبوبس
فى الشقة طول النهار والليل.. حرام.. وقد قالت لى روحية بمجرد
أن رأت روك:

– لازمة روك إية.. عامل رجيم هو راخر..
وأجبتها:

– علشان يبقى معنا راجل على الأقل!!
إنى سريعة النكته:

وبما أنى صاحبة فكرة الرجيم، فقد بدأت أدرب روحية وإنجي
على طريقة المشى الرياضى.. أفردى ظهرى.. اشطفى بطنك.. ارفعى
رأسك.. وأحكمت وضع نظارتى على عيني.. وبدأنا نسير نحن
الثلاثة، كثلاث فدايات.. إن النظارة تجعل لى شخصية قوية..
وإنجي تغار من نظارتى..

وكنا قد اخترنا أن نمشى فى شارع النيل ابتداء من عمارة أبو
الفتوح حتى كوبرى عباس.. إن صديقتى عزة حرم محمد فهمى مدير

شركة الصاروخ، تسكن فى عمارة أبو الفتوح.. وقد اشترت خاتماً من عند باروخ فى الأسبوع الماضى، وقالت إنها اشترته بثلاثمائة جنيهه.. عزة تحب المبالغة.. إنها لطيفة ومهذبة، ولكن عيبها هو المبالغة.. وقد ساومت باروخ منذ شهرين على نفس الخاتم وطلب فيه مائة وخمسن جنيهاً، ولكنى لم أشتره، لأنى سبق أن رأيت مثله فى أصبع فريدة هانم.. ولكن روحية تقول إن عزة لم تشتتر الخاتم، ولكنها أخذته هدية من صديقها عبد العزيز..

- حرام عليكى يا روحية..

وقالت روحية وهى تمشى مشية الفدائيات:

- حرام ليه يا اختى.. الحق يتقال.. وعزة مزوداها حبتين..

دى ما بتحترممش جوزها أبداً.. زى ما يكون مش عايش معاها..

وقالت إنجى:

- دمه تقيل عبد العزيز ده.. وعنيه لايده على الستات.. ده ما

بيبطلش بص..

إن إنجى تعتقد أن كل رجل يطمع فيها، حتى أزواج صديقاتها..

وحتى أصدقاء صديقاتها.. يا بختها.. إنى لست مغرورة، ولكنى

أحياناً أحسد المغرورات..

وقلت:

- حرام عليكى يا إنجى.. ده راجل مؤدب، وما بيرفعش عينه

عن الأرض..

وقالت إنجى وهى تنظر فى نظارتى :

- صدقينى.. أنا عارفاه كويس، ومستعدة أحكى عنه للصبح..

بس انتى اللى مبتخديش بالك..

وقالت روحية:

- سيبكم من عزة وعبد العزيز.. تعرفوا اللى حصل لخديجة..

وقالت إنجى:

- مين خديجة دى؟

وقالت روحية:

- خديجة شكرى:

وقالت إنجى:

- آه قصدك دوى.. مالها.. حصل لها إيه.. دى صاحبتى قوى..

وقالت روحية:

- مش اكتشفت ان جوزها واخذ شقة لواحدة طليانية..

وقالت إنجى:

- السافل.. كل الرجالة كده..

وقلت:

- يا روحية.. خافى ربنا.. بلاش سيرة الناس..

وقالت روحية:

- أمال حانتسلى فى إيه.. وأصل دى حاجات ما ينسكتش

عليها..

وقالت إنجى :

- على كل حال دودى معملتش شوية.. هى المحقوقة.. ده كان جوزها لازم يطلقها من زمان.. وأهو بدل ما يطلقها، عرف عليها.. ومرت بجانبنا سيارة فيها بعض الشبان.. يبدو أنهم من طلبة الجامعة واحد منهم شعره أصفر.. والثانى تخين وشكله مضحك.. والثالث جالس على حافة نافذة السيارة وجسمه خارج منها..

وصاح الأشقر:

- البنطلون الأحمر يكسب..

وابتسمت إنجى..

إن إنجى لا تستطيع أن تمشى مشية رياضية.. إنها تمشى كأنها فى عرض أزياء.. وبنطلونها يبرز كل قطعة من جسدها.. عيب.. ميصحش.. وبرغم أنها طيبة، ودمها خفيف، إلا أنها أحياناً تزودها حبتين..

إنى لا أطيق الشبان الشقر.. إنهم أقرب إلى البنات..

وعادت روحية تقول:

- وتعرفوا خديجة عملت إية.. راحت بنفسها على الشقة.. وهجمت على البنات الطليانية ونزلت فيها بأديها ورجليها.. مخلتش فيها..

وقالت إنجى :

- ياي..

وقلت:

- تبقى غلطانة.. كان لازم تحترم نفسها.. ثم إن الست ذنبها
إيه.. الذنب ذنب الراجل.. والحساب يبقى مع الراجل..
وعادت روحية تقول:
- ما هي حسنية كانت أعقل يوم ما ظبطت جوزها.. تعرفوا
عملت إيه..

وارتفع صوت رجل من ورائها يقول:

- أموت فى الشيش بيش..

إنسى أحترق الرجل الذى يتلهف على قوامى.. إنى أعرف أن
قوامى مثير، ولكن الرجل يجب أن يضبط أعصابه.. ولكن.. كيف
رأى هذا الرجل نظارتى وهو يسير خلفنا..
وحيرنى هذا السؤال..

وقالت روحية:

- يوم ما حسنية عرفت ان جوزها..

وقبل أن تتم، انطلق كلبى روك يجرى وراء قطة..

وصرخت:

- روك.. روك.. تعالى هنا.. بقولك تعالى هنا..

وصاح الرجل الذى يسير وراءنا.

- ما تزعليش يا قطة.. الكلب حايرج لك.. كل الكلاب تحت

أمرك..

وفجأة وقفت بجانبنا سيارة.. وأطل منها وجه رجل، وقال
مبتسماً:

- إنجى هانم..

وشهقت إنجى، ثم التفتت إلينا وقالت فى ارتباك:

- ده محمود بن عمى..

وقالت روحية وهى ترفع حاجبها الرفيع:

- ابن عمك من إمتى!

وقالت إنجى:

- اخص عليكى ياريرى، مش مصدقانى.. تعالوا أعرفكم بيه..

وقلت:

- لأ.. لأ يا إنجى محببش أتعرف بحد فى الشارع..

وقفزت إنجى نحو السيارة وصافحت الرجل المبتسم، وأخذت

تتحدث معه..

إنه رجل عجوز.. أكبر من إنجى بكثير.. وإن كانت روحية

تؤكد أنه لا يتجاوز الأربعين من عمره..

وعادت إنجى إلينا بعد حديث طويل، وقالت:

- عن إنكم يا جماعة.. محمود بيقول إن مرات عمى عيانة

قوى، ولازم أروح أقعد جنبها..

وقلت فى حدة:

- إحنا متفقناش على كدة يا أنجى..

وقالت إنجى :

- وأنا إيه كان عرفنى ان مرات عمى عيانة.. ده محمود كان
جاي لى البيت دلوقتى ، علشان يقول لى..

وقالت روحية :

- حلال عليكى يا ستى..

وقالت إنجى ضاحكة :

- لا والنبى يا روحية.. متبقيش وحشة أمال.. أنا بعد نص
ساعة حاكون فى البيت.. يدوبك أطل على مرات عمى وأرجع على
طول..

وقفزت إنجى فى السيارة بجانب الرجل المبتسم.

ومشيت أنا وروحية.. مشية رياضية.. الظهر معتدل.. والبطن
مشفوط.. والرأس مرفوع.. وبيننا صمت ووجوم..

وعاد روك من وراء القطة، وسار بجانبى..

وقطعت روحية الصمت قائلة :

- بأه دى عمايل تعملها إنجى..

وقلت لها :

- ما انتى عارفة إنجى يا روحية.. يعنى مش عارفاها..

وقالت روحية :

- بس مش كدة.. طيب ده انا ممدوح قعد يتحايل على فى
التليفون إنه يبجى معانا، مرضتش.. وقال لى إيه حايمشى ورانا

بالعربية برضه مارضيتش، قلت له إن شفتك مش حيحصل لك
طيب.. أصل كل حاجة، لها أصول.. الواحدة متكونش بالشكل
..ده

قلت:

- إنتى لسه بتعرفى ممدوح..

قالت:

- أعمل إيه.. مش راضى ينكشح أبداً.. مش سايبنى أتنفس
لوحدى..

والرجل لا يزال يسير خلفى، وقال بعد أن كح كحة غليظة:

- أجيب تاكسى أنا كمان..

وقلت لروحية:

- شفتى الراجل بيقول إيه.. طبعاً.. بعد ما شاف اللى عملته

إنجى، من حقه يتجرأ علينا..

وقالت روحية:

- إنما تعرفى أن ممدوح مخلص صحيح.. ده شاف منى الويل..

وبرغم كده مخلص..

قلت:

- بس انتى حقك تعقلى بأه يا روحية.. ده ضفر جوزك بعشرة

زى ممدوح..

وقال الرجل الذى يسير خلفى:

- يعنى لازم أجيب عربية ملاكى.. بكره ربنا يفرجها.. أنا
موظف فى وزارة التموين.. وكلها شهرين وأكمل حق العربية نصر
..١١٠٠

وقالت روحية:

- ومين قال لك انى أقدر استغنى عن جوزى.. حقه ملكيش
حق.. إنما أعمل إيه.. ما هو كمان قاعد فى مكتبه ليل ونهار..
ويخرج سرحان، ويرجع سرحان..

وقال الرجل الذى يسير خلفى وهو يصفر لروك:

- روك.. روك.. تعالى أما أقول لك كلمة تقولها لستك..
وإذا بروك يذهب إلى الرجل فعلا..
والتفت خلفى وأنا أصبح فى عصبية:
- روك تعالى هنا..

ولكن روك يلحس يد الشباب، ويهز له ذنبه..

وقال الشاب وهو يرفع إلى عينيه:

- أنا نفسى أصاحب روك.. عندك مانع..
وقلت فى حدة:

- من فضلك.. أنا معرفكش..

ثم استدرت للشباب، وقلت لروحية:

- ياللا بينا نرجع يا روحية..

إنه شاب صغير.. لا يزيد على الثانية والثلاثين.. وهو يضع
نظارات مثلى.. ولكن نظارته أسمك بكثير من نظارتى.. وعيناه

تطلان من خلفها، كأنهما نجمتا الصباح.. وشاربه صغير أنيق..
ولكن حلقه لا تعجبني.. ذوقها بلدى.. وكرافته تقرف.. ويشبك
فيها دبووسًا.. إنى أكره الرجل الذى يشبك دبووسًا فى كرافته..

وعدنا إلى البيت..

وقد اتصلت بإنجى بمجرد وصولى فلم أجدها قد وصلت إلى
بيتها.. واتصلت بها بعد ساعة أخرى فلم أجدها قد وصلت.. وفى
الساعة الثامنة مساء اتصل بى زوجها فى التليفون وقال فى ضيق:

- إنجى عندك..

وبلغت ريقى وقلت:

- كانت عندى هى وروحية، ولسه نازلين دلوقتى.. زمانها
جايالك.. أصلنا خرجنا نتمشى علشان الرجيم، وبعدين عزمتم
على الشاى عندى.. وازيك يا رحمى بيه.. أخبارك إيه..

وقال رحمى بيه:

- كويس.. بونسوار بأه..

ووضع السماعة..

إنى أكره نفسى عندما أضطر أن أكذب.. وإنجى تضطرنى دائماً
لأن أكذب..

وفى اليوم القالى خرجت لأتمشى أنا وروحية.. لم نأخذ إنجى
معنا.. حتى لا يبووظ الرجيم.. بل إنسى من يومها قاطعت إنجى..

تصوروا.. أنها تذيع عنى فى كل مكان أنى أحب موظفًا فى وزارة
التموين.. يضع على عينيه نظارة.. ويشبك فى كرافته دبوسًا..
وعنده سيارة نصر ١١٠٠.. بل إنها تقول إنى أنا الذى اشتريت له
السيارة..

أعمل فيها إيه يعنى..
ربنا يسامحها..

فهرس

الموضوع	الصفحة
١ - علبة من الصفيح الصدى	٥
٢ - كل هذا الحب	٥١
٣ - الله الله.. ياست	٧٣
٤ - المدرسة الحديثة	٨٣
٥ - غابة من السيقان	٩٥
٦ - عبد الله وفاطمة	١١٣
٧ - كل هذا الجمال	١٢٥
٨ - اكتشاف الألونيوم	١٣٧
٩ - الهزيمة	١٥٣
١٠ - لا تذبحوا الفراع	١٧١
١١ - صائد الغزال	١٨٣
١٢ - القضية الأخيرة	١٩٧
١٣ - الحب والعدالة	٢٠٩
١٤ - وسام للمتهم	٢١٩
١٥ - غلطة حبيبي	٢٢٩
١٦ - العقل الكبير	٢٤١

- ١٧ - أزمة المثقفين ٢٥١
- ١٨ - حبيبي أصغر منى ٢٦٧
- ١٩ - استقالة عالمة الذرة ٢٨١
- ٢٠ - كلام ستات ٢٩٥